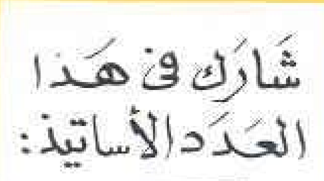


مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية





العدد الخامس

السنة الثانية عشرة

محرم 1389

ابريل 1969



مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد الخامس
السنة الثانية عشرة
محرم 1389
أبريل 1969
ثمن العدد
درهمان

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنـة 20 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثـر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حسـاب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحسـاب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouet El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغـرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفـون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

كلمة العدد

من وحي الهجرة

بدا في الافق هلال محرم ، فأطل معه عام هجري جديد يحمل معه تباشير التفاؤل والرضى ، والمحبة والسلام ، فاستقبله المسلمون بقلوب مفعمة بالأمل والرجاء ، ونفوس متطلعة الى حياة مؤمنة مستقرة راضية ، ترنو الى غد أسعد ، ودنيا جديدة مومنة ، ومستقبل زاهر يسود فيه الامن والعدل ، والطمانينة والرخاء ...

وقد مرت احتفالات دينية رائعة ومهرجانات شائقة في مختلف اقطار العالم الاسلامي بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية التي كانت بداية انتصار رائع للاسلام ، وتاسيسا لكيان امة عمتها الفرقة ، وسادها التخاذل وضعف الشوكة ، وتحصينا للدعوة المحمدية ضد العقائد الفاسدة ، والشرائع الباطلة ، والعادات الهزيلة ، كما كانت اعظم بناء لصرح شامخ حمى الانسانية وأعلى شانها ، فألهمت النفس رشدها وتقواها ، وهدت الصحب الكرام الى الطيب من القول وصراط مستقيم ..

كانت هجرة الرسول عليه السلام من مكة الى المدينة طريقا لا بد من ان يعبره هو وصحبه رضوان الله عليهم ، فرارا من الوثنية والالحاد ، والفسوق والفجور ، والعنت والارهاق ، وسبيلا الى الحرية والكرامة والعز ، تريدها امة فتية تبني لنفسها مجدا مؤثلا ، ونصرا عزيزا ..

فلله در المهاجرين الذين نهضوا ، في ايمان وصدق ، وحب ووفاء ، بحقوق الدين، وثبتوا على صراطه المستقيم، رغم ما اعترض دعوتهم من جهالة رعناء، وضلالة عمياء، كانت ظلمات في طريق النور، وعقبة كؤودا امام كل اصلاح .. انهم هاجروا من شهوات الجسد الماجنة، واهوائه الضالة الى مراقي السمو والعلاء، ومن الضعف الخائر الى القوة الصامدة ، ومن الخوف الواهن الى الامن المطمئن ، ومن الظلمات الدامسة الى النور المضيء ، ومن الاسراف الفاحش الى الاقتصاد الرزين ، ومن البذخ المتطرف الى الاعتدال القويم ، ومن الرخاء المثبط الى الكفاح والنضال ، فأظلتهم مدينة صغيرة أصبح لهم فيها وجود وكيان ، تتحدى العالم حولها بما فيه

من حول وطول، ومنة وقوة، وامبراطوريات واسعة، وممالك شامخة الذرى، عالية البنيان ، تدل بسلطانها وتعتز بأراجيفها واباطيلها التى سرعان ما انهارت أمـام دعوة الحق ، ومبادىء الاسلام ، والعدل والمساواة .

* * *

قامت فى نفوس المهاجرين حوافز البطولة، ودامت معانيها فى قلوبهم راسخـة بفضل تعاليم الدين الاسلامي الجديد ، وبواعث الايمان المحض ، والغضب لله ، والارتباط بتعاليمه ، فلم يستطيعوا ان يعيشوا فى ضلال العبودية المتمثلة فى مواجهة الايدي المهددة ، والاعين الضيقة ، والنفوس الصغيرة ، والقلوب الواغرة ، فتركوا ديارهم وأموالهم ، وأعرضوا عن أسباب متعهم ، وبسمات أطفالهم ، وظلال بيوتهم ، ورفعوا اقدامهم فى حزم وعزم واصرار ، واعتزاز واكبـار ، ووضعوهـا فى أمل واثق الى أن وصلوا الى يثرب ، وتبوأوا الدار والايمان .

خرجت المدينة تستقبلهم بولائدها وأطفالها وشيوخها ونسائها وهم يترنمون بتلك الانشودة الخالدة الغالية التى طالما ردد صداها الزمان :

طلـع البـدر علينـا ...

فالتقى المهاجرون والانصار لاول مرة على حماية الدين ، والذياذ عن دعـوة الحق ، والاستظلال براية القرآن ، والاهتداء بهدي الرسول عليه السلام فظللهـم ايثار هذا المجتمع المدني بظلال وارفة من المحبة والاخاء ، وعاشوا فى كنف هذا الاخاء ، وتلك المحبة على أتم ما تكون المجتمعات الراقية صفاء وهـدوء ، وتعاونـا وتعاطفا ، فقد كانت نفوسهم متجاوبة ، وعواطفهم صادقة لانهم قامـوا بهجـرة صحبتها العقيدة الصحيحة ، والمباديء الاسلامية السامية ، فانطبق وصف الله سبحانه على أصحاب هذا المجتمع المدني الذى ساد فيه هذا الايثار ، وذلك الخلق بقـولـه تعـــالى :

((والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجـر اليهـم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويوثرون على انفسهـم ، ولو كان بهـم خصـاصـة .))

لقد كان المهاجر المكي ينزل فى بيت الانصاري المدني فيطعمـه ، ويقاسمـه عقاره ، وثمار نخله ، وكل ما لديه من مال ومتاع ، ولما غنم رسـول الله صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير من اليهود ، ودعا الانصار وشكرهم على ما صنعوا مع المهاجرين من انزالهم اياهم فى منازلهم ، واشراكهم فى اموالهم ، ثم قال عليه السـلام :

((ان احببتم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير بينكم ، وبين المهاجرين ، وكانوا ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وان احببتـم أعطيتهـم ، وخرجوا من دياركم)) . فقال سعد بن عبادة ، وسعد بن معـاذ الانصاريـان : ((بل نقسمه بين المهاجرين ، ويكونون فى دورنا كما كانوا ، فنادى كـل الانصـار قائلين : ((رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار .))

ومن الامثلة أيضا على خلـق الايثـار الذى كان سمة غالبـة على الانصـار ما رواه القشيري عن ابن عمر قال :

أهدى لرجل من أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : « ان أخي فلانـا وعيالـه احـوج الى هذا منا ، فبعثه اليهم ، فقالوا هم أيضا مثل قوله ، فبعثوا بها الى أهل بيت آخر حتى تداولها سبعة بيوت ، ورجعت الى البيت الاول ».

* * *

لقد كانت الهجرة النبوية حدثا فذا من الاحداث الاسلاميـة الكبـرى التى يجب أن تظل معانيها فى قلوب المسلمين اليوم تحمـل اليهـم سمـات العظمـة والانفتاح الذى يحفزهم الى بناء أمجادهم ، ودعم حياتهم ودفعـهم الى العيـش الرخـي الرغيـــد .

انها مبدأ عز الاسلام ، ومبدأ لتاريخ الانسانية الكاملـة التى ألهمت النفـس رشدها وتقواهـا يوم انفجر الينبـوع الالاهي من بطحاء مكـة ، وانبعث النـور السماوي من أفق طيبة ، فاذا الزمان تبسم وثناء ...

* * *

فهل لنا من أن نتخذ من ذكرى الهجرة اليوم عظة وهدى، نستجلي منها عبرا من أمجادنا ، ونغير مما أصابنا ، وحل بساحتنا من انحراف فى الديـن وخـذلان فى النفوس ، وتواكل وتقاعس .. فقد تغير الجو الديني عندنا فى المنزل وفى المدرسة وفى المجتمع ، ونشأت أجيال خاوية النفوس من القيـم الدينيـة الروحيـة ، وأصبحنا من جراء ذلك نشكو الغدر والاستغلال فى المعاملـة ، ونشكو الذاتيـة والجفاف فى المعاشرة ، ونشكو التخاذل والتقاعس عن البر ، ونشكـو الخيانـة والمجاملة فى المصالح العامة ، ونشكو فقدان الغيرة ، والاعتداء على المحرمات ، ونشكو الاستهتار بالتقاليد والمقومات مما آل بحالتنا الى هذه الصورة الطامسة ، والحال البائسة ، وما سبب ذلك الا ما نعانيه من ضعف الوازع الديني والوجداني والخـلـقي ..

ولا علاج لنا الا بهجر تلك الصفات الكثيفة ، والتباعد عنها الى دار الايمـان والاحســـــان .

دعوة الحق



خلد الشعب المغربي يوم 3 مارس عيدا من امجد اعيادنا الوطنية ، وذلك باحتفاله بعيد العرش المجيد ، واحيائه ذكرى مرور ثمانية اعوام على تربع جلالة الملك المعظم الحسن الثاني على عرش اسلافه المنعمين ، ومبايعة الامة لجلالته اميرا المومنين وحامي حمى الملة والدين .

لقد مرت هذه الذكرى في جو من الافراح يسوده الحماس والوعي بجلالها وعظمتها ، ففي كل جزء من أجزاء الوطن الحبيب ، في المدن والقرى ، في السهول والجبال ، في المداشر والخيام ، نصبت اعلام الزينة واقواس النصر والاضواء ، وتفننت ايدي الصناع والعمال في ابراز الفرحة الكبرى ، فرحة الشعب ، بواديه وحواضره ، بتجديد العهد وتاكيد الولاء والاخلاص لقائد الامة وباعث نهضتها جلالة الحسن الثاني ملك البلاد ادام الله عزه ونصره .

وفي موعد اللقاء مع خطاب العرش تجمع المواطنون في مختلف الاقاليم للاستماع الى صوت جلالة الملك المعظم ، والتملي بطلعة جلالته ، وذلك عن طريق الاذاعة والتلفزة وهو يحدثهم عن المنجزات التي تحققت في عهد جلالته الزاهر ، في مختلف الميادين ، الاقتصادية ، والفلاحية ، والاجتماعية ، والعمرانية ، والسياسية .

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي .

الحمد لله

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

شعبي العزيز :

جرت سنة الامم والشعوب ، على الاحتفال في ايام معلومة من ايام حياتها بذكريات امانيها الغالية ، ومطامحها الكبرى، وامجادها الساطعة ، تخليدا لهذه الاماني ، وقد اصبحت حقائق ثابتة ملموسة ، ولتلك المطامح والامجاد ، وقد غدت واقعا مشهودا ، وصرحا مؤثلا وموردا للاعتبار والاتعاظ مقصودا موردا .

احتفال بالبطولة الظافرة

وهي في احتفالها بهذه الذكريات ، وتخليدها لهذه الحقائق ، وتمجيدها لهذا الواقع ، انما تحتفل بالبطولة الظافرة ، والحزم الناجح ، والصبر الذي تهوى عليه الشدائد ، وتتكسر على شباته المكاره والخطوب ، كما تشيد في احتفالها بالارادة التي لا تنال منها صروف الدهر ، ولا تلين قناتها للنوائب والكروب .

العرش يجسم المطامح والامجاد

وما كان شعب كشعبنا اثر عنه ما اثر عن تنويه بالمكارم ، وحفاوة بالشهامة ، واعتزاز بالمقدسات والامجاد ، أن يتخلف عن غيره من الامم ، او ان يكون في هذا الامر بدعا من الشعوب فاتخذ على الرغم من المضايقات والمعاكسات من يوم ذكرى جلوس والدنا اسكنه الله فسيح جناته على عرش المملكة المغربية ، عيدا يلتقي فيه عاهل البلاد وشعبه ، التقاء تمجيد وتكريم ، واكبار وتعظيم ، وابتهاج وسرور ، وارتياح وحبور ، واستخلاص للعبرة من سالف الايام ، وغابر العصور ، وجرينا من بعد والدنا على العادة المرورثة المحمودة ، فاخذنا نحتفل كل عام بذكرى استخلاف الله لنا، واختياره لشخصنا ، راعيا لك وعاهلا ، ولئن كان هذا الاحتفال مقرونا بهذه الذكرى، فهو احتفال الامة جمعاء بوفائها للعرش العلوي ، الذي يجسم امانيها ومطامحها، وامجادها، وباكبارها واجلالها الملوك الذين تعاقبوا عليه اعزة كرماء ، ابطالا منجبين نجباء ، وحماة اشداء رحماء ، وهو الى هذا الاحتفال ، احتفاء بتلك الاصرة التي جمعت بين أولئك الملوك ، وبين شعوبهم ، وبتبادل العواطف والمشاعر ، وتوافق



الضمائر والسرائر ، واتحاد الرغائب والآمال ، واجتماع الكلمة على الاخذ بأصلح الاسباب ، وركوب اقوم المسالك لدفع اللأواء ، وللحفاظ والابقاء والصيانة وتحقيق الرجاء .

اجتماع استبشار ، وتوكيد الائتلاف

وانا لنحمد الله على ان استمرت تلك الآصرة جامعة واصلة بين ملوك هذه الامة وشعوبهم وثيقة محكمة ، لم تنفصم عراها ولم تخلق جدتها بل لم يزدها توالي الايام ، وتتابع الاحقاب الا قوة ومتانة واستحكاما ، فلما وكل الله عهدة مصيرك الينا ، واسلم امر يومك وغدك الى نظرنا ، وعقد رجاءك بتصريفنا ، الفينا الوشيجة التاريخية الرابطة بين العرش والشعب غضة الاهاب ، ناضرة الشباب ، فملينا نعمة التفاف شعبنا حول عرشنا وشخصنا ، شاكرين لله صنيعه الجميل وفضله الجزيل .

وقطعنا العهد على نفسنا ان نسترخص كل غال ونفيس من جهدنا واهتمامنا وعنايتنا فى سبيل رفع شأنك ، واعلاء كلمتك ، واحلالك بين شعوب الارض واممها مكانا سنيا ، ومقاما عليا .

ومنذ ذلك اليوم الذى من الله علينا فيه برعاية شؤونك ، والقى الينا مقاليد امورك ، ونحن نجتمع فى مثل هذا الحفل اجتماع فرح واستبشار ، وتوكيد للتجاوب والائتلاف فى كل آونة وكل مضمار .

وستظل الوشائج والاواصر التى اوثق مجرى التاريخ عراها بين آبائك واجدادك الاوفياء، الراعين للعهود وبين اسلافنا المقدسين الذين اخلصوا لهذه البلاد اخلاص من صدقوا ما عاهدوا الله عليه جنة واقية ، وعدة باقية ، وتراثا زكيا ، نعتز به اعتزاز الابرار الذين يقدرون الودائع النفيسة حق قدرها ، ويزنون الاعلاق الثمينة بالقسطاس المستقيم ، ويصونونها صيانة من يحرص عليها ويضن بها ، وسيبقى ما اورثك آباؤك من ولاء ووفاء ، وما تلقيناه من اسلافنا الاطهار من اخلاص وحدب ورعاية ، وما سطرناه قديما وحديثا من صفحات غراء فى سجل التاريخ متجشمين للازمات مقتحمين للعقبات متحملين للتضحيات حتى اثاب الله عملنا بما يثيب به العاملين الصابرين منارا يضيء ارجاء ما نسلكه من سبيل ، ورائدا لنا فيما نرومه ونبتغيه تعزيزا للفوز الذى احرزناه ، وتمكينا للنصر الذى انتزعناه ، ومواصلة للتبديل والتجديد واستكمالا للبناء والتشييد .

لقاء امتداد واستعراض واستحضار

فاذا كان اللقاء الذي يتوج كل سنة في مثل هذا اليوم لقاءاتنا المتعددة التي ندعوك اليها طوال السنة في مناسبات شتى ، واغراض مختلفة لقاء امتداد واسترسال واستمرار ، فهو بالاضافة الى هذا لقاء استعراض واستجلاء واستحضار للخطى التي خطوناها، والمراحل التي طويناها والجهود التي بذلناها والمساعي التي استقر عزمنا على القيام بها والمسافات التي بقي علينا ان نقطع اشواطها متجاوبين متآزرين متضافرين شأننا في هذه المسيرة الباقية شقيق شأننا فيما سلكناه من سبيل لانجاز ما انجزناه ، وتحقيق ما حققناه بتكافل وتكاثف وتوافق في الاهداف والغايات .

ذلـــك فضـــل اللـــه

وان من فضل الله علينا واياديه قبلنا ان وفقنا الى معرفة ما تترامى اليه امانيك وتتوق اليه اراجيك وهدانا الى ادراك ماهو كفيل برقيك واسعادك، ودلنا على المفهوم الحقيقي للمسؤولية ، وارشدنا الى المعنى الصحيح للامانة ، ولله المنة والحمد على ان جعلك – شعبي العزيز – من اقدر الشعوب استيعابا لمدلول الالتزام ، واشدهم حرصا على الوفاء بالعهد، واكثرهم استعدادا للفهم والادراك ، واوفرهم حظا من الوعي والتبصر ، واجزلهم نصيبا من الرغبة في اداء الواجب فيسر الله لنا منذ اعتلائنا عرش اجدادنا الميامين رسم الخطط ووضع البرامج واعداد المشاريع وتبيين المسالك والمذاهب ، وحفظ كيان الدولة ، واتخاذ التدابير وتحديد وسائل التنفيذ والانجاز ، والسهر على تتبع سير التطبيق والتحقيق ، واضطلعنا بالمهام التي اوجبها الله علينا لرعاية شؤونك ، وصيانة حقوقك ، ودرء الشر عنك ، وجلب الخير اليك وقيادتك في مدارج الرقي والرفعة ، وايصالك الى مقام نباهة الذكر وعلو الشأن ، وكان ولاؤك المأثور ، ووفاؤك المشهور داعيا لارتياحنا، مؤازرا لنا فيما اخذنا نفسنا بالانقطاع اليه من جليل المقاصد ، ونافع الاغراض ، وصالح الاعمال ذلك ان خصال الاخلاص والوفاء والولاء التي طبعك الله عليها لا يغلب عليها الخفوت والسكون ولا يستبد بها الاتكال والركون والاخلاد والتسليم ، ولكنها خصال حية دائبة الحركة ، تابى الا ان تتجلى في معارض الشغف بالعرفان ، والولوع بالاتقان والافتتان بالمنافسة والسبق والتبريز ، وتعشق العمل الجاد وحب الاسهام بالنصيب الموفور في مجهود الامة الهادف الى النماء، الرامي الى الاثراء، العامل على شيوع الرخاء . وان اهتمامنا المصروف اليك ، وعنايتنا المقصورة عليك ، وحدبنا المنتظم للصغير والجليل من شؤونك ، وعملنا الموصول لصالحك ونفعك ، وما فطرت عليه من مزايا الاخلاص والتعلق والولاء والوفاء لعاهلك وحامي حماك . وما واكب هذه المزايا من مواهب وصفات وساندها من مدارك وملكات كل هذا ضامن باجتماعه وائتلافه وتآزره وتكافله لمسيرتنا المستنيرة بنور الامل الوهاج – اجمل الظروف والاحوال واوفى حظوظ النجاح .

شعبي العزيز :

لقد درجنا كلما حلت مثل هذه الذكرى وتوجهنا اليك بالخطاب على ان نعرض منجزاتنا بتوسع واسهاب ، ليكون علمك محيطا بأعمالنا وجهودنا احاطة شمول واستقصاء ، ومستوعبا لها استيعاب استجلاء واستقراء حتى لا يغيب عنك وجه من وجوهها ، ولا جانب من جوانبها ، الا انه تبين لنا بعد التجربة ان الامعان في التفصيل ، وعرض المنجزات على كثرتها الى جانب التنصيص على المبادىء والقواعد التي ترتكز عليها السياسة التي ننهجها والخطوط الرئيسية التي تتسم بها هذه السياسة من شانهما ان يغمرا تلك المبادىء والقواعد والخطوط التي نود ان تظهر ظهورا جليا ، وتبرز بروزا واضحا ، ومن اجل هذا فاننا احببنا ان يكون خطابنا هذا تعريفا باهم ما انجزناه خلال السنة المنصرمة واستحضارا للاصول السياسية التي كانت مبعثا ومنطلقا للتطبيق والتحقيق والانجاز ، على اننا تعميما للفائدة وارضاء للرغبة في الاطلاع على اعمالنا وجهودنا جملة وتفصيلا اصدرنا امرنا بطبع كتاب مستفيض جامع لما حققته كل وزارة من وزاراتنا من منجزات .

وعهدنا الى وزيرنا في الانباء بالاشراف على طبع هذا الكتاب ليكون في متناول شعبنا بمناسبة هذه الذكرى .

وستقف من خلال عرضنا وفي اثناء مطالعتك للكتاب على ان السنة السالفة لم تكن سنة اخلدنا فيها الى الراحة ، وانما كانت سنة كسابقاتها ، انقطعنا فيها الى الدرس ورسم خطوات العمل ، وعكفنا فيها على تتبع اطوار التنفيذ ومراقبة مراحل اتمام ما بدأناه وانشاء ما قررناه وقياس ما طويناه من مسافات وتقديرا للباقي من الاشواط ، وذلك نهوضا منا بالاعباء واضطلاعا بالامانة لتكون ايها الشعب الكريم اسعد حالا واعز مثالا .

شعبي العزيز :

ان مما لا مراء فيه ان السياسة العامة التي ينهجها كل بلد لا تكون قويمة صالحة الا اذا كانت سياسته المالية سالمة من العيوب والعاهات ، موفورة الحظ من الصحة ، متينة الاركان ، لا تعصف بكيانها العواصف الطارئة ، ولا الاعاصير العابرة ، وانه لمن بواعث مسرتنا ان سياستنا المالية لم تطرا عليها خلال السنة المنصرمة آفة ولا عاهة ، ولم يفت في عضدها ضعف ولا وهن بل كانت كما اردنا ان تكون صحيحة سالمة مستجيبة لرغبتنا في ان تظل اداة يتاح معها لنموها الاقتصادي الانطلاق الذي نامله ونتوخاه .

سياستنا المالية صحيحة وسليمة

ولقد حرصت سياستنا المالية بناء على ما سلف، على تنظيم الاطار الضروري للتوسع الاقتصادي العام وتهيئة الموارد اللازمة لتنفيذ البرنامج الخماسي للتنمية ، فتم طبق اختياراتنا النهائية تامين مختلف وجوه التوازن الاساسي الضروري لكل نمو يؤلف بين اجزائه التوافق والانسجام ، فكان التوازن المالي والتوازن النقدي وتوازن التسديد الخارجي . وعلى هذا فان سنة الف وتسعمائة وثمان وستين : سنة اتمام للعمل الذى قمنا به قصد ارساء قواعد هذه الوجوه من التوازن فامكننا بهذا توجيه مواردنا الوطنية نحو الاستثمار ، واصبح هدفنا بعد هذا التوازن المستعاد الذى يجب ان نحافظ عليه بيقظة مشفوعة بحزم ان نضمن الانطلاق الفعلي لاقتصاد بلادنا .

سنة التطهير المالي والمحافظة على استقرار الاسعار

لقد كانت السنة المنصرمة سنة اتمام التطهير المالي الذى شرعنا فيه على جميع المستويات منذ السنوات الاخيرة .

ففيما يرجع للمالية العمومية فان التوازن المقرر بين المداخيل العادية ونفقات التسيير وتسديد الدين قد اسفر عند التنفيذ عن فائض خفيف وتدل هذه الوضعية فيما تدل عليه على ان ميزانية سنة الف وتسعمائة وثمان وستين بعد تشدد وصرامة كان لهما جدواهما عبرت عن رجوع المياه الى مجاريها بخصوص النفقات العمومية التى ارتفعت بمقدار 12 في المائة بالنسبة لسنة الف وتسعمائة وسبع وستين ، لكن ارتفاعها الى هذا المستوى كان ملائما للنمو الاقتصادي .

وخلال هذه المدة استطعنا ان نبقي توسع المعاملات النقدية في المستوى المعتدل ، ونحافظ على استقرار الاسعار على الرغم من الاهمية الاستثنائية التى اكتساها موسم الحبوب .

وبهذا يجوز القول ان السنة المنصرمة إبانت في ظروف عويصة سيطرتنا على المواد النقدية ، وامكانية الجمع بين المحافظة على التوازن وبين متطلبات النمو الاقتصادي ، وذلك بفضل سلوك سياسة انتقائية للعملة والاسعار .

وفي المجال الخارجي : تاثر ميزان ادعاءاتنا في السنة الماضية بالظروف الدولية التى كان من نتائجها انخفاض اثمان بعض المعادن وانقطاع الحركة السياحية، كما تاثر بعواقب قلة المحاصيل الزراعية في السنوات الاخيرة .

ولمواجهة هذه الظروف : فان المغرب استعمل القرض الذى يدخل في نطاق النظام الدولي للنقد .

وانه لجدير بالذكر ان حاصل التسديدات الدائمة والجارية على الرغم مما واجهناه من ظروف خلال السنة الفارطة ، قد اتجه نحو التوازن من غير ان يتوقف استيرادنا المطرد لادوات التجهيز الذى هو عامل من اكبر عوامل اختلال التوازن .

وها نحن الآن وقد تجاوزنا مرحلة تحقيق توازن الميزانية والوسائل النقدية المجرية وحصلنا على التوازن الخارجي للتيارات المستمرة دون اخلال بالتوازن العام للبلاد ، نستطيع ان نؤكد ان سنة الف وتسعمائة وثمان وستين تشكل قاعدة راسخة لمنطلق نهضة اقتصادية اصح واقوى .

وان استثمار ما يزيد على مليار درهم من ميزانية الدولة خلال هذه السنة الاولى من سنوات المخطط الخماسي ، لبرهان قاطع على ما يمكن ان نبلغه باستقرار مالي من اهداف بعيدة المنال .

ولهذا فقد قررنا ان نعبيء بصفة مستمرة الادخار الوطني لفائدة استثمارات منتجة رغبة منا في قطع شوط اساسي من اشواط مسيرتنا .

وهذا الاختيار في مجال المالية العمومية قد وقع التعريف به بكيفية صريحة بعد ما افرغنا عليه الصفة النظامية في القانون المالي الخاص سنة 1969 ، وذلك بالنسبة للدولة وسيمتد مفعوله تدريجيا الى مجموع القطاع العمومي .

ومن جهة اخرى، فان هذا الاختيار سيكون رائدا لنا فى توجيه القرض ومراقبته ، وسيتجلى فى جميع التنظيمات وجميع المفاضلات فيما يخص تدبير شؤون ميزان اداءاتنا .

شعبي العزيز :

لقد تحدثنا كثيرا عن مخططنا الخماسي خلال السنة المنصرمة وعرفت الاختيارات التى جعلناها عمادا له وأساسا ، وابدت الجماعات والافراد التى دعوناها للتداول بشأنه رايها فيه ، ووقفت على مجهود الدولة الرامي الى تمويله كما وقفت على ما انجز منه.

وحري بنا ونحن نستعرض اعمال دولتنا بمناسبة الاحتفال بذكرى جلوسنا على عرش اجدادنا المقدسين ان نتعرض اليه مرة اخرى لنطلعك على ما جد من امر .

تعتبر السنة الماضية مرحلة جديدة فى سبيل التطور الاقتصادي للبلاد اذ كانت هي السنة الاولى لبداية العمل لمخططنا الخماسي ، فمشروع المخطط الذى سهرت على اعداده بتوجيه منا جميع مصالح الدولة قد تم تقديمه يوم 12 مارس من السنة السالفة الى المجلس الاعلى للتخطيط والانعاش الوطني . وقد اتاح هذا العمل لجميع القوات الحية للامة من تمعن النظر فى الخطوط الكبرى للنمو المنشود ، كما ساعدها على تدارس مشاريع الاستثمارات ، والانكباب على الاصلاحات المقترحة ، وقد وضعنا طابعنا الشريف يوم 4 ابريل من السنة الآنفة الذكر على المشروع النهائي المخطط ، وامكن الادارات العمومية ان تواصل دون انقطاع تنفيذ برامجها بفضل الاعتمادات الموقتة للاستثمارات المرصودة منذ بداية السنة .

على الدولة ان تدخر مثلما يدخر الافراد

وقد كان على المجلس الاعلى للتخطيط والانعاش الوطني ان ينظر قبل نهاية السنة كما كان ذلك مقررا فى ظهيرنا الشريف الصادر بالمصادقة على المخطط فى الشطر الاول من تنفيذه سواء فى ذلك الانتاج وبرامج الاستثمار ولقد تقرر فى اطار المخطط الخماسي استثمار مائتين وثلاثة ملايير من الفرنكات ، خلال سنة الف وتسعمائة وثمان وستين ، تحقق منها بالفعل استثمار ما يناهز 200 مليار من الفرنكات اي ما يعادل نسبة مائوية من الانجاز تساوي 99 فى المائة فتعزز التقدم الملموس الذى لوحظ سنة الف وتسعمائة وسبع وستين فى هذا الميدان . وهذه هي اول مرة تحققت فيها اهداف مخططاتنا الانمائية بمثل هذه النسبة ، وان من الاهمية بمكان ان نشير الى ان هذا التقدم لا يخص القطاع العمومي وحده بالعمومي والقطاع الخاص ، وانما يشمل القطاع الشبيه ، فاذا كانت استثمارات القطاع العمومي بلغت مائة وخمسة ملايير من مجموع مائتي مليار فان القطاع الشبيه بالعمومي والقطاع الخاص لم يستثمرا منه الا خمسة وتسعين مليارا وفضلا عن هذا كله فان الاستثمارات الخاصة بالدولة خلال سنة الف وتسعمائة وثمان وستين امكن ان تكون اكثر من ذي قبل بواسطة فائض المداخيل العادية اي بفضل ما ادخرته الدولة من اموال ، لان الدولة يجب عليها ان تدخر مثلما يدخر الافراد لتمويل برامج تجهيزها .

الغيث النافع ساعد على الانتاج القومي

ومما لا ريب فيه ان اسباب التقدم العجيب للانتاج القومي ترجع فى معظمها الى ما سقى الله به ارضنا من امطار تهاطلت فى ظروف مواتية ساعدت الفلاح المغربي على الاستفادة من توسع فلاحي مزدهر بيد ان النتائج الممتازة المسجلة فى هذا المضمار مرد اسبابها ايضا الى الاستثمارات التى تم تحقيقها ، والى جهود السلطات العمومية طوال السنة الماضية والسنوات التى تقدمتها واننا لنسجل بارتياح ان الانتاج القومي قد ازداد بنسبة 13 فى المائة اذا نحن قارناه بانتاجنا خلال السنة الاخيرة ، لمخططنا الثلاثي .

وان مما يسترعي النظر ان انتاجنا من المحاصيل الزراعية وحدها كان انتاجا جسيما يفوق من حيث النسبة بثلاثين فى المائة انتاج سنة الف وتسعمائة وسبع وستين . اما الانتاج الصناعي فقد تزايد بصورة معتدلة . والسبب فى هذه الظاهرة ان بداية السنة كانت ما تزال متأثرة بظروف السنتين السابقتين ، ذلك ان انخفاض مستوى الانتاج الزراعي قد عاق حركة النمو الصناعي فى حين ان الاشهر الستة الثانية من السنة الماضية قد امتازت بسرعة ملحوظة فى مجال تطور معظم الفروع الصناعية .

ستكون سنتنا هذه سنة تقدم هام لوطننا

واننا لعازمون خلال السنة الحالية على مواصلة المجهود الذى امتازت به السنة الفارطة ، فبرنامج الاستثمار الخاص بالسنة الجارية والذى انكب على

دراسته المجلس الاعلى للتخطيط والانعاش الوطني فى دورته المنعقدة فى شهر نونبر 1968 ؛ ينص بناء على ما ورد فى المخطط الخماسي على ان الدولة سيكون لديها فى اثناء هذه السنة اعتمادات جديدة للاستثمار تنيف على مائة وستة عشر مليارا ، وستضاف الى هذا المبلغ الاعتمادات التى لم تستعمل مدة سنة الف وتسعمائه وثمان وستين ، سيبلغ مجموع استثمار البلاد بما فى ذلك استثمارات القطاعات الشبيهة بالعمومية ، واستثمارات القطاع الخاص ، مائتين وتسعة ملايير – 209 – على وجه التقريب ، واملنا وطيد فى ان الظرفية الاقتصادية والحيوية المتزايدة الملاحظة فى الادارات العمومية وحرص كل فرد من افراد شعبنا على العمل من اجل التنمية . كل هذه العوامل ستجعل من سنتنا هذه كسابقتها سنة تقدم هام لوطننا فى طريق نموه الاقتصادي والاجتماعي

عملنا دائب فى استغلال مقدرات البلاد وامكانياتها

واذا كانت رغبتنا منصرفة منذ اخذنا على نفسنا السير قدما بمملكتنا نحو المستوى اللائق بها غنى وثراء ؛ واذا كان دابنا ان نعمل على ان تستغل بلادنا جميع مقدراتها ، وامكانياتها المتعددة الموفورة ، وتسخير سائر الوسائل والاسباب لاستدرار الموارد ، ومضاعفة المداخيل ، فاننا فكرنا منذ فجر الاستقلال فى الاستفادة من المزايا السياحية التى خص الله بها بلدنا .

ولهذا فاننا بوانا السياحة مكانا مرموقا بين المجالات الخصبة المعطاء والميادين المدرار فاوليناها الاسبقية بجانب ما اوليناه من اسبقية كالفلاحة ، وتكوين الاطارات فى مخططنا الثلاثي ومخططنا الخماسي . واخذت السياحة تنمو وتزدهر ببلادنا باتساع التجهيز وتوفير وسائل الاستقبال للوافدين على المغرب من جميع المستويات ، ومختلف الانحاء .

وان من شان المجهود المبذول ان يقوى فى آخر المخطط الخماسي طاقة البلاد السياحية ويجعل وسائل الايواء بسائر الجهات متعددة متنوعة قادرة على استقبال ضعف الواردين من السياح والوافدين .

التجهيز السياحي سيؤتي باعظم الفوائد والثمرات

ولا غرو فان التجهيز السياحي سيؤتي جميع الثمرات المنتظرة منه ولاسيما باستكمال نظام النقل السياحي الداخلي ومن اجل هذا فاننا الآن بصدد وضع مسطرة ادارية سريعة بشأن رخص النقل السياحي .

ولسنا بحاجة الى ان نؤكد ان صواب اتجاهنا فى مضمار الصناعة السياحية وتقديرنا لاهميتها فى حياتنا الاقتصادية مما يؤيده تطور الحركة السياحية الدولية فى الوقت الراهن واتساع مداها وما ظفرت به من مكانة وحظوة .

وان النجاح الذى حصلت عليه اقطار شبيهة بقطرنا، والنتائج السارة التى احرزناها لدليل قاطع على ان السياحة صناعة لها من النفع والجدوى ما ليس به خفاء ، وكل مجهود فى هذا الميدان يدنينا من المطمح الذى نتوق اليه ونسعى لادراكه .

وخليق بنا وقد عملنا على ان تكون السنة الحالية سنة دولية للسياحة الافريقية ، ان نبذل من الجهود فى مجال التعاون الدولي ما هو كفيل بأن يعود على السياحة بمملكتنا باعظم الفوائد واحسن العوائد وان فى رغبة اكبر الشخصيات المهتمين فى العالم بشؤون السياحة فى انعقاد جمعهم ، واقامة مهرجانهم بالمغرب لبرهانا جديدا على ما يتمتع به بلدنا من مقام رفيع فى حظيرة السياحة العالمية .

انعاش الصناعة التقليدية

هذا واننا ما زلنا نهتم بشؤون الصناعة التقليدية، ونعمل من اجل تطورها ، وارتقائها ، ولذلك عملنا على ان نضمن لصناعتنا التكوين المهني والتسويق لانتاجهم .

منجزات وزارة الاشغال العمومية

وليس بعازب عنك ، شعبي العزيز ، ما يضطلع به مرفق الاشغال العمومية ، والمواصلات من دور فى نمو اقتصادنا ، وما توليه من اجل هذا من عناية واهتمام ويكفي ان نشير الى ان ما تهتم به وزارتنا فى الاشغال العمومية والمواصلات من بناء للطرق واصلاحها وانتاج للطاقة الكهربائية واقامة للسدود ، وتجهيز للموانىء ونقل جوي ونقل بري، بواسطة القطارات والسيارات . ميدان شاسع الاطراف ، متعدد الاهداف ، يتصل باقتصاد البلاد اتصالا وثيقا . وقد حرصنا، وما زلنا نحرص، على ان تقوم مصالح الاشغال العمومية بالمهام المسندة اليها خير قيام لتمد اقتصاد بلادنا بالمدد الذى يساعد على نموه وازدهاره .

وقد بذلت الوزارة من الجهود في مجالات التجهيز الاساسي وانتاج الطاقة الكهربائية والمواصلات وبناء السدود بوجه خاص في اثناء السنة الماضية ما هو خليق بأن يتحسن معه الوضع الاقتصادي للبلاد ، ويرتفع به مستوى سكانها ، وتتسع بفضله السوق الداخلية اتساعا يجعل استيعاب منتوجات صناعتنا الفتية امرا ميسورا .

واذا نحن استعرضنا بعض ما انجزته وزارتنا في الاشغال العمومية وجدنا ان المساعي التي بوشرت في نطاقها جمة غفيرة تشكل خطوات موفقة في سبيل تحقيق ما رسمناه من اهداف .

فمنها تدعيم سد النخلة والفراغ من اشغال وادي كرو، والشروع في بناء سد الحسن الداخل ، ومواصلة العمل قصد تشييد سد آيت عادل، والزيادة في علو سد القنصرة. وخلال المدة التي كانت تباشر فيها هذه الاعمال، توبعت الدراسات بشان سد التفر على وادي لوكس، وسد الوادي الاخضر ، وسد كرو النهائي . هذا فضلا عن دراسة طلبات تقديم العروض بشأن بناء سدود تنكيست على وادي ماسة ، وعربات على وادي يناون ، وزاوية نوربـاز على وادي درعة ، وبشأن دراسة بناء سد سيدي شحو . وخلاصة القول ان مجهودات وزارتنا في الاشغال العمومية، والمواصلات، انصرفت في هذا المضمار الى تشييد خمسة عشر سدا خمسة منها في طور الدراسة ، وستة في طور الانجاز ، واربعة في طور الشروع في تشييدها .

فاذا اضفت الى هذا الجانب من اهتمام الوزرة جوانب اخرى ، كجلب الماء العذب لبعض المدن الكبرى، والمراكز، وتقوية انتاج الطاقة الكهربائية باتمام الشطر الثاني من الاشغال الخاصة بمعمل الدار البيضاء ، وافراغ مشروع مركز جرادة في قالبه النهائي وغيرهما من الاعمال التي تمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

والفراغ من بناء الطريق الرئيسية التي تصل ورزازات بقصر السوق، وعدة قطع من الطرق السياحية او الطرق التي لها صلة بمشاريع زراعية او صناعية ، وشفعت كل هذا بما انجز من اصلاح بموانيء الدار البيضاء، والقنيطرة ، وطنجة ، وما هو في طور الانجاز قصد توسيع ميناء اسفي ، وما تحقق او هو في طور التحقيق، في مجال المواصلات عن طريق السكك الحديدية كتوسيع محطة ميناء الدار البيضاء ، وابتداء الاشغال قصد تحقيق مشروع ابن جرير ، وكذلك الجهود الخاصة بتجهيز النقل الجوي . اتك اذ الفت بين هذه الاعمال كلها، وجمعت بعضها الى بعض ، ستتبين ما حفلت به السنة الماضية من طريق الانجاز ، ومشاريع اخرى تنصب عليها الدراسة لتدخل مشاريع منجزة ، ومشاريع في بعدها في طور التحقيق .

وستواصل الجهود طوال السنة الحالية ، وتشمل سائر فروع العمل الذى تختص به وزارتنا في الاشغال العمومية ، وسينتظم هذا العمل بناء السدود وتجهيز النقل الجوي وتقوية الطاقة الكهربائية وبناء الطرق او تعبيدها حتى تكون بعون الله سنتنا هذه، كسابقتها، سنة نفيد بها اقتصاد بلادنا وتيسر به اسباب انطلاق نمائه وازدهاره .

وان من الدعائم التي يعتمد عليها المغرب في اقتصاده ويرتكز عليها لضمان رغد عيشه في الحاضر والمستقبل ، صناعة في نمو مطرد ، وتجارة واسعة الرواج وفيرة الارباح غزيرة المكاسب . وسعيا منا لبلوغ هذه الغاية اتجهت عنايتنا الى تقوية صادراتنا من مادة الفوسفاط التي هي عنصر من عناصر ثروة البلاد واحداث التوازن في انتاجنا المعدني حتى ان قيمة صادراتنا من الفوسفاط وحدها بلغت 75 في المائة من مجموع مصدرات المعادن ، وسيتضاعف انتاجنا من الفوسفاط بفضل المشاريع الهامة التي هي في طور الانجاز خلال السنوات المقبلة .

بواعث الامل في البحث عن النفط والتنقيب عن المعادن

وان النتائج الايجابية التي اسفر عنها التنقيب عن بعض المعادن قد حملتنا على اعداد التجهيز اللازم لاستغلال هذه المعادن المنتظر انتاجها مدة مخططنا الخماسي . وما زال مكتبنا للابحاث والمساهمات المعدنية يواصل البحث والتنقيب عن النفط بمساهمة بعض الشركات الاجنبية ، وقد اتاح هذا التنقيب اكتشاف علامات مشجعة باقليم القنيطرة تبعث على الثقة والامل وبساحل طرفاية ادت اعمال الحفر العميق التي قامت بها مجموعة دولية هامة الى العثور على جيب للبترول يتطلب تقدير اهميته ومعرفة مداه برنامجا واسعا للاستطلاع ما زال حتى الآن قيد التحقيق والتنفيذ .

والى جانب هذا فقد عنينا بالصناعات الاخرى على اختلاف انواعها والوانها كصناعة النسيج والمواد الغذائية الكيماوية والشبيهة بالكيماوية وقد تحقق جزء لا يستهان به في السنة الفارطة من المشاريع

المرسومة كانشاء معملين لصنع السكر ببني ملال ودكالة واحداث معمل للخزف ، ومعمل للورق وآخر للاسمنت، وسيدخل في حيز التنفيذ انشاء معمل لصنع السكر بملوية ، والمركب الكيماوي لمشرع ابن عبو وسواهما .

مبدأ التفتح على العالم الخارجي

وقد كانت السنة السالفة في مجال التجارة الخارجية هي السنة الاولى لاجراء العمل بالنظام الجديد للواردات الذى يكفل تزويد البلاد بالبضائع تزويدا يضمن الجودة فى غير تكليف ببذل اثمان مرتفعة : واتممنا هذا النظام منذ شهور قليلة بنظام يوازيه خاص بالصادرات الامر الذى استتبع الغاء الاذن الاداري فيما يرجع الى معظم المنتوجات ما عدا المنتوجات التى تفرض المصلحة الوطنية ان تكون خاضعة للمراقبة ، وهكذا احللنا مبدأ التفتح على العالم الخارجي محل المنع العام .

توثيق علاقاتنا التجارية مع اشقائنا واصدقائنا

وان هذا التنظيم الجديد الشامل لمبادلاتنا لم يكن ليصد عزيمتنا عن تحسين علاقاتنا التجارية الثنائية فتأتي لنا بهذا اعداد الاتفاق التجاري والتعريفي بين المغرب والجزائر ذلك الاتفاق الذى يعبر عن الرغبة فى تدعيم اواصر التعاون الاقتصادي بين البلدين كما تم تجديد الاتفاقات التعريفية مع بلدان اخرى تصلنا بها روابط الصداقة كالمملكة العربية السعودية والجمهورية التونسية ، هذا زيادة على الجهود التى صرفناها لتوسيع علاقاتنا التجارية توسيعا يتجه نحو النيجر والكونغو كينشاسا ورومانيا وامريكا اللاتينية .

وقد والينا خلال السنة الفارطة المفاوضات مع المجموعة الاقتصادية الاوربية ومن شأن الاتفاق الذى يوشك ان ننتهي اليه فى هذا المضمار ان يساعد على تدعيم وتوسيع امكانياتنا التجارية مع فسح المجال لتصنيع بلادنا .

مكتب التسويق يحقق نجاحا فى مختلف الميادين

اما مكتب التسويق والتصدير فقد تابع عمله النشيط ودعم تنظيمه لمواجهة ما يتعرضه من صعاب بصورة اكثر فاعلية ، وقد استطاع الى هذا ان يحقق نجاحا فى ميادين شتى ، ومهد السبيل لتصاعد صادراتنا ونموها ، وهكذا فان الموسم الاخير قد سجل رقما قياسيا بالنسبة للحوامض سواء من حيث الكمية المصدرة البالغة ما يزيد على ستمائة الف طن او من حيث المداخيل التى تربو عن اربعمائة وسبعة وستين مليون درهم، غير انه لم يحالف مكتب التسويق والتصدير نفس النجاح فيما له صلة بالبواكير .

ومرد ذلك الى معاكسة الاحوال الجوية وبعض الاحداث السياسية التى كانت اوربا فى الربيع الماضي مسرحا لها، وقد ساعدت سرعةمواجهتنا لهذهالطواريء على التخفيف من عاقبتها وسوء اثرها على المداخيل.

واذا كانت مصبرات السمك والخضر اصطدمت بمنافسة شديدة فقد اتضح لنا انه من الضروري حشد الوسائل لتفاديها تلبية لمتطلبات كل صناعة عصرية، واننا لنسجل بارتياح مع كل هذا ان صادراتنا من هذا القبيل قد حافظت على مستواها .

ولسنا بغافلين ونحن فى هذا الصدد عن القطن سواء كان فى شكل الياف ام فى صورة بذور لاسيما وقد اصبح احد منتوجاتنا الذى يمتاز بجودته وقيمته ويمكن ان ترتفع مقادير الصادرات منه لازدياد الاقبال عليه .

الاهتمام بقطاع الصيد البحري

وفى قطاع الصيد البحري للسمك، وهو مشمول برعايتنا، فاننا باحداث المكتب الوطني للصيد البحري وانشائنا لتعاونيات للصيادين بآسفي واكادير وببعض موانيء شمال مملكتنا ، اكدنا رغبتنا فى ان ننهض بهذا الجانب الحيوي من اقتصادنا .

وجدير بالاشارة اننا فرغنا من مراجعة القوانين البحرية التى ستكون اداة لدى الادارة والمستعملين لمتطلبات كل دولة بحرية عصرية .

شعبي العزيز :

لا غرابة ان تكون الفلاحة وما يتصل بها من شؤون موضع رعاية منا ، ولا غرابة ان نولي اسرة الفلاحين من عطفنا وحناننا الشيء الكثير ، فقديما ادركنا ما للفلاحة فى بلادنا من اهمية وقديما خالجنا الشعور بما يجب ان نصرفه من جهود فى هذا المجال لنجني من الفلاحة اطيب الثمرات وتفيد بلادنا من موارد ارضنا السخية المعطاء فاولينا الاسبقية للفلاحة فى مخططنا الثلاثي وفى مخططنا الخماسي ورصدنا لها الاعتمادات الوفيرة وحرصنا بنفسنا على ان تنفذ توجيهاتنا وتنجز مشاريعنا .

اسرة الفلاحين موضع عطفنا ورعايتنا

فلم تفتأ فرصة من الفرص ولا مناسبة من المناسبات لم نعرض فيها لاهدافنا وللطرق المؤدية الى بلوغ هذه الاهداف ، فوجهنا العناية الى السقي ، واتخذنا التدابير الكفيلة بتوفير الماء للاراضي القاحلة واختزان المياه المتدفقة الجامحة وصيانتها من الضياع وصدها عن الانسياح حتى تنفع ولا تضر وتشيع الحياة وتخلق الثراء وتنشر الامن والاطمئنان بدلا من الخوف والهلع والفقر والمسبغة ، وفي الوقت الذي كانت عنايتنا متجهة هذا الاتجاه وكان اهتمامنا مصروفا الى استصلاح الاراضي التي ستمتد اليها نعمة السقي ، كانت اساليب الزراعة باراضي البور من المواضيع التي تستوقف نظرنا وتستلزم تدبيرنا لحرصنا على ان يكون كل هكتار قابل للزراعة مستثمرا غير مهمل ولا موات ، وعلاوة على السقي واستصلاح الاراضي وتطوير اساليب الزراعة ، كان غرس الاشجار وتربية المواشي وضم الاراضي الى بعضها واحداث المعاهد لتكوين الاطارات ورفع مستوى ما هو موجود منها ، والبحث كانت كل هذه جوانب من جوانب موضوع واحد ، وهو الفلاحة ، صرفنا له حظا غير يسير من تفكيرنا ، وبذلنا له نصيبا غير قليل من رعايتنا .

لا خير فى انتاج اذا لم يجد من يستهلكه

ولم نقف عند هذا الحد ما دام هدفنا هو تحسين الانتاج ، فقد كان علينا ان نفكر فى الاستهلاك ، اذ لا خير فى تقوية الانتاج اذا كانت المنتوجات لا تجد من يستهلكها او كانت لا تستجيب لحاجات المستهلكين ولا ترضي اذواقهم، فلذلك اصدرنا اوامرنا الى وزرائنا : فى الفلاحة ، والصناعة ، والتعليم باعداد مشروع احداث معهد للصناعة الغذائية لتكوين مهندسين يختصون فى شؤون التغذية ، وبهذا ستكون الصلات بين الفلاحة والصناعة اوثق ما تكون والفائدة التى تستفيدها احداهما من الاخرى اوسع واقوى ، على انه لايمكن لاية صناعة خفيفة كانت او ثقيلة ان يكتب لها البقاء الا اذا حظيت منتوجاتها بالاقتناء والشراء ، وليس كل واحد قادرا على الشراء، ولا يكون مستهلكا للمنتوجات الا من يتوفر على الطاقة الشرائية الكافية ، وقد قدر الله لهذه البلاد ان يكون معظم سكانها فلاحين .

فهؤلاء هم الذين يكونون السواد الاعظم ممن يجب ان تتوفر فيهم القدرة على الاقتناء ، ولهذا فقد عكفنا خلال السنة الفارطة على التفكير والدرس، واستنباط الوسائل الخليقة بأن تجعلهم قادرين على اكتساب منتوجاتنا الصناعية لعلمنا ان ميزان اداءاتنا رهين بهذه القوة الشرائية وان الصنع والاستهلاك عاملان من ادخار وتوفير للعملة الصعبة ، وقد افضت جهودنا فى هذا المضمار الى اعداد نصوص تشريعية تلتزم الدولة والفلاح بمقتضاها عدة التزامات ، وان الواجبات التى تفرضها هذه النصوص لهي واجبات متبادلة لا يقوم احد الطرفين بما عليه الا بمقدار ما يكون الآخر قد قام به من واجب .

فاذا كانت الدولة حريصة على ان لا تصرف اموال الامة جمعاء ولا تثقل كواهل الاجيال المقبلة الا وهي متأكدة من ان هذه الاموال لن تذهب سدى .

قانون الاستثمار الفلاحي يشكل ثورة سليمة

فان على الفلاح من جهته ان يضطلع بما سيفرضه القانون عليه من تكاليف، على ان هذا القانون الذى اطلقنا عليه اسم قانون الاستثمار الفلاحي ، والذى سيخلق اوضاعا جديدة ، تشكل ثورة سلمية يعفى من هذه التكاليف صغار الفلاحين والمزارعين المستوطنين ببعض المناطق ، واذا كانت الدولة ملزمة بالتجهيز واقامة السدود وبذل القروض ، فان على الفلاح الذى يملك من الارض ما لا يصح معه الاعفاء من التكاليف والواجبات المفروضة، ان يقابل مجهود الدولة بالاسهام فى نفقات التجهيز والقيام بالاستغلال الذى يكفل الانتاج المطلوب ، واخذ نفسه بالوفاء بجميع التزاماته .

ارادتنا اغناء الفقراء والمحافظة على الاغنياء

وقد سبق لنا غير ما مرة ان اعربنا عن ارادتنا فى اغناء الفقراء مع ابقاء الاغنياء اغنياء اثرياء ، وان قانون الاستثمار الذى سنصدره سيكون مؤكدا لهذا المبدأ ، مقرا لهذا الاصل من اصول سياستنا .

وما اخالنا فى حاجة الى مزيد من الشرح والبيان والتوضيح لهذا القانون الذى تولينا بنفسنا تحليله ثم عرضناه على لجنة وطنية متألفة من ممثلي الفلاحين عكفت على درسه وابدت رأيها بشأنه ، ولئن كان ما اسلفنا ذكره وبيانه ، لا يشمل الا الاراضي المسقية فاننا جادون فى اعداد نصوص تشريعية اخرى تهم اراضي البور بصفة خاصة ، واننا لنأمل ان تتضافر جهود الدولة وجهود الفلاحين ، هذه تقيم المنشآت وتجهز وتمد القنوات وتبذل القروض والمساعدات وهؤلاء يستغلون ويستثمرون فى جو

من الثقة المتبادلة يسوده الايمان بالمصير المشرق الذى ينتظر هذه البلاد التى حباها الله بالامكانيات ، واغدق عليها الخبرات ، ووهب لها السواعد والكفايات .

وليس بعزيز على امة خاضت معارك شتى فانتصرت ان تظفر فى معركة التنمية التى هي معركة يومنا وغدنا بالفوز المبين ، وان تفتح لنفسها ءافاقا واسعة وتكتب صفحات غراء فى سجل تاريخها .

المواصلات السلكية واللا سلكية تساهم فى تنمية السياحة وتطور الاقتصاد وتعزيز التقارب بين الشعوب

وان من حق المغرب ان يفتخر بجهازه الخاص بالبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية ، وقد سعينا ، وما زلنا نسعى ، لنبلغ بهذا الجهاز الاهداف والغايات التى نتوخاها منه ، فعلاوة على ما له من اثر فى تطور السياحة، وما يستفيده الاقتصاد الوطني منه بصفة عامة ، فانه وسيلة من وسائل التقارب الذى نرغب فى تعزيز جانبه بين الشعوب ، وان من اهم ما حققناه فى هذا المضمار اول اتصال اوتوماتيكي فى العالم بين قارتين كبيرتين هما افريقيا واوروبا ، فاصبح بامكان سكان مدينتي الرباط والدار البيضاء منذ شهر يوليوز الماضي الاتصال الاتوماتيكي المباشر بمخاطبيهم فى البلاد الفرنسية وتتلو هذه المرحلة ان شاء الله مرحلة اخرى وهي مرحلة الاتصال الشبيه بالاوتوماتيكي بشقيقتنا الجزائر وبالقطر الاسباني وبعض الاقطار الاوربية ، فاذا اضفنا الى هذا المشروع فى اقامة محطة ارضية للمواصلات عبر الاقمار الاصطناعية سيتاح معها فى اواخر السنة الحالية ربط اتصالات تليفونية وبرقية بصفة مباشرة مع بلاد الشرق الاوسط واوربا والقارة الامريكية ، فان بلادنا ستتأهل بهذا الانجاز وبما لها من موقع جغرافي ممتاز لتصبح مركزا دوليا لتحويل المواصلات السلكية واللاسلكية بين القارات ، ولم يكن سعينا فى ميدان البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية مقتصرا على هذا مكتفيا به ، وانما حققنا تعميم التليفون الاوتوماتيكي بين اهم المدن ووجهنا العناية الى تحسين شبكة المواصلات الداخلية، وواصلنا حملة التوفير الوطني الناجحة حرصا منا على ان يكون اسهام المواطنين بالتوفير فى نمو البلاد الاقتصادي اسهاما فعالا .

تحسين احوال الشغالين وظروف العمل والشغل

ولقد واصلنا خلال السنة المنصرمة الجهود التى ما فتئنا نبذلها منذ استقلال البلاد قصد تحسين احوال الشغالين وظروف العمل والشغل ولئن كان التشريع الذى اصدره والدنا طيب الله ثراه والتشريع الذى اصدرناه تتألف منهما مجموعة من القوانين يعز نظيرها فى كثير من بقاع المعمور لما فيها من ضمان للحرية والحقوق فان عملنا موصول لاستكمالها وتعزيزها بنصوص تشريعية اخرى تؤكد ما شرعناه من حرية وتضيف حقوقا جديدة الى ما كلفناه من حقوق وهكذا فاننا اصدرنا اخيرا جملة من القوانين بشان طب الشغل والزيادة فى قدر الايرادات التى تصرف لفائدة ضحايا الحوادث التى تقع بمناسبة مزاولة عمل العمال ، ولم يعزب عن بالنا ما يضعه التشغيل من مشاكل فكلفنا وزيرنا فى الشغل والشؤون الاجتماعية بدرس الوسائل الكفيلة بتحديد وتطبيق مخططات تستهدف مغربة الاطر ، وسيظل التكوين المهني والتكثير من معاهده مستأثرا بحظ كبير من اهتمامنا لما يكلفه لنا هذا التكوين من يد عاملة متخصصة ولما يساعده به على مغربة الاطارات التى هي هدف من اهدافنا ومرمى من مرامينا .

ولقد تابعت وزارتنا فى العدل سلوك السياسة التى رسمناها لها لتركيز القضاء فى جميع الجهات وذلك على ضوء التنظيمات القضائية الجديدة الناتجة عن توحيد المحاكم ومغربتها وتعريبها .

احداث معهد للدراسات القضائية

ورغبة منا فى تقوية جهاز القضاء ببعض ما يتطلبه من اطر وامكانيات فقد اصدرنا نصا قانونيا يقضي بحذف مباراة ولوج السلك القضائي لمدة سنتين والاكتفاء بشهادة الاجازة فى الحقوق، كما فتحنا المجال للمستقيلين من القضاء للعودة الى مزاولة هذه المهنة المطلوبة ، وتوجنا هذه التدابير ، اذا كانوا يتوفرون على الشهادات ، باصدار امرنا لوزيرنا فى العدل باحداث معهد للدراسات القضائية الغاية منه منح تكوين عملي للمتاهبين للانخراط فى سلك القضاة من المتخرجين من الكليات ، وتكميل التكوين العلمي الضروري لبعض القضاة الذين هم فى حاجة الى ذلك .

ونظرا لما نوليه من اهتمام بالغ بشؤون التوثيق فقد اصدرنا توجيهاتنا لاعادة النظر في مسطرة التوثيق وطبعها بطابع الضبط والدقة مع الاحتفاظ لها بمميزاتها الشرعية ، واملنا ان نحقق بذلك لرعايانا ما ينشدونه من اصلاحات في هذا الامر الهام لما له من ارتباط متين بمصالحهم ولما يكتسيه من اهمية قصوى بالنسبة للمحافظة على شؤون اسرهم وممتلكاتهم .

ونبهنا، علاوة على ذلك، الى ضرورة ضبط شؤون المحاجير ضبطا محكما شعورا منا بمسؤولية رعاية مصالح شعبنا وتنفيذا لما امرنا به الله سبحانه وتعالى من السهر والمحافظة على حقوق القاصرين والارامل والمستضعفين .

ولقد اعدت وزارتنا في العدل في اثناء السنة المنصرمة مشاريع قانونية لها اهميتها ، البالغة لكونها تدخل في اطار توجيهاتنا بشأن مراجعة القوانين وتبسيط ما امكن من مقتضياتها ليكون تشريعنا مطابقا لواقعنا ضامنا لحقوق المتقاضين ، وهذه المشاريع تتعلق بالمسطرة المدنية والتسول والتشرد ومحاربة الغش في المواد الغذائية والوضعية المدنية للاجانب ونظام الاكرية .

اقامة دعائم اللا مركزية

شعبي العزيز :

لقد جرى اسلافنا المنعمون منذ انبثاق فجر الدولة العلوية على عادة اشراك الافراد الذين توافر فيهم اهليات لتمثيل شعبنا في تسيير الشؤون العامة، وكان هذا الاشراك خطة من خططهم المعهودة، وسياسة سلكها الخلف بعد السلف ، لم ينقطع استمرارها ولم تنفصم سلسلتها مدى الاجيال والقرون، فلما استقلت بلادنا تبين لوالدنا رضوان الله عليه ، ولنا من بعده ، ان هذه المشاركة حرية بأن نعيرها من نظرنا والتفاتنا ما يجعلها قائمة على اسس جديدة منظمة تنظيما محكما فاصدرنا قوانين استبدلنا بها التشريع الذى كان ساري المفعول في عهد الحماية واحدثنا مجالس جماعية واقليمية خضعت لنظام واحد واسندنا اليها اختصاصات متماثلة فتأتى لنا بهذا تأسيس جماعات محلية اشعناها في مختلف جهات مملكتنا، وكان قصدنا من هذا التأسيس اقامة دعائم اللا مركزية التى طالما اشدنا بفائدتها وجدواها وجعل الاقليم والجماعة وسيلتين من وسائل انعاش التربية الوطنية واضفاء حلة جديدة على البوادي وتمكين المثلين المنتخبين من ممارسة الشؤون الادارية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ذات الصبغة المحلية ، الا ان اقامة هذه المؤسسات استلزمت ادخال اصلاحات واسعة على اوضاعنا الادارية بصفة عامة وعلى وزارتنا في الداخلية بصفة خاصة ، فوزارة الداخلية التي هي صلة الوصل الطبيعية بين السكان والدولة والوصية على الجماعات المحلية والتى لم تكن مسؤولة الا على المحافظة على الامن اخذت مهامها تتسع شيئا فشيئا واصبحت الوزارة بدورها تسهم في المجهود الرامي الى التنمية التى دعونا جميع المواطنين لتعبئة قواهم قصد تحقيقها .

وتنوعت مهام رجال السلطة فلم تقتصر على المحافظة على الامن وانما شملت تنسيق مختلف اعمال المصالح العمومية والوصاية على الجماعات المحلية التى تستشيرهم في كثير من القضايا . ولقد برهنت هذه الجماعات بعد احداثها على ضوء مباديء واضحة وتجهيز جماعاتنا القروية يندمج في مخططات النمو الجهوي الوطني ، وكانت هذه النتائج السارة مدعاة لنا لاسناد مسؤوليات جديدة للجماعات المحلية، فبعدما كانت اختصاصاتنا منحصرة في اعمال التجهيز الخاصة بصيانة الشوارع والابنية ورعاية شؤون المرافق المحلية ، وسعنا تدريجيا نطاق هذه الاختصاصات وجعلناها ممتدة الى القطاعات الاقتصادية حتى اصبحت الجماعات المحلية اداة صالحة لتعبئة الجماهير من شعبنا لفائدة النمو الاقتصادي ، ولكن هذا التوسيع اقتضى ان تمنح الجماعات المحلية الوسائل اللازمة للقيام بالمهام الجديدة التى اسندناها اليها ، وهذا ما دعانا الى اعادة النظر في تنظيم وزارتنا في الداخلية ، حتى يتسنى لها ان تواجه متطلبات ادارة اخضعناها لنظام اللا مركزية وهذا ما دعانا ايضا الى التفكير في تكوين رجال السلطة تكوينا يناسب المسؤوليات الجديدة الملقاة على كواهلهم ، فانشانا مدرسة تكوين اطارات وزارة الداخلية وشرعت المدرسة تزود مرتاديها بالتكوين اللائق وتخرج افواجا من المتصرفين، يبلغ عدد الفوج كل سنة خمسين متصرفا باعداد موظفين مختصين في الشؤون الاقتصادية وتسيير ادارة المدن . وكان علينا ان نقوي من جهة اخرى جانب الادارة الاقليمية والجماعية، فاستطعنا ان نقيم جهازا اداريا بازاء كل جماعة قروية مستعينين في هذا الامر بالمجندين في اطار الخدمة العسكرية الاجبارية ، وامكن للمؤسسات العمومية بعد توفرها على وسائل العمل الضرورية ان

تحقق انجازات سواء فى المدن والمراكز او فى نطاق الجماعات القروية والاقاليم . وقد انفقت هذه المؤسسات فى بحر السنة السالفة : ثلاثمائة وثمانين مليونا من الدراهم فى جلب المياه واقامة منشآت تتصل بالهندسة المائية الصغيرة ، وفى مد شبكة من الطرق الثلاثية ، وفى غير هذه المجالات ، وهكذا اعطت المجالس المنتخبة، بما اتسمت به من نضج واتخذته من مبادرات، الدليل على اننا سائرون فى هذا السبيل القويم وعلى ان الجماعات المحلية قادرة على الاخذ بحظ وافر فى تسيير انطلاق نمو بلادنا .

وان من القطاعات المحلية التى استرعت اهتمامنا قطاع المصالح العمومية لتوزيع الماء والكهرباء والنقل داخل المدن ، فقد كان امر تدبيرها موكولا فى اغلب الاحوال الى مصالح اجنبية ، فلم يكن للجماعات المحلية اي نفوذ مباشر فيما يرجع لاستغلالها ؛ ولجعل حد لهذه الحالة امرنا وزيرنا فى الداخلية بالعمل على استرجاع هذه المصالح واسناد تدبيرها الى الجماعات المحلية ، وهكذا فان المصالح العمومية الجماعية لاهم مدن مملكتنا تألفت منها مكاتب للجماعات تتمتع بالشخصية المدنية ، وتشرف عليها المجالس المحلية المنتخبة اشرافا مباشرا .

حق الانتفاع بالاراضي المسترجعة

وتوكيدا لما سبق ان المعنا اليه فى مثل هذه المناسبة فاننا منحنا هذه الجماعات حق الانتفاع بالاراضي المسترجعة ، فكانت هذه المبادرة منا مرحلة حاسمة من مراحل اقرار اللا مركزية تم بها تعاون وثيق بين الهيئات المنتخبة والموظفين قصد استغلال هذا التراث وتسخير ارباحه لتمويل برامج التجهيز الجهوي .

واذا كنا اشركنا المجالس المنتخبة فى اعمال هيئات تسيير المكاتب الجهوية للاستثمار فان املنا تحقق فيما كان بين التقنيين والفلاحين من تعاون قام على انسجام التقنيين بما لديهم من معرفة مع الهيئات المنتخبة ذات التجربة والخبرة بشؤون البادية، وقد اصبحت الجماعات القروية فوق هذا كله تعمل فى سبيل ذلك التعاون بين الفلاحين الذى استهدفنا من ورائه مساعدة الاغنياء منهم للضعفاء من المزارعين، وقد افضى هذا التعاون الى احياء الاراضي واقتلاع الاحجار من مئات آلاف الهكتارات وحرثها ، وصاحب هذا العمل استمرار حملات غرس الاشجار فاستطاعت كل جماعة قروية ان تكون غابة لها باتصال مع الفنيين التابعين لوزارتنا فى الفلاحة .

وان هذه الاعمال كلها لتعتبر تكميلا للجهود التى تبذلها الدولة فى سبيل التنمية الاقتصادية الا انه يمكن ان ترمى بالنقصان والتقصير اذا هي لم تتح رخاء متزايدا بالمراكز القروية ، ولهذا فان حملة انبعاث الجماعة القروية التى نقوم بها كل سنة لا ترمي الا الى توفير وسائل عيش رغيد لفلاحينا، وسنباشر ابتداء من هذه السنة عملا منتظما بسهل ملوية السفلى وتادلة بدكالة وتاساوت والغرب بقصد الى تمكين الذين يساهمون فى تحويل اساليب الزراعة من التمتع بالضروري من اسباب الراحة والاستفادة من تكتل النشاطات والخدمات فى مراكز مختارة ، كما سنباشر اعمالا منتظمة اخرى وان كان نطاقها محدودا باودية درعة وزيز وغريس ودادس لفائدة سكان هذه الجهات الذين يعانون الحرمان من جراء قسوة الطبيعة .

قواتنا المسلحة توالي سيرها فى ميدان التقدم وقطع مراحل الرقي

وان مما يثلج صدرنا ويفعم بالمسرات قلبنا ، ان نرى قواتنا المسلحة الملكية موالية سيرها فى ميدان التقدم دائبة فى قطع مراحل الرقي بعزيمة لا يتطرق اليها الوهن ، وقوة طبع وتبصر وادراك على الرغم من قلة الوسائل والامكانيات وللتوفيق بين هذين الامرين الاكيدين ، السير فى سبيل الرقي والتزام التقتير ، وهما امران قد يبدوان على جانب من التناقض والتعارض ، وجب على قواتنا المسلحة الملكية لمواصلة القيام بالمهام المنوطة بها ان تبذل مجهودا يقتضي الاستمرار والتبصر والوعي للواقع الوطني .

وما كان لقلة الامكانيات ان تعوق قواتنا المسلحة الملكية عن التقدم والازدهار بل اتاحت لها مناسبة ابانت فيها عن قدرتها على التكيف بالاحوال ومسايرة الظروف واستعدادها لتخطي العقبات والصعاب ؛ وهذا هو السر فى التفكير الذى يهدف اكثر من ذي قبل الى وجوب توسيع التكوين واستمرار متزايد للامكانيات العقلية والاخلاقية والجسمية للاطر والجنود ، وقد تجلى كل هذا فى احداث مدارس جديدة واقرار دروس مراجعة التكوين واعادة النظر فى اساليب التعليم .

ولقد اكدت المناورات العسكرية ولاسيما التى جرت فى شهر نونبر الماضي بمناسبة عيد الاستقلال ان المجهودات المبذولة والمساهمة التى قدمها كل واحد

من اعضاء الاسرة الكبيرة للقوات المسلحة الملكية قد اسفرت عن اطيب النتائج .

وان تكوين الافواج من المجندين والمشاركة فى استثمار ثرواتنا وخيرات بلادنا او فى مكافحة الكوارث الطبيعية ، والعمل الانساني الذي تزاوله فى الميدان الطبي ؛ كل هذا انما هو مظهر من مظاهر الالتحام بين قواتنا المسلحة الملكية وشعبنا .

وستبقى قواتنا المسلحة الملكية دوما واستمرارا رمز الحيوية الوطنية متمسكة بالوفاء، مستعدة للنهوض بالاعباء الملقاة على كاهلها ، وقد طبع فى قلب كل جندي من الجنود وفى ذاكرته المامويتان الاساسيتان اللتان عهد بهما للقوات المسلحة الملكية والدنا رضوان الله عليه وهما : الدفاع عن حوزة الوطن وسيادته ، والمساهمة فى بناء البلاد .

شعبي العزيز :

لقد رأينا واجبا علينا ان نصرف جانبا كبيرا من اهتمامنا لشؤون متفرقة متعددة ولكن بعضها مرتبط ببعض ، يؤلف كلا منظوما وان كان عقد اجزائها منثورا، وهذه الشؤون على اختلافها هي شؤون الثقافة بما يدل عليه هذا اللفظ من معنى شائع معلوم فى وقتنا الحاضر ، ينصرف الى الفكر المعاصر وما يبدعه ، والى الفكر الغابر وما خلفه من آثار والى الشعور والوجدان والى الذوق والعرفان والى العادات والتقاليد ، وما هو بين ايدينا من تعبير وتصوير للمشاعر ومبتكرات الخيال ، هذه الشؤون المتفرقة المنتشرة اردنا جمعها ونظامها فاحدثنا وزارة للدولة عهدنا اليها بان تعني بها عناية خاصة وتعرف الناس بقيمتها وتسترعي انتباه شعبنا الى ما تشكله من ثروة طريفة متجددة وما يتالف منها من تراث تالد ثمين ، كما عهدنا الى وزارتنا هذه بالاشراف على التعليم الاصلي والاهتمام به اهتماما متواليا حتى يؤدي الرسالة التى نعقد بها واسع الامل والرجاء ، وقد اخذت وزارتنا المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي تزاول اعمالها وفق ما رسمناه لها جادة متطلعة الى الحصول على احسن النتائج، والله المسؤول ان يوفقنا الى الصواب فى هذا الميدان وفى غيره من الميادين .

اهتمامنا برفع مستوى التعليم
لا يدب اليه وهن ولا يلحقه فتور

واذا كنا قد فصلنا التعليم الاصلي والحقناه بوزارتنا فى الشؤون الثقافية لتنصرف اليه عناية وزيرنا فاننا احدثنا ثلاث وزارات للتعليم ، لتتفرع كل واحدة منها الى فرع من فروع تعليمنا ، وتعكف على مشاكله وايجاد الحلول لها ، فلقد كانت وزارة التربية الوطنية وزارة شاسعة الاطراف، مصروفة النظر الى التعليم باكمله وفى مختلف مراحله ومستوياته ، لا تفرغ من التعليم الابتدائي ومشاكله الا لتواجه معضلات التعليم الثانوي وتجابه العقبات التى يقيمها التعليم العالي فى وسط الطريق ، فكانت اعباء الوزارة ثقيلة ومشاكل التعليم متعددة ، ومسؤولية وزير وحده مسؤولية جسيمة ، فقصدنا بتقسيم الوزارة الى ان يضطلع كل وزير بجزء من مهام التعليم وينفض النصيب الخاص به من المشاكل ويوجه عنايته كلها الى الفرع الذى اسند اليه ، بيد ان تعيين وزراء ثلاثة لا يعني عدولا عن الاهداف التى نتوخاها من تعليمنا ولا انصرافا عن المباديء التى يرتكز عليها ، فاهتمامنا برفع مستوى التعليم واعداد الاطارات الوطنية الخليقة بتحقيق هذه الغاية وتكوين ناشئتنا والاجيال الصاعدة تكوينا تنهض به البلاد من كبوتها وتسير به فى طريق نموهاوازدهارها الاقتصادي والاجتماعي ، اهتمام متواصل لا يدب اليه وهن ولا يلحقه فتور ، وتوكيدا لهذا الاهتمام فاننا زودنا وزراءنا فى التعليم بتوجيهاتنا واصدرنا اليهم اوامرنا بان يحرصوا على تحقيق اهدافنا مستعينين بمجلس اعلى للتعليم والتكوين والثقافة ، سيعقد اول اجتماع له فى اقرب الآجال على ان عنايتنا بامر التعليم لم تنحصر فى مراحله الثلاث بل اتجهت كذلك الى مرحلة رابعة، وهي مرحلة تكوين الطفل قبل بلوغه السن السابعة من عمره فقررنا ان يستظهر ابناؤنا فى هذا الطور من اطوار حياتهم وقبل التحاقهم بالتعليم الابتدائي سورا من الكتاب المبين ويلقنوا مباديء الدين الحنيف ويشبوا على الآداب المحمدية وينشاوا عارفين للشعائر الدينية حتى اذا التحقوا بالتعليم الابتدائي كانت العقيدة الاسلامية قد انطبعت فى نفوسهم والايمان قد ملأ رحاب قلوبهم ؛ لقد قلدنا الله امانة السهر عليك والرعاية لصالحك واوجب علينا النظر لما فيه حسن مآلك ؛ فلن نترك الحبل على الغارب لامرك وامر ابنائك وما دام تحصينك وتحصين ذريتك موكولا الى عهدتنا فلن ترى منا تقصيرا ولا تفريطا ولن تشاهد تهاونا منا او اهمالا .

جهودنا فى مجال الصحة العمومية

ولقد تتابعت جهودنا فى مجال الصحة العمومية للتكثير من المستشفيات والمستوصفات ، وتوسيع

شبكة هذا التجهيز ، ليشمل القرى والمدن الصغيرة والمناطق التى كانت لحد الآن محرومة منه ولتمتد اسباب العلاج ويتسع نطاق مطاردة الادواء كما توالت عنايتنا بالوقاية وتعزيز وسائلها وتقوية آثارها ، وبالاضافة الى المجهود الرامي الى صيانة صحة اطفالنا ووقايتهم من الامراض التى تعرض سلامة اجسامهم الى خطر محقق فاننا واصلنا مكافحة الامراض المعدية التى يمكن ان تصيب الصغار والكبار على السواء وستمتد اسباب الوقاية والعلاج يوم تكون بلادنا متوفرة على العدد الكافي من الاطباء المغاربة الذين اخذت كليتنا تعمل على تخريج الافواج منهم وقد حصلنا فى هذا المضمار على نتائج سارة فلبى الفوج الاول من المتخرجين منها الدعوة الى مزاولة المهنة فى المدن والقرى المنتشرة فى انحاء مملكتنا ، ان عدد طلبتنا الذين يودون التخصص فى الطب ليزداد كل سنة ، ولن يمضي الا بضعة اعوام حتى تؤهل كليتنا الفنية من الاطباء من تسد بهم الحاجة المتصاعدة .

الى جانب تكوين الاطباء عنينا بصناعة الادوية

والى جانب تكوين الاطباء وتوفير اكبر عدد منهم فاننا عنينا بصناعة الادوية وبذلنا لها من التشجيع ما هو كفيل بنموها وازدهارها ،كما عنينا بما تستلزمه هذه الصناعة من مراقبة المصنوعات الصيدلية تفاديا لكل داء يمكن ان يتولد عن دواء غير صالح ، فصناعة الادوية ومراقبة هذه الصناعة شيآن متلازمان ، نحرص كل الحرص على ان يكون انتاج مصانعنا مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمراقبة وصلاحه مرهونا بفاعليتها ، واذا كان قصدنا من هذه الصناعة الوطنية توفير العملة الصعبة وتشغيل اليد العاملة فاننا نستهدف من ورائها تخفيض اثمان الادوية المصنوعة ببلادنا تخفيضا يجعل هذا الانتاج فى متناول الفقراء وذوي الامكانيات القليلة المحدودة ، واننا لجادون فى العمل على ان يكون هذا التخفيض امرا مفعولا .

اصلاح الاطر الادارية

وقد عملت وزارتنا فى الشؤون الادارية الامانة العامة للحكومة خلال السنة المنصرمة على اتمام اصلاح الاطر الادارية وذلك بتحضير مختلف النصوص التطبيقية وادماج الموظفين فى الاسلاك المحدثة بمقتضى النظام الجديد ، وقد تم هذا الادماج الذى تناول ما ينيف على اثنين وستين الف موظف داخل الاجل الذى حددناه فى خطاب العرش الذى القيناه فى السنة الماضية .

تبذل الجهود الآن لاصلاح نظام التعويضات وقد انتهى ذلك فيما يخص الاطر الفنية من مهندسين واعوان فنيين واطباء وبياطرة ومعماريين ، وتجري الآن دراسة شاملة لتسوية الحالات فى هذا المضمار بالنسبة لبقية الموظفين .

وفى نفس الوقت تقوم وزارتنا فى الشؤون الادارية باعادة النظر فى النظم المطبقة على المستخدمين بالقطاع الشبيه بالعمومي ، وذلك لارساء وضعيتهم على اسس صالحة رعيا للمجهود الذى يساهمون به فى خدمة الدولة داخل الاجهزة التى يعملون فيها .

وسيتوج اصلاحنا الاداري ان شاء الله بادخال اصلاح شامل جذري على الاوضاع الادارية حتى تصبح اداة اكثر فاعلية لانجاز المشاريع الاقتصادية والاجتماعية ، وقد بدات الدراسات فى هذا المضمار باتصال مع مختلف الوزارات حتى يتسنى الشروع قريبا فى العمليات الاولية لهذا الاصلاح الذى يتطلب بطبيعته كثيرا من الدرس وقسطا وافرا من الامعان .

وفى ميدان مراجعة التشريع : فما يزال العمل سائرا بخطى ثابتة وروح يطبعها الاستمرار والمواظبة ، واعطيت الاسبقية فى هذا المضمار ، خلال السنة الماضية ، لمشاريع النصوص التى قررنا فى المخطط الخماسي تحضيرها او مراجعتها ، وقد انجز منها لحد الآن النصوص المتعلقة بتعاونيات الصيد البحري وانشاء لجنة اعداد التراب الوطني للاستثمار ومكتب الصيد البحري وكذلك مجموعة النصوص التى يتكون منها قانون الاستثمار الفلاحي ، وللاهمية القصوى لهذا القانون وما له من مختلف المتزمات فى شتى ميادين الاقتصاد ، فاننا حرصنا على ان يتوخى فى اعداد الدقة وامعان النظر وسيبقى العمل مستمرا حسب نفس الاسبقية خلال هذه السنة حتى تنجز جميع النصوص التى اشرنا اليها فى المخطط المذكور زيادة على مواصلة العمل والدرس والاعداد فى غير ذلك من الميادين وخاصة منها ما يهم النصوص العامة والمدونات على اختلاف انواعها .

وزارة الاوقاف تقوم بدورها فى بناء المساجد والتربية الدينية

ولقد درجت وزارتنا فى الاوقاف والشؤون الاسلامية على المنهاج السليم الذى رسمناه لها

وواصلت تحقيق وتنفيذ الرغبة المتوخاة منها ، والقيام بما يفرضه واجب وزارة ماموريتها رعاية بيوت الله والسهر على تيسير اقامة الشعائر الدينية للمسلمين وانارة الرأي العام بما يحتاجه من توعية خلقية ودينية تجعل المواطن الصالح يعيش حياة هادئة مطمئنة ملؤها حرارة الايمان ، وثلج اليقين .

وفى هذا النطاق تم فى بحر السنة الماضية تشييد واحد واربعين مسجدا فى مختلف اقاليم مملكتنا ، كما وقع ترميم واصلاح مائة وتسعة وسبعين (179) مسجدا فى الحواضر والبوادي .

وفى شهر رمضان قامت وزارتنا هذه بتعبئة طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء وانتدابهم للقيام بمهمة الوعظ والارشاد والقاء المحاضرات فى المساجد والمدارس والنوادي والاذاعة والتلفزة ، وقد بلغ مجموع الدروس والمحاضرات الملقاة نحو العشرين الفا وذلك اسوة بالدروس التى نشرف عليها بنفسنا والتى نعتبرها ملتقى للعلم والفكر ولبنة من لبنات ربط الاخاء والمحبة بين المسلمين . كما قامت وزارتنا فى الاوقاف والشؤون الاسلامية استجابة للنداء الذى وجهناه لاعادة تنظيم الكتاتيب القرءانية بتاسيس عدة مدارس قرءانية ، وذلك بالاضافة الى الكتاتيب التى تم اصلاحها واعدادها لمهمتها الجديدة التى دشنا عهدها كما اصدرنا امرنا بمساعدة الدول الافريقية فى ميدان التثقيف الديني ، والتربية الروحية ، وكلفنا وزيرنا بوضع مائة منحة رهن اشارة طلبة هذه الدول تسهيلا لاقامتهم وتكوينهم تكوينا اسلاميا صحيحا .

وبجانب هذا فوزارتنا تسهم بحظ جزيل فى المجال العلمي والنشر والتاليف واصدار التراث الاسلامي الثمين وابراز دعوة الحق والارشاد كما تقوم باعمال عمرانية واجتماعية واقتصادية وفلاحية فى نطاق الوقف العمومي .

مهمة الاعلام : التوعية والتربية والتثقيف

ولما كانت اجهزة الاعلام من الوسائل الفعالة فى مجالات التوعية والتثقيف والتربية والتهذيب فقد اوليناها هذه السنة، كما اوليناها فى السنوات السالفة، نصيبا غير قليل من عنايتنا ، وقد كنا وما زلنا حريصين على ان تكون وسائلنا من الاذاعة والتلفزة مؤدية للغاية المقصودة منها ، الا وهي القيام بمهام التوعية والتربية والتثقيف فى نطاق واسع ، ولذا عملنا على ان تضاف الى محطات الارسال للتلفزة محطات جديدة ، يستطيع بفضلها سكان الشمال والجنوب تتبع برامجنا والاستفادة منها ، وبعدما اقمنا محطة ارسال للتلفزة باكادير ومحطة للاذاعة بازيلال اتجه عزمنا الى ايصال برامجنا بواسطة التلفزة للاقاليم التى لا تصل اليها ، وهكذا فان برامجنا المصورة ستنقل الى اقاليم تطوان والحسيمة والناضور وبني ملال وخريبكة وقصر السوق ما تنقله الى الاقاليم الاخرى من حصص التعريف باهداف الدولة ومنجزاتها والتوعية والتربية والتثقيف .

اعداد الجيل الصاعد لخوض المعركة

وشعورا منا بالواجب الذى يتحتم علينا اداؤه لصالح المشاركة الايجابية فى معركة التنمية والبناء ، فقد دابنا على اعداده لخوض هذه المعركة اعدادا شاملا لمجالات التربية والتثقيف على اختلاف انواعها وتعدد وجوهها ، وليست عنايتنا بالشباب وليدة اليوم ولا اهتمامنا به وبمشاكله بحديث العهد .

فمنذ القى الله الينا بزمام امور الدولة وشؤون الشباب مناط رعايتنا ، نصل السعي بالسعي ، والتوجيه بالتوجيه ليكون احسن حالا وانفع اعمالا واسعد مآلا ، فاصدرنا الى المشرفين على مصالح الشبيبة والرياضة ثم الى وزيرنا الملقى اليه باعبائنا اوامرنا بان يعملوا على ان يكون شبابنا صالحا لنفسه وامته ، يستفيد ويفيد لا يعتبر كلا ولا ينظر اليه شزرا .

وقد قامت وزارتنا فى الشبيبة والرياضة ببذل الجهود لفسح المجال فى وجه شبابنا حتى تتفتح آفاق شخصيته ، وذلك بشغل اوقات الراحة لديه بكل ما من شانه ان يساعده على اكتساب القوة البدنية والاخلاقية والفكرية فاخذت الشبيبة ترتاد الدور والاندية ومراكز التربية الشعبية والانعاش النسوي فى المدن والقرى والمخيمات الصيفية وعنيت وزارتنا فى الشبيبة والرياضة فوق هذا بالاحداث المنحرفين وبمن تتعين حراسة ومراقبة تربيتهم ، واعدت لمختلف المراكز : الاطر التى تتوافر فيهم الدراسة والكفاية والخبرة فاقبل الشباب الراغب فى الاستفادة من مختلف انواع النشاط التربوي والاجتماعي والفني اقبالا اصبحت امكانيات الوزارة تنوء به ولا تتسع له ولما نعقده من رجاء بشبابنا ولما نولي سلامة بدنه وعقله وروحه من اهتمام

فان عزمنا وطيد على تزويد وزارة الشبيبة والرياضة بالوسائل الكفيلة لجعلها قادرة على الاضطلاع بالمهام التي اسندنا اليها وذلك على الوجه الذي تتحقق معه رغبتنا في اعداد شباب سليم الجسم والعقل وتاهيله للاسهام بحظه في نماء البلاد .

ولم تكن المعركة التي نخوضها في سبيل النماء لتنسينا ما يجب ان نضطلع به كاعضاء في العالم العربي والقارة الافريقية بصفة خاصة والاسرة الدولية بوجه عام .

فقد سرنا في الخطة التي رسمناها والطريقة التي اخترناها منذ انعم الله علينا بنعمة الاستقلال ، فالتزمنا الوقوف دائما لنصرة العدالة واستنكار اللجوء الى وسائل العدوان ، وعملنا على تمتين روابط التعاون مع الدول في مختلف الميادين ، واحترام مواثيق الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية والامم المتحدة ، وجميع المباديء التي ترتكز عليها سياستنا الخارجية .

وما زلنا نعلن استنكارنا للعدوان الذي تواصله اسرائيل في البلدان العربية والطغيان الذي تعامل به العرب والمسلمين في ارضهم وعقر ديارهم، ونطالب بجلاء قواتها المعتدية عن التراب المغصوب، ولطالما صرحنا بانه لن يهدأ لنا بال ولن يطمئن لنا خاطر الا يوم يعود الحق المسلوب الى اصحابه ويرجع القدس الشريف الى اربابه .

ولقد كان من اهم ما يشغل بالنا ويسترعي اهتمامنا تلك الجهات والاطراف المغصوبة من اراضينا والمقتطعة من بلادنا ، ففي مثل هذا اليوم من السنة الماضية اشرنا الى اننا لن نالو جهدا لاقناع صديقتنا الدولة الاسبانية التي تربطنا بها روابط الصداقة والجوار لوضع القرار الذي اتخذته منظمة الامم المتحدة في شان ايفني والساقية الحمراء ووداي الذهب موضع التنفيذ ، وقد اسفرت مفاوضاتنا اخيرا مع اسبانيا عن عقد اتفاق في مدينة فاس يقضي برجوع منطقة ايفني الى حظيرة المملكة في اجل قريب .

متشبعون بحب السلام

واننا لنستبشر باسترداد هذا الجزء الغالي استردادا هو نتيجة جهود بذلناها وثمرة محادثات ومفاوضات واصلناها، وان في هذا لبرهانا على ما نحن متشبعون به من حب للسلام وايثار لسبيل التفاوض والتفاهم للتغلب على الصعاب وفض المشاكل، كما توصلنا الى الغاء الاتفاقات المبرمة بيننا وبين اسبانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فيما يخص الصيد البحري وعقدنا معها اتفاقا ءاخر بشأن هذا الصيد وطرق مزاولته دون ان يكون فيه مس لسيادتنا .

ويطيب لنا ان ننوه بالتفهم وحسن الادراك الذي برهن عنه الجانب الاسباني ونامل ان تتلو هذه الخطوة خطوات اخرى يكون من حميد نتائجها الوصول الى حل سائر القضايا بين دولتينا .

صفحة جديدة في العلاقات المغربية - الجزائرية والتعاون من اجل تحقيق فكرة المغرب العربي

وفيما يرجع لعلاقاتنا بالقطر الجزائري الشقيق فقد كان للزيارة الرسمية التي قام بها فخامة الرئيس هواري بومدين لبلادنا اثرها الحميد اذ فتحت صفحة جديدة في سجل علاقات الشعبين الشقيقين ، وادت الى ابرام معاهدة الاخاء وحسن الجوار والتعاون بين الدولتين ، وان استقبالنا لاخينا فخامة الرئيس هواري بومدين لتعبير صادق عن عزمنا الاكيد على دعم الاواصر التاريخية التي تجمع بين بلدينا وفسح المجال لتعاون مثمر بين شعبينا وتحقيق فكرة المغرب العربي الذي نتوق اليه جميعا ، ولقد اتاح لقاؤنا الاخوي اتخاذ قرار لعرض مجموع القضايا المعلقة بيننا على لجان ثنائية تتكفل بايجاد الحلول المناسبة لها .

توثيق الروابط باشقائنا العرب والمسلمين ودعم الجامعة العربية

واذا كنا نولي اهتمامنا البالغ للعلاقات المغربية العربية بواسطة سفاراتنا في العالم فاننا نسعى جهد المستطاع العربي للعمل على تنمية هذه العلاقات وتمتينها وتطويرها . وقد كانت الزيارة الرسمية التي قمنا بها للمملكة العربية السعودية في ابريل الماضي ، وانتهازنا فرصة الوقوف بالجمهورية التونسية — في طريق عودتنا — دليلا ملموسا على التقارب الذي يربطنا باشقائنا العرب في المشرق والمغرب ، وقد عملنا، بالاضافة الى هذا، على تحسين ما بين الدول العربية وغيرها من الدول الصديقة والشقيقة من علاقات وقربنا وجهات النظر فيما بينها من خلاف وعملنا كذلك على تدعيم الجامعة العربية بشتى الوسائل والامكانيات ، وقد قام السيد الامين العام لجامعة الدول العربية بزيارة مملكتنا ولمس اكيد اهتمامنا

بقضايا الجامعة وشؤونها ، وشاركنا من جهة اخرى في الاجتماعات ، والمؤتمرات التى عقدت فى نطاق الجامعة العربية .

تزاور المسؤولين يدعم العلاقات

وان ننس فلا ننسى الزيارة التى قمنا بها للامبراطورية الايرانية بعد زيارتنا للجمهورية التركية ، حيث اجرينا مع رئيسها محادثات استعرضنا معه فيها مختلف المسائل الدولية ، والعلاقات الثنائية بين البلدين .

وقد اتيح لنا فى ايران ان نشاهد من الآثار ما يدل على ما للدولة الايرانية من تاريخ عريق ومجد اصيل ، وكانت هذه الزيارة مناسبة لاجتماعنا بجلالة صديقنا الشاهنشاه رضا بهلوي واجراء معه محادثات انتجت احسن الثمرات واحكمت بين مملكته ومملكتنا الروابط والعلاقات ، ويسرت التعاون الوثيق بيننا فى دائرة الود المتبادل والاخوة الاسلامية ، كما يسرت ابرام خمس اتفاقات للصداقة والتجارة والثقافة والتعاون العلمي والتقني .

وبعد الزيارة التى قمنا بها لايران حل صاحب الجلالة الامبراطور رضا بهلوي هو وحرمه صاحبة الجلالة بأرض مملكتنا ضيفين كريمين ، وزائرين محترمين مبجلين ، فكانت هذه الاقامة السامية ببلدنا توطيدا للاخاء وتعزيزا للمودة والصفاء .

الاتصال المستمر بدول قارتنا الفتية

ولم يكن اهتمامنا بالصعيد الافريقي اقل من اهتمامنا بسواه ، فتمت اتصالاتنا العديدة على مختلف المستويات مع المسؤولين فى الاقطار الافريقية وحضرنا مؤتمر القمة الافريقي المنعقد بالجزائر وشاركت بلادنا فى الاجتماع الذى عقدته فى كوناكري لجنة التحرير التابعة لمنظمة الوحدة الافريقية ، وكان من حسن حظ مملكتنا ان زارها كل من جلالة امبراطور الحبشة ، واصحاب الفخامة رئيس جمهورية افريقيا المركزية ورئيس جمهورية الكونغو ، والحاكم العام لدولة غامبيا .

هذا علاوة على ما عقد فى بلادنا من اجتماعات ، وما ابرم من اتفاقات، ومن بينها الاتفاقات المغربية السينغالية او ما بعثناه من وفود اقتصادية الى الكونغو كينشاسا والسينغال والنيجر وغيرها مما يقوم معه الدليل على الاهمية التى نتيطها بالتعاون مع الاقطار الافريقية .

تمتين العلاقات على اساس الصداقة والاحترام المتبادل

اما علاقاتنا مع الدول الاوربية فانها ما زالت قائمة على اساس الصداقة والاحترام وقاعدة تمتين علاقات التبادل والتعاون فى ميادين الشؤون الاقتصادية والفنية .

وفى اطار هذه الروابط والعلاقات زار بلادنا جلالة ملك بلجيكا مصحوبا بجلالة الملكة فابيولا زيارة رسمية ، تبادلنا فى اثنائها وجهات النظر بشأن العلاقات القائمة بين البلدين الشاملة لميادين التجارة والاقتصاد والمساعدة الفنية .

ومن جهة اخرى فقد تبودلت زيارات بين المسؤولين المغاربة والمسؤولين فى مختلف الدول الاوربية ، كان من نتائجها عقد اتفاقات فى وجوه شتى .

المغرب ظاهر الوجود دائب الجهود

وهكذا فان المغرب والحمد لله ظاهر الوجود ، دائب الجهود فى الحقل الدولي ، طائر الصيت مسموع الكلمة مخطوب الود والصداقة مقصود الرحاب مورود الجناب .

شعبي العزيز :

هذه اعمالنا المبذولة ، ومساعينا المصروفة متجلية فى المنجزات ظاهرة فى البرامج والمشاريع ، وهذه ابعاد جهود المستقبل وآفاق ما نعتزم القيام به من مهمات وما نطمح الى بلوغه من غايات ، عرضنا عليك كل هذا بايجاز واجمال لم نقصد من وراء عرضنا وبياننا الا الى الدلالة على الخطوط البارزة فى السياسة التى حددنا معالمها ورسمنا المرامي والاهداف التى يتحتم علينا ان نبلغها بسلوكها وانتهاجها ، وما دامت هذه السياسة تتعقب النقص ليمكن تلافيه ، وتطارد الضعف لتخلفه القوة ، وتهاجم الفقر حتى ينحسر وينهزم ويحل مكانه الغنى والثراء فان علينا ان نوفر لها اسباب الفوز والتمكين بقائنا متمسكين بخصالنا الاصيلة ومزايانا الاثيلة معبئين دوما واستمرارا لجهودنا مستنفرين لاهلياتنا واستعداداتنا ، جادين فى العمل على استغلال امكانياتنا ، والانتفاع بمقدراتنا استغلالا وانتفاعا تصبح

معيما المباهاة وتتائى بهما المفاخرة فى هذا الظرف من الزمان الذى يعتمد على الارقام ويزن الاشياء بميزان الاحصاءات وينظر الى مداخيل الامة وتوزيع الثروة بين الافراد والى ارتفاع مستواهم وانخفاضه نظـــرة نقد واستبصار لا تهاود ولا تراءى تلين تارة وتقسو تارة اخرى بحسب تناسخ الاحوال وتقلبها بين الجد والحزم والتهاون والتواني .

دور المراة والرجـل فى معركـة التنميـة

ولو كنا امة مواكبة لركب الامم البالغة من التقدم الشأو البعيد ، لقنعنا من جهدنا باتصاله ، ولاكتفينا من سعينا باستمراره ، ولكننا امة فى طريق نموهـا وسبيل ارتقائها لم تلحق بعد بالمجلين من من الشعوب الفائزين بالرغد والنماء ، فعلينا ان نحقـق الانطلاقـة المطلوبة والوثبة المحبوبة ، وذلك بدفع نفوسنا وعقولنا وارادتنا الى اقصى ما يمكن ان تبلغه من حد وتقـف عنده من جهد ، لنكون اكثر انتاجا ، واصح تفكيـــرا ، واسلم تدبيرا واوسع خبرة وعرفانا ، واقوى استعدادا لجميل الاقتفاء والاتباع، واوفر قدرة على الابتكـــار والابتداع ، وليس هذا المطلب خاصا بالرجال دون النساء ، ولا هذا النداء مقصورا على فئة دون سواها، وانما هو مطلب جامع ونداء واسع ، فللمراة حظها من التبعية وللرجل نصيبه من المسؤولية . وان حاضرنا ومستقبلنا ليتطلبان من افراد الامـة جمعـاء ذكـورا واناثا ، ان يجندوا ما لهم من كفايـات ، ويسخـروا ما لهم من صلاحيات كل فيما هو مضطلع به من مهام ، مخصوص به من اعباء حتى نبلغ المطمـح الذى اليـه نتطلع ونتوق .

الاستمرار والاستقرار شعاران متلازمـان

وليس حرصنا على الاستمرار المتزايد فى العمل باقل من حرصنا على ان يكون هذا الاستمرار مقرونا بمزية اخرى وهي مزيـة الاستقـرار ، فالاستمـرار والاستقرار شعاران متلازمان لا غنى لنا عن كليهما ، ولا مناص لنا من التمسك بهمـا ، الا ان مدلـول الاستقرار الذى نقصد اليه يختلف عن المفهوم الـذى يتبادر الى الذهن ويسارع الى الخاطـر ، ذلـك ان الاستقرار ينصرف معناه فى الوقت الحاضـر الى قيام الاوضاع السياسية على دعائـم ثابتـة واسس راسخة ، وليس هذا هو المعنى المراد من تعبيرنا ، ولا المدلول المتوخى من نطقنا ، لان اوضاعنا والحمد للـه مكينة الاركان ، قائمة البنيان على اوثـق القواعـد ، واسلم الاساس فالاستقرار الذى نهيب بالبلاد ان تتخذه شعارا لها هو استقرار على مذهب اقتصادي واجتماعي غير مضطرب ، والتزام اتجاه لا يميل ولا يتردد بيـن الاقدام والاحجام ، والرجوع حينا الى الوراء ، والمضي حينا آخر الى الامام ، وهو اختيار معلـوم ، وسيـر مرسوم ، لا ينقطع ولا يلتوي ، ولا يكل ولا يسأم ، ولا يجور عن القصد ، ولا يزيغ عن الطريق . وان استقرارا كهذا لخليق ان تامن معه النفوس عادية القلق والحيرة والذهاب شعاعا بين هذه الوجهة وتلك ، وكفيل بأن تسلم معه الجهود والمساعي المبذولة او المزمعـة من الشتات والضياع فاذا تعزز جانبه باطمئنان النفوس فى الداخل والسلم فى الخارج وانصرفت الهمم الى التنافس فى الخير والتسابـق الى اقتنـاء الفضـل واكتسـاب الحسنى ، وكان عمل الافراد نتيجة لتجاوب بينهم وطمانينة نفوسهم وليدة ما يسلكون من سبيل سوي قويم فان الغاية المقصودة التى هي تثبيت اركان الازدهار ومد اسباب اليسار والرخاء وتعبيد الطريق فى وجه النماء ، لن يكون بلوغهـا امرا عسيرا ومنـالا ممنوعا محظـــورا

شعبي العزيز :

ان احتفالنا اليوم بالذكرى الثامنة لجلوسنا على عرش اسلافنا الاكرمين وقدمرت على استرجاع استقلال بلادنا اربعة عشر عاما ، لتهيمن عليـه مثلـما هيمنت عليه من قبل روح البطل الذى حمل الامانة فاحسن حملها وادى الواجب فاجاد فى الاداء ، وامتحن اشد ما يكون الامتحان فصبر محتسـبا ، ووطن النفس على المكاره فنفذ منها عزيز الجانب ، موفور الكرامـة ، لـم تثن الظروف المدلهمات والاحوال الحالكات من عزمـه ومضائه ، وتصميمه ، ولم تحد به عن الغاية التى كانت قبلة جهوده وداعية لاخذه ورده بعد الجهاد والتضحية الجلى والايثار الذى يعز نظيره ويقل ضريبه ومثيله ، فيما تناقلته السير من تضحيات عظمـاء الرجـــال والافذاذ من الزعماء والابطال .

روح محمد الخامس قدس الله روحه تهيـمـن عليـنـا

ذلك الرجل الشهم المقدام الذى اضاف مجـدا طريفا الى امجاد هذه البلاد التليـدة ، هو صـاحب الجلالة محمد الخامس والدنا المنعم فقيد العروبـة والاسلام ، واننا لنتوجه فى هذا اليوم بقلوب ملؤها الاجلال والاعظام ومشاعر رعاية العهد وحفظ الذمام ، الى الله الكبير المتعال مبتهلين اليـه ان يضفي عليـه واسع رحمته ويسبغ عليه الغفـــران والرضـــوان

ويسكنه خالد الجنان ويكافئه على مابذل واسدى وصارع وكافح وناضل ونافح ، ويجزيه الجزاء الاوفى، ويجعل مقامه بين اوليائه المهتدين وانبيائه الصديقين الاطهار والشهداء والابرار انه ولي المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولئن كانت حياة والدنا رضي الله عنه وارضاه مليئة بكثير من اشكال الجهاد والجلاد ومقارعة الخطوب ، ومنازلة الشدائد والنوائب فان واجب برور الولد بوالده ودافع الرغبة في التخفيف من كده وعنائه وباعث الحرص على مشاطرته تحمل مشاقه واتعابه واعبائه ، كل هذا كان يقتضينا ان نواصل معه العمل الدائب بالليل والنهار ، والتفكير فيما يحققه الامل بالتحرر من الاغلال والاصار ، فلما التحق بالرفيق الاعلى واصطفاه الله لجنة المأوى شاءت حكمة الله ان يستخلفنا من بعده على عرش ملوك الدولة العلوية الاشراف الغطاريف فحملنا الامانة شاكرين لنعمه ومنته واثقين بتسديده وتوفيقه ، مومنين باننا لن تعدم شعبي العزيز سندك ومؤازرتك وتاييدك واخلاصك ووفائك وولائك ، فاذا كان والدنا قضى حياته الحافلة باسنى المآثر واجمل المفاخر في استرجاع حرية البلاد واستعادة استقلالها مبدئا ومعيدا في خوض معركة لا يثبت في وطيسها الا القليل من افذاذ الرجال والقادة والابطال فاننا وقد شاركنا بحظ موفور في تلك المعركة اخذنا نفسنا منذ اولانا الله زمام المملكة بخوض معركة جديدة تستلزم الجهاد والتضحيات وتستدعي تسخير المواهب والملكات ، تلك هي معركة التحرير والتطوير، والتصنيع والاستثمار ، واعداد الرجال بالتأهيل والتكوين حتى تستكمل البلاد انطلاقها في مجال التنمية التي لا يتم بدونها رخاء ولا ازدهار ، وتلك معركة نخوضها بايمان صادق وعزم ثابت وثقة واطمئنان ورغبة لا تريم ، ولا تخبو جذوتها في الظفر والانتصار كلفنا ذلك ما كلفنا من جهود وجشمنا ما جشمنا من نصب وعناء .

تلاحم ملك وشعب

هذا وان النصب ليجلو والعناء ليطيب وانت شعبي العزيز من نفسي من انت ، ومن قلبي ، من اصفيت واصطفيت ، لقد محضت لك الحب ، واخلصت لك في السر والعلانية فما ظل لي نهار ولا دجا لي ليل الا كنت مثابة افكاري ومباءة خواطري ، لا تتحول المشاعر عن حماك ، ولا تنصرف العواطف الى سواك، امنك واطمئنانك غايتي وقصدي ،وهناؤك واسعادك دابي ووكدي ، لا يعتريك غم او هم ، ولا يساورك ترح، او الم ، ولا تنتابك حسرة ، ولا ترين عليك كآبة ، ولا يحل بك مكروه ، الا سعيت لتفريج ما الم بك من ضراء، وكشف ما اصابك من غم ، وتبديد السحب المتلبدة في فناء نفسك والمخاوف الضاربة في شغاف قلبك وانبريت لدفع السوء عنك ورد المكروه عن كنفك وساحتك وتسكين الهواجس المرعبات في خاطرك ، وازاحة الظلمات ان حامت حولك ببلج النور ، واستبدال الياس ان طاف بك ، بثلج الامل الذي يزين ملامح الدنيا ، ويضفي الغضارة والنضارة على كل ما تقع عليه العين ويتصوره الوجدان ، وما من امنية تعشقها وما من مطمح شريف صبا اليه فؤادك وما من مطلب جميل تعلق به رجاؤك وما من شعور تحرك بين جوانحك مبعثه الكرم والايثار الا قاسمتك اياه وشاطرتك سره ونجواه ، لك مني كل آونة وحين فيما تتوق اليه وتهواه وتشرئب اليه وتتمناه من مكسب نبيل ومغنم جليل ، المسعف والمساعد والمؤازر والمعاضد ، والمؤيد والنصير والمعين والظهير ، فمني ومنك اليد والجنان ، والقلب واللسان ، سايرتك وسايرتني ، وبلوتك وخبرتني والفيتك كما عهدتك والفيتني لا احول عن عهدك ، ما تلاحق الملوان ولا احيد عن ودك ما تعاقب الجديدان ولا استسيغ حالا من الاحوال ولا استطيب الرحيل او المقام الا وانت سليم غير سقيم ، وناعم البال غير كظيم ، شوقي اليك في سفري شوق لا يبرح ولا يسلو ، وسعيي لصالحك في غيابي وحضري سعي لا يمل ولا يكبو، وعلمت مالك في قلبي من ذخيرة مكنونة، وثروة مضمونة فبادلتني حبا بحب واخلاصا باخلاص واسررت الولاء لي اسرارا، واعلنته اعلانا واعربت عن وفائك لي اعرابا ، اتخذ اشكالا والوانا ، وافعمت قلبي بالمسرات وبرهنت لي بالآيات البينات ، على انك شعبي العزيز بما آتاك الله من مواهب ومدارك وما حباك به من عرفان للجميل وما حببه اليك من عمل نافع ، وسعي صالح وما فطرك عليه من ابتغاء للكمال واقتناء للمكرمات واكتساب للفضائل ، برهنت لي بجميع هذه المناقب والمحامد على انك شعب شاءت عناية الله ان يكون شعبا محظوظا وقرينا لغيره من الشعوب مشهودا ملحوظا .

دعوات مستجابة

اللهم احرص بلطفك وعطفك ما بيني وبين شعبي من اصيل الروابط ووثيق الصلات وصن بحفظك

وحمايتك ورعايتك ، هذا البلد الذي يستمسك بحبلك ويعتصم بدينك ويسترشد بآياتك ويقتفي سنة نبيك .

اللهم اجعل نور هديك نبراسا تستضيء به مشيئتي ، وسراجا وهاجا يستنير به قصدي ووجهتي ، ولا تباعد بيني وبين طريقك ، ولا تحل بيني وبين مرضاتك ، واجعل باب شكري اليك مفتوحا وسبيل الحمد ميسورا ممنوحا ، وادم علي وعلى شعبي معهود احسانك وسابغ آلائك ونعمائك ، واملأ صدري بمحبتك ولا تزغ قلبي بعد هدايتك .

اللهم اني ادعوك وانت البر الرحيم فاستجب دعائي ، واستوهب عونك فأعني ، واستمنح فضلك فتفضل علي واسترحمك فلا تحرمني .

اللهم اني اهفو اليك بجوارحي وجوانحي في امسائي واصباحي ، وغدوي ورواحي ، فتقبل عملي خالصا لك وحجة لديك وذخرا لي عندك ، واجعل افئدة شعبي مفعمة بك والسنته طلقة بذكرك رطبة بالثناء عليك ، واوزع امتي شكر النعمة والحمد وذلك لها طريق الرفعة والمجد واثب اعمالنا جميعا ثواب المحسنين ، واكفل لنا جزاء الصالحين من عبادك المؤمنين ، واكتبني مع الائمة الهادين المهتدين ، وصفوة الوارثين فلا ملجأ الا اليك ، ولا ملاذ الا بك ، ولا عاصم ولا ناصر الا انت ، فكن لي وليا ، وبشعبي حفيا ، انك نعم الولي والنصير ، والخبير والبصير ، والعزيز المنعم القدير ، والسلام عليكم ورحمة الله .



مبادئ الاقتصاد الإسلامي وغاياته

لسماحة الاستاذ : ابو الاعلى المودودي
امير الجماعة الاسلامية في باكستان نقله الى العربية الاستاذ خليل احمد الحامدي.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، وعلى آله وصحبه اجمعين :

وبعـــد ،

موضــوع البحــث :

ان الموضوع الذي اخترته لهذه المحاضرة(1) عنوانه: « مبادىء الاقتصاد الاسلامي وغاياته » ولبحث هذا الموضوع أحدد بنفسي اربع اسئلة ثم ارد عليها : وهي كما يلي : السؤال الاول : هل الاسلام وضع نظامـا اقتصاديا ؟ وان كان ، فما هي تفاصيله ؟ ثم ما هي المكانة لكل من الارض ، والعمل ، والراسمال، والتنظيم في هذا النظام .

السؤال الثاني : هل يجوز استخدام امـوال الزكاة والصدقة في المصالح الاقتصادية العامة ؟

والسؤال الثالث : هل يمكن لنا ان نقيم نظاما اقتصاديا لا ربويا ؟

والسؤال الرابع : هل هناك ارتباط أو انسجام بين كل نظام من النظم الاقتصاديــة والسياسيـــة والاجتماعية والدينية في الاسلام ؟

هذه اسئلة اذا اراد الانسان ان يتحدث فيهـا بتفصيل واطناب يضطر الى اخراج كتاب مبسط فيها.

الا ان الذين اخاطبهم الآن هم جماعة متقفة واعيـــة فتكفيهم الاشارات .

اما السؤال الاول فهو على شطرين : الشطر الاول : هل الاسلام وضع نظاما اقتصاديا ، وان كان فما هي تفاصيله ؟ والشطر الثاني : ما هي المكانة لكل من الارض والعمل ، والراسمال ، والتنظيم في هـذا النظام ؟

توجيه الاسلام الاقتصادي :

واقول ردا على الشطر الاول من السؤال : نعم ، ان الاسلام وضع نظاما اقتصاديا بدون ما ريب . الا أنه ليس معنى ذلك انه وضع نظاما اقتصاديا بجميـــع تفاصيله وفروعه ونواحيه لكل عصر من العصور ، بل معنى ذلك انه قد اعطانا اسسا ومبادىء نستطيع ان نضع في ضوئها نظامنا الاقتصادي في كل عصر مـن العصور وفق حاجاته ومقتضياته . ومن قواعد الاسلام الكلية التي تتضح لنا جليا بعد التأمل في كتاب الله وسنة رسوله نتبين ان الاسلام اقام معالم وقرر حدودا فاصلة (Four Corners) لكل شعبة من شعب الحياة ، ثم يفرض علينا أن ننظم هذه الشعبة في داخل هــذه الحدود والمعالم . ويؤكد علينا أن لا نتعدى هذه الحدود والمعالم بحال من الاحوال . ولنا ان نضع داخلها كل ما يتصل بهذه الشعبة من التفصيل حسب الظـــروف

---

1) محاضرة القاها الاستاذ المودودي في جامعة بنجاب بلاهور (باكستان) .

والحاجيات والتجارب . ان الاسلام يرشد الانسان بهذه الطريقة الى كل ما يتعلق بحياته اعتبارا من الشؤون الشخصية الى كل شعبة من شعب الحضارة والمدنية. وبهذه الطريقة نفسها هو يأخذ بيدنا الى ما له علاقة بالحياة الاقتصادية . بحيث انه وضع لنا مبادىء ، ورسم لنا معالم نصور في داخل اطارها نظامنا الاقتصادي . اما تفاصيله فهذا الجانب لا يتحقق الا وفق حاجات العصر ؛ كما تحقق ذلك فعلا على مدار التاريخ الاسلامي . واذا تصفحتم كتب الفقه وجدتم فيها : كيف ان فقهاء الاسلام دونوا احكام نظام الاقتصاد بتفصيل واف في عصورهم المختلفة ، في داخل الحدود الفاصلة التي خطها الاسلام ، وكل ما وضعوه من التفاصيل والفروع فيما يتعلق بهذا النظام وضعوه مستمدين من المبادىء التي قررها الاسلام . وكل ما ينفعنا من هذه التفاصيل ويحقق حاجاتنا العصرية ناخذ به ، كما هو ، بدون ادنى تغيير فيه . ثم نستخرج احكاما جديدة فيما يدعونا اليه الحاجات المستحدثة . ويلزم ان تكون الاحكام الجديدة كذلك مستمدة من المبادىء والاسس التي اتى بها الاسلام وفي داخل الحدود التي قررها .

وحسبكم ان تدركوا من هذا البيان مراد قولنا : « ان للاسلام نظاما اقتصاديا خاصا » . وقبل أن أتناول بالبحث المبادىء التي وضعها الاسلام للاقتصاد اريد ان القي بعض الاضواء على الغايات (Objectives) التي راعاها الاسلام في نظامه الاقتصادي . لان بدون معرفة هذه الغايات لا يمكن لاحد ان يتفهم مبادىء الاسلام الاقتصادية ، وان يطبقها على الظروف والحاجات ، وأن يستخرج منها الاحكام التفصيلية التي تلائم روحها الحقيقية .

الحريـــة الاقتصاديـــــة :

ان اول شيء يهتم به الاسلام — أول ما يهتم — في باب الاقتصاد ملخصه : انه يحافظ على حرية الانسان ، ولا يفرض عليها قيدا من القيود الا بقدر ما لابد منه لتحقيق سعادة النوع البشري وفلاحه . وذلك ان كل فرد من افراد النوع البشري هو مسؤول امام الله بصفته الفردية من وجهة نظر الاسلام . وهذه المسؤولية لن تكون مسؤولية جماعية . بل كل شخص هو مسؤول بصفته الشخصية ، ويسئل عن كل ما جاء به من الاعمال الصغيرة او الكبيرة في الحياة الدنيا . ولاجل هذا المبدا من اللازم ان تتاح للانسان فرص موانية لتطوير شخصيته وفق اتجاهاته وحسب كفاءاته وبارادته الحرة . ولذلك ان الاسلام يعطي للحرية الاقتصادية نفس الاهمية التي يعطيها للحرية الخلقية والسياسية. اذا انعدمت الحرية الاقتصادية تنعدم الحرية السياسية والحرية الاخلاقية بنفسها ، لان الذي يفتقر الى غيره في معاشه مهما كان له راي مستقل حر في امر من الامور السياسية لا يكون حرا في العمل به ابدا . ومن ثم فان الاسلام يضع مبادىء اقتصادية تسمح للفرد اكثر مما يتصور من الحرية في اكتساب الرزق والتماس المعاش؛ ولا تفرض عليه التزامات وقيودا الا قدر ما تقتضيه مصلحة البشر العامة وسعادتهم الحقيقية .

تنمية المكــارم الخلقيـــــة :

والامر الثاني هو ان الاسلام يعتبر مسالة التربية الخلقية للانسان من المسائل الاساسية ، ويعطيها ما تستحق من الاهمية . ولا تتحقق التربية الخلقية الا اذا توفرت للفرد فرص للعمل الصالح الناشىء عن ارادته الحرة في النظام الاجتماعي للبلاد ، لكي تنمو فيها مظاهر البر والاحسان والعطف والرافة وما الى ذلك من المكارم الخلقية . وعلى هذا فان الاسلام لا يقتصر على السلطة التشريعية في اقامة العدالة الاقتصادية بل هو يركز جل همه في هذا الصدد على استصلاح الانسان النفسي والخلقي ، وعلى تحسين ذوقه ، وعلى تغيير مقاييسه للتفكير ، وعلى تشحيذ الحس الخلقي (Moral Sense) في نفسه الذي يدفعه دفعا على القيام بالقسط والعدل والاحسان وان باءت بالفشل جميع هذه التدابير لاصلاح الفرد فليكن المجتمع الاسلامي في حيويته وقوته حيث يرغمه على الالتزام بمقتضيات العدالة وحدودها عن طريق ضغطه الجماعي . واذا لم يؤثر هذا الضغط ايضا فهنا يستخدم الاسلام قوة القانون ليقيم في ارض الله عدلا لا بوسائل القسر والارغام . وكل نظام اجتماعي يقتصر لاقامة العدالة على قوة القانون فقط ، ويكبل الانسان بقيود تسلب قدرته على اعمال الخير والمعروف عن ارادته الحرة فهو نظام باطل في نظر الاسلام .

محاربة الصراع الطبقـــي :

والامر الثالث : ان الاسلام يدعو الى الوحدة البشرية والاخوة ، ويعارض التفريق والتناطح والتصادم . ولذلك هو لا يقسم المجتمع الانساني الى طبقات . بل يخلق جو التعاون والتعاطف والتكافل بين

الطبقات التي توجد في المجتمع بحكم الفطرة ، ولا يثير بينها الصراع الطبقي .

هذه أمور ثلاثة لا تدركون مبادىء نظام الاقتصاد في روحها الصحيحة ما دمتم لا تضعونها امام اعينكم .

وهيا بنا نأخذ الآن المبادىء الرئيسية لنظام الاسلام الاقتصادي متوخين الايجاز :

الملكية الفردية وحدودها :

ان الاسلام يقر بحق الملكية الفردية المحدودة بعدة حدود ، ولا يفرق في هذا الباب بين وسائل الانتاج (Means of Production) وبين الادوات الاستهلاكية (Consumergoods) . بل هو يقر بالحق الشامل للملكية الفردية بعد ان يحددها بحدود خاصة ، ولا يعترف الاسلام بفكرة تقول بالتفريق بين وسائل الانتاج والادوات الاستهلاكية اولا ثم الغاء حق الملكية الفردية على وسائل الانتاج . والاسلام يبيح للانسان تملك الاراضي والآلة والمصنع ، كما يبيح له تملك الالبسة والاواني واثاث البيت وامتعته . وقد وضعت الشريعة الاسلامية التخطيط الشامل للحياة الاقتصادية بصورة توفر للانسان حرية كاملة لاكتساب الرزق والتماس المعاش ضمن الحدود المعينة . وقلت لكم آنفا : ان الاسلام يعطي الحرية الفردية كل الاهمية ، وعلى اساسها يقيم بناء تنمية الخصائص الانسانية وترقيتها ولكي تكون الحرية الفردية مكفولة مضمونة يجب ان يعطى الفرد حق الملكية الفردية في وسائل الاقتصاد وتدبيره وتنظيمه . واذا سلبناه حق الملكية الفردية ، وقمنا بتأميم سائر وسائل الاقتصاد فهذا يعني الغاء حريته الفردية بدون ما ريب . لان بعد تأميم وسائل الاقتصاد ومنابعه يصبح جميع افراد المجتمع مستخدمين خاضعين للمنظمة التي تسيطر علىكافة وسائل اقتصاد الدولة ومصادره وتوجهها فيما تشاء .

توزيع الثروة على مبدأ العدل :

وكذلك من اهم مبادىء نظام الاقتصاد الاسلامي ان هذا النظام لا يدعو الى توزيع الثروة على مبدأ المساواة (Equal) بل يدعو الى توزيع الثروة على مبدأ العدل (Equitable) وهو لا يستهدف ابدا توزيع وسائل الحياة وحاجاتها بين جميع الافراد على قدم المساواة . والذي يقرا القرآن يتضح له وضوح الشمس في رابعة النهار أن هذا الكون الشاسع لا اثر فيه للتوزيع المتساوي في اية ناحية من نواحيه . والتوزيع المتساوي انما هو شيء تاباه الفطرة نفسها . واتساءل : هل منح جميع افراد البشر بنعمة الصحة على قدم المساواة ، هل أودع في جميع أفراد البشر مواهب الذكاء والفطانة على السواء ، هل يتساوى جميع الافراد في قوة الذاكرة ؟ هل جميع افراد البشر على مستوى بعينه في الجمال ، والقوة ، والكفاءة ؟ هل جميع البشر يفتحون عيونهم في الدنيا في ظروف الولادة بعينها ويجدون أوضاعا متساوية للعمل في الدنيا ؟ اذا لم توجد المساواة في جميع هذه النواحي التي اشرنا اليها فما معنى المساواة بين وسائل الانتاج أو بين توزيع الثروة ؟ هذا امر لا يستحيل من جهة الواقع فحسب ، بل لو فرض على المجتمع بطرق مفتعلة ينال الفشل المحتوم ، وتتمخض عنه العواقب الوخيمة والنتائج السيئة ، ولذلك ان الاسلام لا يقول بوجوب توزيع ادوات الانتاج والمنتوجات على قدم المساواة بل هو يقول بوجوب التوزيع على اساس العدل . ولتحقيق التوزيع العادل هو يضع طائفة من القواعد والالتزامات .

تمييز الحلال من الحرام :

القاعدة الاولى من هذه القواعد هي : ان الاسلام يميز بين الحلال والحرام في وسائل اكتساب الثروة والتماس . فالاسلام يخلي بين الفرد وبين جهده وكفاحه لاكتساب ما يعيش عليه بطريق حر ، ويعتبر كل ما يكتسب بعرق جبينه وكد يمينه ملكا مشروعا . هذا في جانب . وفي الجانب الآخر هو قيم حدود الحلال والحرام في طرق الكفاح الاقتصادي ايضا . وبموجب هذه القاعدة ان الفرد حر بمعنى الكلمة في اكتساب الرزق بطرق الحلال . ويجوز ان يكتسب رزقه بطرق الحلال كيفما يشاء وقدر ما يشاء . وهو مالك شرعي لما اكتسب من الثروة ، وليس لاحد حق في ان يسلبه ملكه المشروع أو يضع عليها حدودا من تلقاء نفسه . الا ان هذا الفرد لا يجوز له ان يكتسب ولو مثقال ذرة بطرق الحرام . بل هو يمنع من الاكتساب غير المشروع قسرا ، ولا يعتبر مالكا شرعيا لما ادخر من الثروة المكتسبة بالطرق غير المشروعة .

وسائل الاكتساب المحرمة :

اما وسائل الاكتساب التي حرمها الاسلام فهي: الخيانة ، والرشوة والارتشاء ، والاغتصاب ، والغبن في بيت المال ، والسرقة ، والتطفيف ، واعمال اشاعة

الفاحشة ، والبغاء ، وصناعة الخمر وما شابهه من المسكرات ، والربا ، والميسرة ، والازلام ، والرهان، وجميع أنواع البيع التي تقوم على الخدع والتدليس والاحتيال ، أو تقوم على الاكراه والاجبار ، أو التي تولد الاضطراب والخصام والمنازعة ، او التي تنافي العدل والمصلحة العامة . ان جميع هذه الطرق يقررها الاسلام طرقا محرمة من وجهة القانون . وعلاوة على ذلك فان الاسلام يحظر الاكتناز ويحارب جميع ضروب الاحتكار التي تفوت على عامة الناس فرص الانتفاع من الثروة ووسائل انتاجها بدون مبرر . وما عدا هذه الطرق المحرمة فكل ما اكتسبه الانسان من الثروة فهو حلال ، ومن حقه أن يستمتع هو نفسه بثروته المشروعة او ينقلها الى الآخرين عن طريق الهبة او الصدقة . كما من حقه أن تستثمرها لاكتساب المزيد من الثروة . وكذلك من حقه أن يترك منها ما يشاء لورثته من بعده . وليس هناك قيد من القيود يضع له حدا في اكتساب المزيد من الاموال بصورة مشروعة. بل ان امكن لرجل من الناس ان يصبح (المليونير) بطرق الحلال فالاسلام لا يمانع ذلك . وله ان يترقى في وسائل العيش الى ما يستطيع ، ويجمع من نعم الله ما يشاء ولكن بطرق الحلال والوسائل المشروعة . على ان ليس من السهل ان يصبح الانسان (المليونير) عن طرق الحلال الا النزر اليسير ممن اكرمه الله ونعمه بصورة استثنائية . وعلى كل فان الاسلام لا يكبل رجلا، كائنا من كان ، في كفاحه الاقتصادي ، بل يخلي بينه وبين اكتسابه الرزق وجمعه الاموال قدر ما يشاء ، ولا يلقي العراقيل في طريقه ابدا .

القيود والالتزامات :

والثروة التي يكتسبها الانسان بطرق الحلال يضع الاسلام القيود على كل صورة من صور الانتفاع منها . ومن صور الانتفاع مثلا ان ينفقها على نفسه . ويجيء الاسلام يضع من القيود والالتزامات على هذا النوع من الانتفاع ما يجنبه من الاضرار التي يمكن ان تصيبه اياه في اخلاقه أو تصيب المجتمع الذي يعيش فيه . والصورة الثانية للانتفاع من الثروة : أن يدخر الانسان منها القدر القليل او الكثير ، ويمتنع من توظيفه واستهلاكه . وهذا لا يحبه الاسلام . ومما يريده الاسلام هو ان كل ما يتوفر عند فرد من الافراد من الثروة ينبغي ان لا تتجمد بل تأخذ دورانها بين الناس. اما الثروة التي تجمدت فيجيء الاسلام بقانون الزكاة وينفذ عليها ليقتطع منها نصيبا بصورة حتمية في عون الطبقات المعوزة وفي وجوه الخدمات الاجتماعية . وستجدون في القرآن الكريم ان الاعمال التي يتوجه القرآن اليها بالزجر والتوبيخ منها طمع الانسان في جمع الكنوز فيقول القرآن : « ان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم » . وسببه ان الله تعالى لم يخلق انواع الثروة الا ليستمتع بها النوع البشري . ولا يحق لاحد أن يدخرها ، ويخفيها ، ويمسك بها . فلتكسب انت ما تريد بطرق الحلال . ولتنفق منه في حاجاتك الحقيقية ما تشاء ، ثم لتستثمر ما يتوفر لديك بعد ذلك في طرق الحلال ولهذا السبب نفسه يمنع الاسلام من الاحتكار. والاحتكار معناه ان تدخر الادوات الاستهلاكية عمدا حتى يقل نزولها الى السوق وترتفع اسعارها . وهذا العمل الشنيع حرام في القانون الاسلامي . ليس للانسان الا ان يزاول التجارة بدون اللجوء الى الاحتيال . واذا تملك بضاعة للبيع ، والسوق تطلبها فليس هناك من مبرر أن تمتنع عن بيعه . فالذي يمانع بيع الادوات الاستهلاكية احتيالا لتقليل نزولها في السوق ورفع اسعارها فهو ليس بتاجر بل هو لص طرار . ولاجل ذلك ينكر الاسلام انواعا غير مشروعة من الاحتكار ؛ لانها تحول بين الناس وبين انتفاعهم من وسائل الرزق . كما لا يبيح الاسلام تخصيص فرد من الافراد او طائفة من الطوائف او طبقة من الطبقات أو بيت من البيوتات بفرص معينة من الاكتساب ووسائله حيث اذا جاء غيرهم ينزل في هذه الحلبة يطرد او يمنع من ذلك . واذا كان هناك نوع من الاحتكار يبيحه الاسلام فليس الا النوع الذي لابد منه لتحقيق المصلحة الاجتماعية . والا، فان الاسلام يريد مبدئيا فتح باب كافة ميادين الكفاح والسعي في وجه جميع الناس وتوفير كافة الفرص لكل من يسعى سعيه فيها .

وهناك صورة ثالثة للانتفاع من الثروة وهي توظيف هذه الثروة في اكتساب المزيد من الثروة . وهذه الصورة من الانتفاع لا تجوز الا بالطرق التي احلها الاسلام لاكتساب الرزق . ولا يجوز استخدام الطرق المحرمة التي ذكرتها سالفا في توظيف الاموال واستثمارها .

حقوق الجماعة على الثروة الفردية :

وكذلك الاسلام يفرض حقوق الجماعة على الثروة الفردية بصور شتى تجدون بيانها في النصوص

الصريحة في القرآن . ومعنى ذلك ان المال الـــذي اكتسبه الفرد كماله عليه حق ، كذلك لذوى قرباه عليه حق . ومن مسؤولية كل فرد من افراد المجتمع أن يمد يده بالعون الى أقاربه الذين لا يجدون من وسائـل الحياة ما يغنيهم اذا يملك ما يفضل عن حاجته الحقيقية واذا كان شعب من الشعوب يستشعر كل افــراد الاسرة فيه هذه المسؤولية من المحتوم أن يتوفر ضمان الكثير من الاسر الفقيرة فيه بالعيش الكريـم ، ولا يتبقى الا الاسر القليلة التي تكون مفتقرة الى العون الخارجي . وتحقيقا لنفس المبدا نرى القرآن الكريـم يذكر — أول ما يذكر من حقوق العباد — حقـــوق الوالدين وذوي القربى . وعلى غرار ذلك فان القرآن يفرض على أموال الفرد حق من يعيشون بجواره . ومعنى ذلك أن يتكفل الافراد الذين انعم الله عليهم بمتاع الحياة الدنيا الافراد الذين ســاءت حالتهـــم الاقتصادية ويعوزهم ما يسدون به رمق حياتهـــم ، ويحتاجون من يمد اليهم يده بالعون في كل حي مـــن الاحياء وفي كل زقاق من الازقة ، وفي كل درب مـــن الدروب . وبعد القيام بهاتين المسؤوليتين يلقي الاسلام مسؤولية اخرى على عاتق كل رجل منعم بعيـــش رغيد وهي أن يعاضد ما وسعه كل سائل ومعدوم . وفي ذلك يقول الله عز وجل : « وفي اموالهم حق للسائل والمحروم » . والسائل هو الذي يأتيكم ويطلب منكم العون . وليس المراد من ذلك المتسولين الشحاذين الذين اتخذوا السؤال مهنة ومكسبا ، بل المراد منه رجل يعاني عوزا في واقع الامر ويسأل منكم العون المادي . وعندكم ما يفضل من حاجتكم تتمكنون به من عونـــه فاعلموا حينئذ أن له في اموالكم حقا مفروضا . امـــا المحروم فالمراد منه الرجل الذي جاءكم يسئل العون ، وهو لا يجد الرزق تماما او لا يجد ما يكفيه . وهـــذا الرجل ايضا له حق في اموالكم . وعلاوة على هـــذه الحقوق فان الاسلام يأمر المسلمين بالانفاق في سبيل الله على الوجه العام ، ويقيم لكل من المجتمع والدولة الحق في أموالهم . وهو يقصد من ذلك أن يكون كل فرد مسلم متحليا بصفات الجود ، والكرم ، والسخـــاء ، وسعة الصدر ، ويكون ذا حس انساني ، عطوفا ، ومحبا للخير ، ينفق ما وسعه بسعة صدره في وجوه الخير والبر والاحسان ، وفي كل ما يحتاج اليه دينـــه ومجتمعه ابتغاء لمرضاة الله لا بدافع من المـــآرب الشخصية . وهذه روح خلقية جليلة يريد الاسلام بعثها في كل فرد من الافراد المسلمين بوسائل التعليم والتربية وبايجاد الجو الاجتماعي للمجتمع الاسلامي ، ليضرب الفرد بسهمه في تحقيق السعادة الاجتماعية ، بطواعية قلبه لا بوسائل الاجبار والارغام .

الـــزكـــــاة :

وعلاوة على هذا الانفاق القائم على التطوع والاختيار هناك انفاق آخر جعله الاسلام فرضا مـــن الفروض . وهو الزكاة التي تؤخذ من الاموال المتجمعة ومن اموال التجارة ومن مختلف انواع العمل ، ومن المحصولات الزراعية ، ومن الماشية . تؤخذ الزكـــاة ليساند بها افراد المجتمع الذين تخلفوا في المجـــال الاقتصادي . ومثل هذين النوعين من الانفاق كمثل صلاة التطوع والصلاة المكتوبة . اما صلاة التطوع فلك الخيار في عدة ركعاتها وتحديد أوقاتها ما عدا الاوقــــات المنهى عنها ، أي قدر ما تريد من النمو الروحي وتبتغي من التقرب الى الله تعالى تصلي صلاة نافلة تطوعـــا واحتسابا . اما الصلاة المكتوبة فيلزم عليك اداؤها في اوقاتها وحسب ركعاتها . ولا خيار لك فيها . وكذلك الانفاق في سبيل الله : فانفاق نافل تنفقه عن رغبتك ، وانفاق فريضة من الله يجب عليك القيام بها اذا كنت تملك من الثروة ما يبلغ حد النصاب .

ولا يذهبن بكم الظن عن الزكاة انها ضريبة مـــن الضرائب . انها ليست بضريبة بل انها عبادة وركن هام من أركان الاسلام كركن الصلاة . وما بين الزكـــاة والضريبة ما بين السماء والارض . الضريبة تفرض على الانسان فرضا . وليس من الضروري أن يكون الرجل قبلها وقلبه مطمئن به راض عنه . كما لا ينظر احد الى الذين يضعون الضريبة ويفرضونها علـــى الناس بنظرة الاجلال والتكريم والتقديس . ولا يؤمن احد بكونهم على الحق في تقرير الضريبة بل يعتبـــر الانسان الضريبة ثقلا على عاتقه . فيستنكف منها ، ويلجأ الى آلاف الحيل للتهرب منها ، ويفتعل مبررات لعدم دفعها . ولا ينقص من كل ذلك ايمانه في قليل ولا كثير . كما ان الفرق المبدئي بين الزكاة والضريبة هو أن الضريبة تفرض لتغطية النفقات التي تصـــرف في سبيل الخدمات والمصالح التي تعود بالنفع على من يدفع الضريبة في النهاية . كما ان التصور الاساسي الذي يعمل وراء الضريبة هو أن التسهيلات التي تريدون من الحكومة توفيرها يلزم عليكم لاجل ذلك الاكتتاب النسبي من ثروتكم . والضريبة هي بحكم طبيعتها نوع من الاكتتاب الذي يؤخذ منكم قسرا ليصرف في الخدمات الاجتماعية التي توفرها الحكومة وتكونون انتم مـــن

المنتفعين بها ايضا . اما الزكاة فهي عبادة كما ان الصلاة من الشعائر التعبدية . وما وضعها مجلس نيابي او هيئة تشريعية . وانما قررها الذي خلق السموات والارض ، ويؤمن المسلم بكونه معبودا حقا . فالذي يريد المحافظة على ايمانه لا يحاول ابدا ان يتهرب من اداءها ، أو يحتال فيها . بل اذا لم يكن هنا قوة خارجية تحاسب عليه وتاخذ منه الزكاة فان المؤمن يحاسب بنفسه ما يجب عليه من الزكاة ، ويدفعها في وجوهها بدافع العقيدة وعن رضا قلبه . ثم ان الزكاة لا تؤخذ لتوفير الخدمات الاجتماعية التي انتم كذلك من المتمتعين بها ، بل ان الزكاة تخصص للذين حرموا من ان ينالوا نصيبهم من الرزق كليا او لم ينالوا كامل نصيبهم من توزيع الثروة . فاصبحوا يستحقون العون بصورة مؤقتة او دائمة . وعلى هذا فان الزكاة باعتبار حقيقتها وطبيعتها ومبادئها الرئيسية وروحها السامية وصورتها الظاهرة تختلف كل الاختلاف عن الضريبة . ان اموال الزكاة ليست لان تعبدوا منها الطرق والشوارع ، وتحفروا منها القنوات ، وتديروا منها اجهزة الدولة . بل انها فرضت عليكم لاداء حقوق المستحقين كما فرضت عليكم العبادات الاخرى . وهي ركن من اركان الاسلام الخمسة ، ولا تعود عليكم باية فائدة الا مرضاة الله والاجر منه يوم القيامة .

الارث :

ثم ان الاسلام وضع قانون الارث كذلك ، وهذا القانون يستهدف توزيع ما يترك الرجل بعد موته من الاموال قليلة كانت او كثيرة على اوسع ما يكون من النطاق ، وفق قاعدة محددة . فيستحق لما تركه أبواه وزوجه وأولاده قبل غيرهم ثم اخوته في الدرجة الثانية، ذوو الارحام في الدرجة الثالثة ، اذا كان الذي يورث، كلالة يرثه ابناء قومه وبنو جلدته وتضم أمواله الى بيت مال المسلمين .

طريق وسط :

هذه هي المبادىء التي قررها الاسلام لنظامنا الاقتصادي . ويجوز لكم أن تضعوا لكم ما تحبون من نظام اقتصادي في حدود هذه المبادىء . اما تقرير الاحكام التفصيلية والجزئيات فارجئت الينا في كل زمان ومكان وحسب الحاجات والظروف . والذي يجب علينا الالتزام به في كل حال من الاحوال هو ان لا نختار سبيل الاقتصاد الحر المطلق كالنظام الراسمالي ، ولا نختار سبيل تأميم وسائل الاقتصاد ووضعها تحت تصرف جماعي . بل علينا ان نضع نظاما اقتصاديا حرا يكون محدودا ببعض الحدود وملتزما ببعض القيود ، وتكون فيه أبواب السمو الخلقي للانسان مفتوحة ، ولا تمس فيه الحاجة ، في معظم الاحيان ، الى اجبار الفرد على خدمة المصالح الاجتماعية بقوة القانون ، ولا تنشأ فيه طبقات غير فطرية بطرق باطلة واسس هدامة ، ويخلق فيه جو التعاون والتعاضد والتعاطف بين الطبقات الفطرية بدل اثارة الصراع الطبقي فيها ، ويحرم فيه جميع طرق اكتساب الرزق التي حرمها الاسلام ، ويباح فيه جميع وسائل الاكتساب التي اباحها الاسلام ، ويعترف فيه بجميع حقوق الملكية التي اعطاها الله الفرد في أمواله المكتسبة بالطرق المشروعة ، وحقوق التصرف فيها . ويفرض فيه على الافراد الزكاة اجباريا فتوخذ من جميع الاغنياء الذين يملكون ما يبلغ حد النصاب ، ويقسم فيه ما يترك الفرد بعد موته من الاموال في ورثته ، ويمنح فيه الافراد الحرية الكاملة في العمل والكفاح واكتساب الرزق في حدود محدودة ، ولا يوضع فيه قانون يفرض على الافراد قيودا مرهقة ويلغي حريتهم الفردية ، وحين سلك الناس فيه من تلقاء انفسهم طريق العدل والنصفة والصدق فلا يتدخل القانون في أمورهم بدون ما حاجة . ولكنهم اذا لم يسلكوا هذا الطريق الاقوم : طريق العدل والصدق ، او تجاوزوا الحدود المشروعة ، أو مارسوا الاحتكار غير المناسب فلا جرم ان القانون يتدخل في شأنهم . لا لاجل ان يسلبهم حريتهم ، بل لاجل ان يقيمهم على العدل والقسط والصدق ويمنعهم من تخطي الحدود ، لتعود المياه الى مجاريها .

مكانة الارض والعمل والرأسمال والتنظيم في الاقتصاد الاسلامي :

هذا هو هو جوابي على الشطر الاول من السؤال الاول . وخذوا الآن الشطر الثاني من هذا السؤال الذي سئل فيه عن مكانة الارض والعمل والراسمال والتنظيم في نظام الاسلام الاقتصادي . واشير عليكم لمعرفة هذه المكانة ان تدرسوا قانون المزارعة والمضاربة في الفقه الاسلامي . اما علم الاقتصاد الحاضر فانه كما يذكر الارض والعمل والراسمال والتنظيم كعوامل اقتصادية لم يذكرها الفقهاء المتقدمون في كتبهم ولم يدونوا لها مؤلفات مستقلة . بل قد نوقشت جميع هذه المسائل في أبواب وفصول شتى في كتب الفقه ، كما أن مصطلحاتهم تختلف عن المصطلحات الحديثة التي يستعملها علم

الاقتصاد الحاضر . ولكن الذي لا يبعد المصطلحات بل يضطلع بموضوع الاقتصاد الرئيسي ومسائله المتشعبة يسهل عليه بدون تعب فهم ما صيغ في هذه اللغة الفقهية والاسلوب الفقهي من التصورات الاقتصادية . ان قانون المزارعة والمضاربة في الفقه الاسلامي يوضح كل الايضاح طراز تفكير الاسلام فيما يتعلق بمباحث الاراضي والعمل والراسمال والتنظيم ، فالمزارعة هي أن تكون الاراضي لرجل ، ويزرعها غيره ، وكلاهما ينتفع بمحصولها . والمضاربة هي ان يكون الراسمال لرجل ، ويثمرها غيره . وكلاهما يشارك فيما يعود بالربح . ان الاسلام في كلتا الصورتين من التعامل يعترف لمالك الاراضي والزارع ولصاحب المال والعامل بالحقوق المعلومة ، الامر الذي يفهم منه بكل وضوح ان الاسلام كما يعتبر الاراضي عاملا من عوامل الاقتصاد كذلك يعتبر سعي الانسان وجهده وكفاءته التنظيمية عاملا من عوامل الاقتصاد . ان جميع هذه العوامل تستحق المساهمة والمشاطرة في الارباح . والاسلام في مطلع الامر يرجيء تحديد نوعية المساهمة وقدرها بين هذه العوامل المختلفة الى العرف العام لان القانون لا يلجأ الى التدخل في شؤون الناس ان قام الناس انفسهم بالعدل والقسط فيما بينهم بالمعروف . اما اذا راى الاسلام ظهور التجانف وعدم تحقق العدل في امر من الامور فمن واجبه ان يبادر لتدارك الامر ويضع حدود العدل والقسط . واقول على سبيل المثال : ان لي ارضا واريد ان اعطيها لرجل على اساس المزارعة ، او اجعل رجلا يزرعها على اساس الجعالة ، او اعطيها احدا نظير الكراء اعقد معه شروطا التزامات مستوفيا جميع مقتضيات العدل والقسط ، وبالمعروف ، فلا حاجة للقانون أن يتدخل في هذه القضية . اما اذا اتبعت طريق الظلم والقساوة فيها فللقانون ان يتدخل فيها ، وله ان يضع قواعد وضوابط تلزمني وغيري من الناس على تقرير قضايا المزارعة بموجبها حتى لا يغمط لكل من مالك الاراضي والزراع حقه . وعلى غرار ذلك فانه ما دامت تتقرر المعاملات بين اصحاب راس المال وبين من يثمرها وينظمها ، على قواعد العدل والقسط ولا يلتجيء احد منهما الى وسائل الجور والظلم وغمط الحق فلا يتدخل القانون في شأنهم ابدا . نعم لو شوهد في تعاملهم ما ينافي العدل ويؤكد الجنف فان القانون لا يتدخل فيها فحسب ، بل يضع حدودا ويفرض قيودا لا تترك مجال الجنف والحيف والظلم في حق احد من المتعاملين .

هل يجوز توظيف أموال الزكاة في تنمية الزكاة:

وخذوا الآن السؤال الثاني اي هل يجوز توظيف اموال الزكاة والصدقة في المصالح الاقتصادية العامة ، ولكن الذي يجب ان تفهموه تماما هو : ان كان تصور المصالح الاقتصادية استخدام اموال الزكاة والصدقات في تنمية اقتصاد البلاد فهذا لا يجوز . لان الزكاة ، كما قلت لكم آنفا ، غرضها في الحقيقة توفير حاجات الحياة الضرورية لافراد المجتمع الذين لا يستطيعون اكتساب المعاش لانفسهم لسبب من الاسباب : كاليتامى والمقعدين ، وذوي العاهات ، او الذين عطلوا عن العمل لفترة مؤقتة ، او الذين لا يستطيعون اكتساب المعاش لقلة الوسائل ، وبامكانهم ان يقفوا على اقدامهم لو حصلوا على العون ، او الذين دارت عليهم الدائرة فضاعت اموالهم . فالزكاة قد شرعت لاجل الاخذ بيد هؤلاء الافراد . واذا اردتم التنمية الاقتصادية كتعبيد الطرق واقامة المصانع مثلا ان تبحثوا لذلك عن الوسائل الاخرى .

النظام الاقتصادي اللا ربوي :

والسؤال الثالث : هل يمكن لنا ان نقيم نظاما اقتصاديا لا ربويا . واقول ردا على ذلك : نعم بدون ما ريب ، ان النظام مثله كان قائما قرونا طويلة . ولا يتعذر قيامه في الوقت الحاضر كذلك اذا صحت عزيمتنا على اقامته وتخلصنا من التبعية العمياء لغيرنا . ويعلم كل من له المام بالتاريخ ان النظام الذي كان يسود جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام كان نظاما ربويا على غرار النظام الاقتصادي الحاضر ، فجاء الاسلام ، وقاب امره ، وحرم الربا . فكان الربا محرما في مطلع الامر في جزيرة العرب ثم امتدت حرمته مع امتداد رقعة الحكومة الاسلامية ، واصبح النظام الاقتصادي بشعبه طاهرا نقيا بدون ان تشوبه شائبة منه . وهذا النظام ساد الدنيا قرونا مديدة فكيف لا يمكن قيامه وتشكيله في الوقت الحاضر . ونحن لو نضطلع بكفاءة الاجتهاد والاستنباط ، ونتمتع بقوة العقيدة والايمان ، ونصمم على الغاء ما حرمه الله ، لا نعجز عن الغاء الربا وتسيير الشؤون المالية والاقتصادية بدونه . وقد تناولت هذه المسألة في كتابي (الربا) بالبحث المسهب . وذكرت ان اقامة النظام اللا ربوي ليست من الامور المعقدة التي استعصى على الانسان حلها . والمسألة في وضوح وبساطة متناهية . اي ليس من حق الراسمال ان يطلع في صورة القروض ويقرر لنفسه فائدة معينة بصرف

النظر عما اذا كان الذين يثمرونه وينظمون أمره كسبوا شيئا من الربح ام لا ؟ وهذا هو موطن الفساد فى الربا. ان الفرد او المنظمة تقرض الصناعة او الزراعة او التجارة قدرا من الراسمال ويقرر معها فائدتها المحددة سلفا . ولا يهمه بعد ذلك هل خسرت هذه المؤسسات ام ربحت ، وان ربحت فكم كان قدر الربح . وانما يهمه الحصول على الفائدة المحددة على راس كل سنة او على راس كل شهر حسب الاجل المقرر ، مضافا الى ما لها الحق فى استرجاع الراسمال الذي اقرضته بتمامه . وهذا هو الفساد الذي نحاول القضاء عليه . ولا تجدون رجلا عليه مسحة من العقل فى هذا العالم يبرر هذا التعامل . وبالعكس من ذلك ان الاسلام يقرر مبدا يقول بأنك اذا اقرضت احدا فاقرضه كقرض ولا تستحق الا استرجاع ما اقرضت . واذا اردت كسب الربح فعامل معه كشريك او سهيم . واستثمر راسمالك فيما شئت من الزراعة او التجارة او الصناعة ولكن بشرط أن أرباحه توزع بينك وبين صاحب العمل وفق نسبة عادلة . هذا مما يقتضيه العدل ومما ينمي الحياة الاقتصادية . وماذا عسى أن تكون هناك مشكلة او عقبة تحول دون الغاء التعامل الربوي واقامة التعامل غير الربوي مكانه . اذ لا تعدو المسألة ان المال الذي تثمره على اساس القرض ينبغي أن تثمر على اساس المشاركة فى الخسارة والربح . اما المحاسبة فكما تتم فى القضايا الربوية تتم كذلك فى قضايا المشاركة . وهذا امر لا صعوبة فيه ابدا . ومرد الامر فى الحقيقة هو اننا تنقصنا كفاءات الاجتهاد ، وتعودنا على التبعية العمياء لغيرنا . ولذلك ان النظام الذي وجدناه متبعا من السابق نتبعه جملة وتفصيلا ، ولا نحب ان نتعب أنفسنا لشق الطريق الجديد بالاجتهاد والبصيرة . يتهم (رجل الدين) المسكين بانه مقلد أعمى لا يسلك طريق الاجتهاد مع أن الذين يتهمونه هم انفسهم متوغلون فى التقليد الاعمى . ولا نلمس فيهم الاستعداد لمزاولة الاجتهاد ولولا يكون بهم هذا المرض لصارت المسألة منحلة الى ما قبل مدة ولعادت المياه الى مجاريها .

والسؤال الاخير هو هل هناك ترابط او انسجام بين نظم الاسلام الاقتصادية ونظمه السياسية والاجتماعية ونظمه الدينية ، واذا كان فمن أي نوع هذا ؟ وجوابي على هذا : بينهما ترابط كترابط أصل الشجرة مع دوحتها وترابط دوحتها مع فروعها وترابط فروعها من أوراقها . ليس هناك الا فى الحقيقة نظام واحد ينشأ من الايمان بوحدانية الله ورسالات رسله . منه يتولد النظام الخلقي ، ومنه يتشكل نظام الشعائر التعبدية الذي تعبرونه عن النظام الديني ، وعليه يتأسس النظام الاجتماعي ، ومنه يصدر النظام الاقتصادي . ان جميع هذه النظم تستلزم بعضها البعض الآخر . اذا كنتم تؤمنون بالله ورسوله وتصدقون كتاب الله فلا بد لكم من ان تتبعوا نفس المبادىء الخلقية التي علمها اياكم الاسلام ، ونفس المبادىء السياسية التي أعطاها اياكم الاسلام ، وأن تؤسسوا مجتمعكم على نفس الدعائم وان تسيروا اقتصادكم على نفس الطرق التي حددتها لكم عقيدة الاسلام ، ولابد لكم أن تبنوا تجاربكم على اساس نفس العقيدة التي تصلون الصلوات الخمس على مقتضاها ، ولابد لكم أن تلتزموا فى محاكمكم وفى اسواقكم بنفس الضابط الديني الذي يضبط امر صيامكم وحجكم . الاسلام ليس بدين يجعل نظمه منفصلة بعضها عن بعض . فلا يفصل نظامه الديني عن نظامه السياسي ونظامه الاقتصادي عن نظامه الاجتماعي . ان جميع هذه النظم شعب مختلفة واجزاء منوعة لنظام واحد تتماسك وتنسجم بعضها مع بعض ، وتغذي بعضها بعضا . اذا انعدمت عقيدة التوحيد والرسالة وانعدمت الاخلاق التي تنشأ من هذه العقيدة يستحيل أن يقوم نظام الاسلام الاقتصادي . واذا قام فيستحيل استمراره . وكذلك لا يمكن ان يقوم نظام الاسلام السياسي الا على العقيدة التي تعلن حاكمية الله العليا ، وتعلن كون رسول الله صلى الله عليه وسلم نائبا عنه فى الارض ، وتعلن كون القرآن امرا يجب اطاعته والخضوع له . اذن الخطأ كل الخطأ فى الفكرة التي تقول بان نظام الاسلام السياسي منفصل عن نظامه الاقتصادي أو نظامه الديني منفصل عن نظامه الخلقي حيث لا علاقة لبعضه مع البعض ان المسلم الذي يعلم الاسلام ويؤمن به من المحال ان يتصور فصل سياسته واقتصادته او اية شعبة من شعب حياته عن دينه وعقيدته ، او هو يعترف « بالحياة الاسلامية » التي يتبع فيها الاسلام فى حدود شؤونه الدينية فقط ، ويتحرر منه الاسلام فيما يتعلق بالسياسة والاقتصاد !

باكستان : أبو الاعلى المودودي

الدّعوة والدّعوى

للأستاذ عبد السلام الهراس

« ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين »
(قرآن كريم)

اصبح الشعور بالخطر سمة عامة مشتركة بين افراد مجتمعنا ، وتلك ظاهرة قد تبرز فى حياة المجتمعات فى فترات خاصة ، عندما يصبح المصير محفوفا بالخطر . وقد تضاعف هذا الشعور بما يسود العالم المتحضر من تمرد وفوضى واضطراب ، ولاضطرابنا الشديد بهذا العالم وسرعة استجابة اجيالنا الصاعدة لمؤثراته ، فان الدلائل والاعراض تدل على ان العدوى قد تسربت الينا ، اردنا ام لم نرد ، وما تزال تستفحل استفحالا يهدد بالانفجار من النوع الذى يدمر كل شيء ويثور على كل شيء ، لان الظروف النفسية التى تلابس اجيالنا الصاعدة والجو الآسن الذى يصدم مثاليتها ، مع اضطراب المناهج التربوية وانعدام القدة الصالحة ، مما يعمق التذمر ويشيع السخط ويدفع النفوس دفعا الى الانفجار . ويزيد فى خطوط هذا الانفجار المنتظر النكسة القظيعة التى اصيب بها العرب فى فلسطين بعد جيل من التعبئة « الايديولوجية » و « الثورات الفكرية » و « البعث العربي » الامر الذى ازاح عن العيون غشاوة طالما بذلت المجهودات لتثنيها ، وسخرت كل الامكانيات للسيطرة على التوجيه المنحرف عن الفكرة الاصيلة التى تستجيب ، بحق ، لمثالية هذه الاجيال ، فبدت الحقائق مكشوفة من كل زيف وبريئة من كل وهم واو خيال .

ولكن الباعث على ذلك الشعور يختلف من وسط الى آخر . ولذلك كان رد الفعل يتمثل فى مظاهر مختلفة ايضا ، مما يدفع اصحابه الى تقديم وصفات للعلاج متناقضة ، وان بعض هذه الوصفات يتجلى فيها الارتجال والسطحية و « نسخ » وصفات غربية اجنبية بأسلوب محلي، واعادة صياغة لفظية للوصفات السابقة عن النكسة ، والتى كانت من اسبابها البعيدة والقريبة . ومن « المفكرين » من « ادرك » ان خير السبل للانقاذ هو الاسلام والقيم الاسلامية !! ولكن اي نوع من الاسلام ؟ واي نوع من القيم الاسلامية ؟ ذلك ما لا نستطيع لمسه او تحديده من مجرد «الكلام» العائم الذى اصبح عرضا من اعراض المرض العضال الذى يعانيه العالم الاسلامي، وان كنا نستطيع ادراك كنه تلك القيم بوضوح وبدقة من خلال السلوك والتصرفات واطراد المواقف ، والحياة المعاشة مما ينتهي بنا الى ان نجد انفسنا امام «قيم» عجيبة لا تنتمي سوى الى منطق « الذات المريضة » التى هي من مظاهر التدهور الحضاري الذى اصاب الامة الاسلامية . وان من خصائص هذه «الذات المريضة» انها تفقد كل شعور يربطها بالجماعة ذلك الشعور الذى من شانه ان يبعثها على التجاوب معها والاستجابة لمصالحها واخضاع كل تصرف او امكانية او طاقة لخدمة اهدافها ، وهذا يعني انها تنقلب الى عامل تخريب وتهديم . وقد يتوفر لبعض هذه الذوات المريضة ذكاء قوي او متوسط فيحاول استكشاف اهداف تلك الجماعة التى يعيش وسطها ، ليحولها الى

بضاعة للاتجار بها في اسواق الدجل والتهريج على قدر ما يحقق اهدافه الفردانية ، دون ان يكون حديثه عنها معبرا عن شعور مخلص واحساس صادق ويدفعه بالتالي الى حركة حية تدل على ان وراءها فكرة وعقيدة (1). وان للامم فترات خطيرة من حياتها تبدو على مجتمعاتها المريضة هذه المظاهر المتعفنة التى تنعكس على هذه الذات التى تحاول ، احيانا ، ان تدرأ عن نفسها اي شبهة ، بشعارات او عنعنات دون ان يكون لها من الذكاء ما يشعرها بان الستار من زجاج شفاف !!

ان هؤلاء الذين اصبحوا يخشون من « المذاهب الهدامة» ويحذرون شباب العالم الاسلامي من الحضارة المادية المتدهورة ومن تعفن الغرب وروتينيته وصنميته ساهموا - وما يزالون - بشكل او بآخر فى تهيىء الظروف وتوفير المناخ لقابلية ذلك التأثر مما جعل السمة العامة لبعض الاوساط هو « التغرب » مضمونا وشكلا ، واصبحنا نشاهد تغييرا سريعا ومخيفا يقع سواء فى التصورات والافكار او فى العادات ، وبالتالي فى علاقات الافراد داخل اسرهم وخارجها ولكننا بذلك اضفنا الى امراضنا المزمنة امراضا جديدة يصعب معالجتها او استئصالها بمجرد ادانتها بالقول او التحذير منها فى المناسبات .

ولا نعتقد ان « الذات المريضة » تستطيع ان تكون مخلصة فى تشخيصها للمرض وفى قدرتها على التخلص من « العوائق » لتتبين فى وضوح معالم الطريق ، وعناصر العلاج ، لان فاقد الشيء لا يعطيه ، ولانها هي نفسها اصبحت تكون مرضا عضالا من امراض العالم الاسلامي !!

ويبدو انه من الاجحاف استبعاد اي نقطة التقاء بين الدعوة المخلصة ، والدعوة الجوفاء للاسلام . فوجوب العودة الى الاسلام فكرة او نقطة تتلاقى لديها هذه وتلك ولكن من الاجحاف والصعب ايضا العثور على نقطة اخرى تضاف الى هذه النقطة المشتركة ، فالدعوة الحق للاسلام ليس الدافع اليها نزوة عابرة او مواجهة طارئة او مجاملة لعواطف او دغدغة لآمال او غير ذلك من الدوافع التى تمليها ضغوط مفاجئة يكون دورها ، بالنسبة للذات المريضة ، التنبيه الراعي نحو البحث عما يصون شهواتها ويدفع عنها كل ما يعكر « واقعها » حتى اذا ما سولت لها نفسها بأن هذا «الواقع» لم يمس بأذى وان الاحوال لا تستدعي اي قلق ازاحت تلك «الافكار» من اهتمامها ، واستودعتها صناديقها كأنها موميات محنطة !! « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله » ، « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعدا او قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

وهؤلاء هم الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . اما الدعوة السليمة فدافعها ايمان راسخ بأن الاسلام هو الفكرة الوحيدة الكفيلة بتكويننا حضاريا وبعثنا من ركودنا ومدنا بعناصر القوة والتقدم والازدهار ، وهي الفكرة التى تتلاشى معها المظاهر المرضية التى تفتك بنا فتسلمنا للنكبات من حين لآخر ، ولذلك كانت هذه الفكرة هدفا محددا مقصودا فى حين ليست هدفا ولا قصدا عند الدعوة الجوفاء ، وهنا يبرز بجلاء ايضا الخلافات حتى فى مضمون تلك النقطة التى حاولنا ان نقيم حولها ملتقى الدعوتين ! وقد نفترض، اعتسافا، رغم ذلك ان « الاشتراك » موجود على كل حال فان اوجه الخلاف فى طبيعة الهدف والتصورات والوسائل ، والمقاصد شديدة الى حد لا تسمح بعقد اي صلة محترمة بين الدعوة والدعوى .

وان من الوفاء للحقيقة وللاسلام الكشف عن بعض الآثار الخطيرة لكل دعوة « اسلامية » لا تستمد تصوراتها من القرآن والسنة ، ولا تقيم دعائمها على الفكرة الشمولية للاسلام ، ولا تصدر عن دافع واع لتحقيق اهداف تستجيب لمطامح المسلمين ، وتكون منهم خير امة اخرجت للناس فى هذه الظروف العصيبة التى زعزعت ضعاف الايمان وبعض اقويائه بمستقبل امتهم . وعندما نقول «الاهداف» نعني مقاصد محددة، مخططة الوسائل ، مدروسة الاساليب ، مرسومة المراحل ، محاطة بضمانات مادية ومعنوية .

---

(1) ان نماذج هذه الذات كثيرة فى امة ، تمزقت شبكتها الاجتماعية ، وفقدت ثقافتها الاصيلة ، وهذه النماذج تلعب دورا خطيرا فى تعويق كل نهضة وفى تنفيذ المخططات الاستعمارية، وانك لتشاهد بعض «الاصوات» الاستعمارية ممن لهم لافتات علمية يتهافتون على « الاسلاميات » فى ظروف خاصة او بتوجيه خاص او لمنافع شخصية !!

وقد اطلقنا على هذا النوع من الدعوات اسم « دعوى » لانها مجردة من كل ما يرقى بها الى مستوى « الدعوة » او يسوغ لها الانتساب اليها . لان مقاييس الفكرة الاسلامية لا تنطبق عليها ، وان كان لهذه الدعوى آثار ونتائج خطيرة منها :

1 ـ تقديم الاسلام فى صور ومظاهر مشوهة
2 ـ تنويم العواطف وتخديرها
3 ـ تنفير الشباب من الاسلام ودفعه للبحث عما يحقق مثاليته فى مذاهب اخرى .

فالاسلام ليس فى حاجة الى من يتكلم عنه وانما الى ما يعيشه ويسلكه وفق تعاليمه ويطبق ثقافته ويقدم عنه نماذج حية تسير فى دنيا الناس وتعيش معهم قدوة واماما وكذلك كانت دعوة المؤمنين : « واجعلنا للمتقين اماما » ولم ينتشر الاسلام بالكلام، وانما باعطاء المثال الصالح ، والقدوة المؤمنة وباقتران العلم بالعمل ، ولذلك عندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله (ص) قالت : كان خلقه القرآن ، وكل حركة تنتسب للاسلام ليس خلقها القرآن فهي « دعوى » . « ومن احسن **قولا** ممن **دعا** الى الله **وعمل** صالحا وقال انني من المسلمين »

ثم ان بعض اولئك الذين يكتفون بالكلام والحديث دون القدوة والعمل ، لا يحسنون ـ مع الاسف ـ ذلك الحديث دفاعا او هجوما ، تفسيرا او شرحا وتاويلا مما يجعلهم يقومون بدور « المحامي المورط » بالنسبة للاسلام. وان فى الحديث عن الاسلام تعويضا عن العمل وتخديرا لكثير من المسلمين الذين يرون فى ذلك كفاية فيخيل اليهم ان الاسلام بخير وانهم غير مطالبين بجهاد الدعوة اليه بالوسائل التى يحددها هو نفسه ، وفى هذا العمل تجميد للطاقات وتخدير للنشاط وتبديد للشحنات فى الفراغ ، وفى نفس الوقت تتاح الفرص الثمينة للبدع والعادات المخالفة للاسلام لغزو الاسر الاسلامية وتغيير حياتها ومفاهيمها دون ان يكون لها من المقاييس السليمة ما يشعرها بمخالفة او زيغ .

وبالامس كان السيف اصدق انباء من الكتب ، وللمدفع كلمته الحاسمة التى تضع حدا بين الحق والباطل وتضع الاسماء على المسميات دون ان يكون للجانب الضعيف حول ولا ارادة سوى ان يستسلم « للقوي » اما اليوم فان «الفكرة» احتلت مقاما مرموقا واصبحت تقوم بدور رئيسي فى الغزو والاقناع والاحتلال والاستعمار والقيادة . وحيثما تفشل القوة تنجح « الفكرة » نجاحا مدهشا . ولهذا كانت المراكز الثقافية تحظى بميزانية ضخمة واهتمام قوي من طرف الدول الكبيرة وزبناء هذه المراكز هم الاطفال والشباب . وان الدول الغازية ، فكريا ، لتعزز مراكزها الثقافية هذه بوسائل متعددة لتطوق « الضحايا » تطويقا محكما .

والظاهرة المخيفة التى اصبحت سائدة وواضحة هي الادبار عن كل ما هو اسلامي، والاقبال على كل ما هو غربي (1) وان من اسباب هذا الاقبال وذاك الادبار الفراغ فى المجالات المختلفة التى يتقلب فيها شبابنا واطفالنا .

هذا الفراغ الذى لا يملؤه الا « الفكر الاسلامي » والا الدعوة الاسلامية التى لها من القدرة على مواجهة التحدي فى مجال الفكرة ما يحقق لها الفوز والظفر ، لان مثالية الشباب لن تجد بديلا عنها ؛ ولكنه ، اي الفراغ يظل خاليا الا من « الدعوى » التى تعكس بعض المظاهر التى لا تتوفر على ما يقنع الشباب بصلاحية الاسلام بل انها تعد مسؤولة بالنسبة لبعض هؤلاء الشباب عن نفوره من الدين ، حيث تصوره له فى غير اطاره الحقيقي ، ولذلك كان من الواجب على اولئك الذين يتحدثون عن الاسلام او يتظاهرون به على غير حقيقته ان يدعو الاسلام وشأنه حتى لا يكونوا فتنة لغيرهم « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا .. »

ان دعاوي «الاسلامية » كثيرة ، ولكن الدعوة الاسلامية اصبحت خافتة فى وقت يشعر العالم الاسلامي بأنه فى اشد الحاجة اليها ، وبخاصة بعد نكباته المتلاحقة التى كانت نتيجة حتمية لقيادة فكرية زائفة (2) .

الدكتور عبد السلام الهراس

(1) المراد الحضارة الغربية المتمثلة فى المعسكرين الغربي والشرقي معا

(2) فى مقال قادم سانشر عرضا وتحليلا لكتاب « مابعد النكبتين » وهو يتعلق بالنكبة الفكرية ببلاد المسلمين

الشخص في الاسلام :

المنزلة بين المنازل ..

للعميد محمد عزيز الحبابي

— 1 —

انسلاخ الثقافة الاسلامية عن تشخصنها

من السهل على الباحث ابراز المظاهر الايجابية لثقافة ما والذروة التي بلغتها ، اكثر من كشف جوانبها السلبية . والامر كان دائما على هذا النحو فيما يخص الثقافة الاسلامية ، فالدراسات التي اهتمت بعلاقات تلك الثقافة بالحضارة الانسانية ليس بالامكان احصاؤها ، غير انه من المستحيل ، الى حد ما ، العثور على تحليل موضوعي لتدهور تلك الثقافة (1) . حقا يتحدث الكثير من الباحثين عن « انحطاط العالم الاسلامي » ، غير انهم يغفلون الاسباب الحقيقية لذلك الانحطاط ، وكثيرا ما ينسبونها الى الاسلام في ذاته .

سنحاول، في هذا الفصل ، ان نبين الاسباب التي تبدو لنا ذات اهمية اساسية لفهم ذلك الانحطاط فارتباطا بالموضوع ، نضع هذه الاسئلة :

— ايجوز ، منطقيا ، ان نلقي مسؤولية الانحطاط على « الاسلام » بوصفه دينا ؟

— ام ان هذه المسؤولية خارجية عنه ، وقد تحملها باعتباره واقعا تاريخيا وثقافيا ؟

— الى اي مدى يمكن تحديد ما يتصل بالاسلام (كدين وكاجهزة فكرولوجية وتاريخية) وما يتصل بالمسلمين باعتبارهم كائنات بشرية تحيا في اطر تاريخية ، ومجتمعية وجغرافية ؟

على مثل هذه المشكلات يجب تركيز جهد البحث لكي يتسنى لنا ان نفهم ، بكيفية اعمق واشمل ، ليس انسلاخ الثقافة الاسلامية عن تشخصنها ، بل ايضا ، انفتاحها ومآلها ،حاليا ، من امكانيات .

* * *

سبق لنا ان تعرضنا لمسالة معارضة الاسلام القطعية لكل كنيسة ، كيفما كانت ، واستنتجنا من ذلك ان المعنى الاكثر دقة لـ « النزعة الانسانية » في الاسلام يتمثل في تلك المعارضة للاكليريكية . بيد اننا نجد ، على العكس من ذلك ، بعض المؤرخين الغربيين يعزون سقوط الثقافة الاسلامية الى انعدام « كهنوت تشريعي حي » اي كهنوت ينصب نفسه مشرعا في النطاق الزمني ، وفي الميدان الروحي كذلك .

ان المسلمين ينظرون للمسالة على نحو مختلف : فلو انهم تبنوا جهازا يمسك باليد الواحدة السلطتين، الزمنية والروحية ،لوقف حاجزا بينهم وبين الاله ،

(1) انظر كتابنا : « Du clos à l'ouvert » الدار البيضاء ، 1961 ، الحديث السادس .

ولما كان يمثل تقدما بالنسبة للاسلام ، بـل عقبـة حقيقية امامه . فعدم وجود الاكليريكية مصدر للحرية الشخصية ، ومنبع لامكانية « الاجتهاد » في الديـن والدنيا . حقا ، انها حرية ، ولكنها حرية بالنسبـة للذين يرغبون في بذل جهد للتفكير ، وللذين ينفقون العمل الضروري ليزدادوا معرفة بالقرآن والسنة .. فالاسلام يرفض اي جهـاز كنسي ، لان الامـر ، في نظره ، هو عدم امكان اي انسـان او اية جماعة ، مهما كانا ، تجسيد «سر المصير » و « التعالي » .

* * *

ان المؤلم، بالنسبة للثقافة الاسلاميـة ، هو ان الاجتهاد ، لم يحترم بصفة دائمة ، وعـلى الخصوص من طرف «فقهاء» نصبوا انفسهم ، بطريقة ما ، اوصياء على « التشريع » ، فكافحوا من اجل « التقليد » اي من اجل الاخلاص الاعمى للنصوص ، وهذا يعني انهم نبذوا التفكير ورفضوا كل جهد شخصي يرمـي الى التاويل ، والشرح وتكييف المعطيات التشريعية مـع مقتضيات التطورات المجتمعية .

لقد كان التقليد انتصـارا للـروح القطيعيـة ، فانتهى تفشي الاتجاه الشكلي والحرفـي علـى روح المبادهة والاجهاز على فكر النقد : **تجمـد الاجتـهاد ،** فقتلت النصوص الفكر (1) .

* * *

نظمت جامعات (بوردو) و(شيكاغو) تجمعا عالميا عن «تاريخ الحضارة الاسلامية» ، تلبية لمبادرة طيبة من الاستاذين (فون غرانبوم) Von Grunbum (من جامعة لوس انجلـس) و « روبير براشفيـك Robert Brunschvig (من السوربون) . لقـد كـان الموضوع الاساسي الذي دار حوله الجدال في تلـك الندوة ، هو : « الكلاسيكية والانحطاط الثقافي في تاريخ الاسلام » .

لا يتضمن الكتاب حلولا وانما يطرح المشـاكـل ، بشكل واسع ، مشتملا على شتى وجهات النظر ، فجاء دراسة غنية بالمحتوى والايحاءات ، دراسة لم تحـل اشكالا واحدا (وليس هذا ما أرادت التصـدي له) ولكنها وضحت المعطيات وفـتحت المجال لابحـاث اخرى مقبلة (2) .

* * *

تبدو الثقافة الاسلامية لكثيـر مـن الغربييـن المعاصرين وكأنها ترسم منحنى ، على الطريقة المعروفة لدى (اشبنجلر) و (توينبي و (سوروكين) في رؤاهم التشاؤمية والدائرية للتاريخ : تتقدم الانسانية لتبدأ من جديد ، فكأنها تدور في حلقة . هل هذه النظرية الخاملة التي تذكر بـ « العود الابدي » عند (نيتشه) تكفي لتفسير صعود الثقافة الاسلامية وانحدارها ؟ لا نعتقد ذلك ، لان هذه الثقافة تفتحت سيـرا مـع « تطور مؤتسن » (3) .

تأسست الثقافة الاسلامية بالفعل تحت تأثيـر عوامل شتى ، منها ما هو تابع من العالم العربي منذ القرنين الاول والثاني للهجرة (6 ـ 7 م) ومنها مـا يرجع لتأثيرات خارجية (الفـرس ، البيزنطيـون ، واتصالات مع التقاليد اليهودية ـ المسيحية ..) .

لقد كان هذا التفتح شديد السرعة لدرجة انه ما زال يثير تسـاؤلات ، وانه لمفاجاة حقيقية من التاريخ قل ما يجود بمثلها : صعود ثقافي لا يماثله في السرعة الا التدهور .

* * *

منذ القرن السـابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بدأ تدهور « الحضـارة الاسلامية » . والاسباب هي : الانغماس في الشكليات ، عبادة الماضي (العادة) مع رفض التجديد (فصار كل ابداع بدعة) . والمشكلـة الآن هي معرفة الى اي شيء يعزى هـذا الركـود والجمود الغريبان . ذلك كان هو الموضوع الاساسي لمناقشات تجمع (بوردو) الذي اشرنا اليه .

ذهب معظم المشـاركين الفضلاء الى ان اسبـاب هذا التدهور داخلية ، اي انهـا اتت مـن المجتمع

---

(1) اننا مستبشرون بالحركة الاجتهادية المعـاصرة ، برغم ما ينقصها احيانا من جدة ، انظر : علال الفاسي، مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها ، مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء .

(2) صدر في باريس كتاب يحتوي بحوث هذا التجمع، سنة 1957 تحت عنوان :

« Classicisme culturel dans l'histoire de l'Islam ». Paris, 1957, Ed. Besson

(3) نستعير هذا التعبير من جوليان هكسلي في كتابه:

« Splendeur et Misère de l'Orient », Paris, Arthaud, 1955

الاسلامي نفسه . يرى الاستاذ (لويس جاردي Louis Gardet) وهو عالم ذو اطلاع واسع في الاسلاميات ، ان اطر التفكير في المجتمعات الدينية ، سرعان ما اصبحت متصلبة لدرجة ان اي تقدم يمكنه بعدئذ ان يحطمها ، بله ان يصلحها ، ويرى كذلك ان انعدام وجود كهنوت تشريعي حي قد ساهم في حركة التجمد تلك . فالخليفة لا يتوفر ، مطلقا ، على السلطة الروحية : « انه الحاكم الزمني المكلف بأن يجعل القوانين السياسية ـ الدينية سائدة في الجماعة » (ص 99) .

اما الاستاذ (شارل بيلا Ch. Pellat) ، فبعد ان درس التدهور في النطاق الادبي ، ذهب الى ان الانحطاط حدث في القرن العاشر ، وكان مصدره الازدواج اللغوي : فمنذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر) غدت اللغة العربية لغة ميتة ، اذ اصبحت مجرد كليشيهات ، وحشو ، وصيغ جامدة .

ان هذه « الاسباب الداخلية » تطفو في الفراغ اذا لم ترتبط بـ « الاسباب الخارجية » ، نعني اذا لم نرجع تدهور الثقافة الاسلامية الى عوامل جغرافية ، والى وضع العالم الاسلامي في السياق العالمي للعصر . فبدون التعرض الى هذه العلاقات والتأثيرات ، لن نستطيع فهم التنظيم السياسي ، ولا بنيات الاقتصاد والمجتمع التي تمثل ، في آن واحد ، اسباب ونتائج التدهور الثقافي في تاريخ الاسلام .

نعم ، لم يعط تجمع (بوردو) الاهمية الاولى « للاسباب الخارجية » ، ولكنه لم يهملها : لقد انتبه اليها (جاردي) خلال دراسته (ص 93) ، كما اعطى تفسيرا جغرافيا A. Abel الاستاذ (ارمان ابيل (ص 210 ـ 213) ، وكذلك الاستاذ (كلود كاهن (C. Cahen الذي خصص كل عرضه لهذا الموضوع .

* * *

قلما تعرض الدارسون الى هذه العوامل البالغة الاهمية والتي لا ينبغي غض الطرف عنها . ان تفسيرا ينبني على ابراز الاسباب الخارجية يرضي المؤرخ الموضوعي الذي يلتزم بالبحث عن الحقيقة الا انه لا يحظى برضى ذلك « المؤرخ » المتحيز للاستعمار والذي ينصب نفسه مؤرخا لكي يبرر استغلال العالم الاسلامي .

حقا ، اذا كان الاسلام يحمل في ذاته جراثيم انهياره ، واذا كان مصابا بالعمى امام الواقع ، وبالعجز عن التطور ، فكيف تمكن ، منذ بدايته ، ان يساهم بكل سطوع وقوة ، في تفتح ثقافة جديدة وفي تجديد الحضارة الانسانية ؟ لقد كان عنوان تدخل الاستاذ (كلود كاهن) : « العوامل الاقتصادية والمجتمعية التي ادت الى الشلل الثقافي في الاسلام » (ص 195) ، وهذا العنوان يعطي مفتاح جواب على تساؤلنا .

* * *

لا يمكن ان يتجاهل مؤرخ الثقافة الاسلامية ان هذه الثقافة تميزت في القرون الاولى للهجرة بـ :

ـ المرونة والسلاسة ، الامر الذي جعل مباشرتها للحقائق التاريخية والمجتمعية اكثر ضمانة لحيويتها وانتشارها .

ـ الاساس المجتمعي الواسع .

بيد ان عوامل خارجية جديدة ، خصوصا منها عوامل اقتصادية ، انبثقت تحت التوازن . فاذا نظرنا للمسالة عن كثب ، بدا جليا في تاريخ العالم الاسلامي، كما يؤكد ذلك (الاستاذ كاهين) ، نوعا من التوازن بين « المنحنى الاقتصادي والمنحنى الثقافي » (ص 197) . ومع الزمن ، انحصرت هذه الثقافة بعد تجزئة الاسلام السياسية ، وبالتالي بعد تجزئته اللغوية : لقد كان هذا بداية لا مركزية الادارة واختلال البنيات المجتمعية . تبلورت اذ ذاك النزعات الاقليمية الشعوبية ، وتفككت الثقافة الاسلامية ، واخيرا : « ان تعدد اللغات ، في العالم الاسلامي ، حيث لم تعد اللغة العربية الفصحى ، في اغلب الاحوال ، سوى لغة مدرسية ، قد اضر بالاتصالات وتجلى في تخلف ثقافي . فالفارسيون لم يتمثلوا بكل التراث العربي ، كما ان الاتراك ، فيما بعد ، لم يهضموا لا التراث العربي ولا التراث الفارسي » (ص 200)

* * *

ذكرنا ، منذ حين ، ان معظم المشاركين في ندوة (بوردو) يعزون التدهور الثقافي الاسلامي الى اسباب نابعة من الاسلام ذاته . ان وجهة النظر هذه قابلة للمناقشة ، ولقد سبق لنا ان ناقشناها ، في مكان

آخر (1) فأبرزنا بعض الاسباب الخارجية التي ادت الى ذلك التقهقر .

من بين تلك الاسباب الخارجيـة ، **التصوف .** فبما ان مصدر التصوف غير اسلامي (2)، فقد غير الروح الاصلية للاسلام وغزا سائر بنياته . مع المتصوفين « المحترفين » بدا المسلمون يستسلمون لانواع شتى من القدرية العمياء (تواكل ، وطرقية ، واعتقاد في تفاهة الزمن وفي لا واقعية الكون ..) ، فكانت النتيجة هي الزهد في العالم .

ان انصراف الصوفية عن العالم الى حياة اشبه ما تكون بالرهبانية ، والانغمار في حياة الطرق والزوايا سارا في اتجاه معاد لكل تطور ثقافي ، او تقدم ، فاختلقوا عن قصد او غير قصد ، مع توجيهات القرآن والسنة. اذ ينبغي لنا ان لا ننسى ، كما يذكرنا بذلك الاستاذ (لويس جاردي) ، انه ليس للتصوف في الاسلام « سوى وضع هامشي بالنسبة للعلوم الدينية الرسمية » (ص 104) . وهل من غرابة في ذلك ؟.. ان معظم الافعال الصوفية غير اسلامية ، ان لم تكن في جل الاحيان ، ضد الاسلام . ولذلك قاومها كثير من المفكرين ، كالامام ابن تيمية الذي يصف التصوف بانه مجموعة من وساوس .

حقا ، « ان المؤمن لا يعيش منفصلا عن الآخرة (3) ولكن ، من الثابت ان الفكر الاسلامي ، يولي كذلك كامل اهتمامه للحياة الدنيوية ، يعمل على تنظيمها لتحترم فيها قوانين الله وحقوقه ، غير ان حقوق الله تتجاوب مع حقوق الناس ، كما يؤكده فقهاء الاسلام ، والمقصود هنا بـ « حقوق » ، ليس مجرد قيم تشريعية ، **بل التزام نحو الله لفائدة البشر .** فالايمان ، في الاسلام، ليس تأملا صرفا، انه **شهادة ،** اي اقرار بحقيقة الله وعمل ، بمعنى التزام ، نحو الوجود الكلي للانسان . **فالاقتراب من الخالق لا يتم الا بالالتزام « من » اجل «ومع» المخلوقات .**

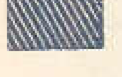
الرباط ـ محمد عزيز الحبابي

---

(1) انظر « Etudes Méditerranéennes », Paris, 5, 1959

(2) التصوف في المعنى المذهبي ، لا باعتباره تجربة روحية فردية .

(3) Louis Gardet : « Journal du Caire »



أصول العقائد في الإسلام وهدف التربية

للأستاذ عبد الكريم التوالي

يتفق علماء التربية المحدثون ، وعندما يأخذون في وضع حد منطقي للتربية ، على انها في مفهومها العام : مران ذهني ، وجسمي ، ونفسي في آن واحد، يستهدف جعل الانسان قادرا على كسب الرزق الحلال والعيش الارغد الشريف ، ضمن مجموعة تبادله نفس الشعور والعواطف ، ونفس الاهداف والمصائر .

او بتعبير آخر — والكلمات لزعيم التربية الامريكية الحديثة « ديوي » — هي الاعداد للحياة ، حتى لا يشعر المتخرج من المدرسة الحديثة بغرابة ما ، عندما يصطدم بالوقائع اليومية ، في بيته . وانما يجب ان يشعر بأن ليس هناك انقطاع عن المدرسة ومجتمعه » .

فالتربية اذن ، هي الطريق الوحيد لبلورة وعي المسؤولية لدى الفرد ، وانماء هذا الوعي ، وايجاده بوصفه الركيزة الاساسية لكل مجتمع انساني حي ، ينشد الحياة الحرة الكريمة لجميع خلاياه .

فهي والحالة تلك صادرة عن الفرد والجماعة ، ومنتهية اليهما ، وهادفة لمصلحتهما . ومن ثمة فهي ، اي التربية ، اساس قيام المجتمعات الواعية لدورها ، الفاهمة لمسؤولياتها والمقدرة لخطورة هذه المسؤوليات.

ومن هنا كانت مصلحة وغاية وزارة التربية الوطنية في كل الامم والبلدان التي بها مثل هذه الوزارة — (اذ هناك عدد غير قليل من الدول لا ترى ضرورة لاحداث وزارة خاصة بالتعليم والتربية ، تاركة امثال هذه الشؤون لمن هم اكثر اهتماما بها من الدولة واعني بهم الآباء والامهات — اقول : كانت مصلحة وزارة التربية الوطنية، تبغي وتنشد أولا وقبل كل شيء ، التربية والتوجيه والارشاد والتوعية لدور المواطن ، ورسالته تجاه نفسه واسرته ومجتمعه ، وتجاه الدولة والوطن اللذين هيآ له هذا النوع من التربية الهادفة بدورها لقيام استقرار وامن داخليين، ثم رفاهية وازدهار اقتصاديين ، ثم شعور بمسؤولية الفرد والجماعة أمام بعضهما البعض . (ومن اجل هذا .. اصطلحت دول كثيرة على اطلاق لفظ « التربية والتهذيب » على وزارات التعليم) .

والتربية بعد هذا وذاك ، في منطق المربين ، نوعان : تربية اسروية بيتية . وتربية تعليمية تعاهدية ان صح التعبير .

والنوعان معا في الحقيقة والامر الواقع يتكاملان، وان تكن آثار وتأثيرات التربية البيتية اكثر فوائد ، اذ هي الضمانة الوحيدة لقيام تربية تعاهدية ، من حيث انها (اي التربية البيتية) ، تنطلق من موطن الخلية الاولى للوجود الانساني المرئي والتي تعتبر ، في نظر كل الافراد انها بلغت حد الكمال ، وانها المثال النموذجي الذي يجب ان يحتذى ويتخذ مقياسا للتربية الصالحة ، ومعيارا لما ينبغي ان تهدف اليه ، ذلك لان الخلية الاولية ، اي الفرد ، ينظر الى ابويه

على اساس انهما المثال الحي الناضج لتربية نموذجية صالحـــة .

ومن ثم فاذا وجدت الاسر الواعية اليقظة ، فقد يكون لتوجيهاتها الاولى احسن النتائج ، واجـــزل العوائد ، على كل انواع التربية المقبلة . بل ستمهـد الاسرة من هذا النوع الطريق ، وتعبدهـا للذيـــن سيستلمـون الامانـة منهـا ، للمضـي بهـا نحـــو كمال التربية ، الذى هو الوعي التام ، والنضوج التام اللذين يعنيان بمعرفة دور الفرد فى العملية الضخمة التى تديرها طاحون الحياة .

ثم هذه التربية البيتية ذات المعطيات الايجابيـة ـ « ولكونها تربية طبعية الى اقصى حـد ، وبفضـل انها مرئية مسموعة ، ومشاهدة منذ نعومة الاظفار »ـ تستطيع ، والى ابعد الحدود ، ان تكيف وتبلـــور لا نفسية الفرد البسيط ، وانما ايضا اتجاهاته وميوله واهواءه ونزواته فى مستقبل الايام ، مما قد يصعب معه ايجاد مكان جديد لبذر آراء تربوية جديدة واقتلاع جذور التربية الاولى .

وهكذا نلمس ان الدور الذى تقـوم به التربيـة البيتية دور ايجابي وفعال وحاسم ، بخلاف الـدور الذى تقوم به التربية التعليمية ، او المدرسة ، اذ لا يعدو هذان الميدانان ان يكون عملهما عارضا ، او لا يمس الا السطح والظاهر ، دون ان يمس الاغوار ، او يسبر الاعماق . ومن هنا تكون النتائج المنتظـرة وراء هذه التربية التعليمية ، من الغلـو وعـدم الادراك ، وصفها بانها يمكن ان تكون حاسمة فعالة ان لم تعتمد على تربية بيتية سليمة .

وليس معنى هذا ان التربية التعليمية خلو مـــن كل فائدة او تأثير . لا ، لا . وانما على العكس من ذلك تستطيع ان تكون من عوامل البناء والاعداد ، اذا وجدت النيات الصالحة ، والبرامج الموحدة الهادفة، فان مناهج تعليمية من هذا النوع ، قد تعوض النقص الذى قد يكون فاشيا ، وقائما محسوسا فى التربية البيتية ، وخاصـة فى البيئـات المتخلفـة ، فكريـا واقتصاديا واجتماعيا مثل البيئة المغربية ـ مثـلا ـ التى كان اصابها الاستعمار فى الصميم، حين ابعدها عن اهم طاقاتها الزاخرة بالمعطيات ، واعني بها الدين ، عن طريق اقامة هذا العديد من الانـواع المختلفـــة للتعليم ، رجاء تشتيت آراء ابنائها ، وتبديد جهودهم، وتفكيك اواصر المحبة فيما بينهم .

فكانت هذه الاختلافات المنهجية والتوجيهية ، والتقديرات الخاطئة لطرق تقييم الحياة ، اعظم غـربة قاصمة لوجدوية الهدف والمصير والنضال التى كان يجب ان تدعم وتتوخى .

فمفهوم التربية فى العصر الحـديث ـ وهـو مفهوم واسع مطاط ، لما بنته بعد الى قاعدة قـارة ـ يشمل جميع مرافق الحياة، ما عظم منها او حقر ، وما جل او قل ، والى الدرجة التى اصبح معها اشبه بموسوعة متعددة متنوعـة ، فهي فى الوقت الـذى تعني فيه بتكوين المواطن الصالح لشغل جميع المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية ، تهتم كذلك بخلق وعي عام ، لدى هذا المواطن ، لتفهم مشاكل الانسان فى وطنه الضيق ، انطلاقـا مـن الاسـرة الخاصـة وحاجياتها وامكانياتها داخليا وخارجيا ، الى الاسرة الواسعة التى تشمل جميع الاناسي، والعمل على تمكين اولئك الاناسي من كل الادوات اللازمة لقيامهم بدورهم كاملا غير منقوص فى سبيل بناء الهرم الذى يجب ان يسمي الكل لتشييده واقامته صيانة لوحدة الانسان فى الهدف والمصير والصالح العام .

تلك هي مجمل النظرية الحديثة فى التربية . فما هي نظرية الاسلام من اصل التربية ؟ وما هو موقفه من هذه النظرية الحديثة ؟

يرى الاسلام ان التربية ، وفى كـل المجـالات : الاكلنيكية النظرية والتجريبية التطبيقية ، لا تهـدف فحسب لجعل التعليم والتثقيف مستمدا من المجتمع ، ومن واقعه اليومي ، او من خصوص حتمية المعاش ، والمستقبل الارضي ، اي كما يحـاول التربويـــون المحدثون ان يفهموا ويقرروا ، ولكن الاسلام يرى ان التربية هي هذه الحتمية المعاشيـة والمستقبـل ، مع شيء آخر هو اهم وآكد ، واعني به اعداد الفرد روحيا ، وتهيئة نفسه لتقبل الفكرة الاسلامية القائمة على ان كل شيء فى الحياة والارض والكون هو لله ، لا ان ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، اي ان الاسلام يرى ان هناك شيئا واحدا يجب ان يكون محـط التربيـة وهدفها وهذا الشيء هو : الانسـان المؤلف من المـادة والروح معا ، وان لا تقتصر فى مهمتها على خصوص ما يتصل بالارض والدنيا دون السماء والآخرة ثم هي بعد هذا ترى ان مصالح هذا الانسان يجب ان تحتفظ بتوازنها وتعادلها بحيث لا يطغى فيها احد العنصرين: اي المادة والروح ، على الآخر . وانما يجب ان يبقيا معا فى بوتقة امينة ، تخدم المصلحة الآنيـة الحاليـة ، والمصلحة الاخرية الآتية بدون ريب ولا شك .

ومن ثم ايضا فليس فى التربية الاسلامية ما يسمح بالزامية التخصص ، بحيث يقتصر عمل فريق من الناس على هذا الميدان ، بينما يقتصر الفريق المقابل على ميدان مخالف ، وانما يجب ان تعمل على تنمية المؤهلات والمدارك .

وهنا نؤكد باننا لا نوافق ابن خلدون فى حكمه على العلماء ، بانهم ابعد الناس عن السياسة وانما نقول على العكس من ذلك ، انهم اقدر الناس واولى الناس اهتماما ما بالسياسة ، وتقديرا لخطورتها ، ذلك لان الاسلام لا يعرف بين قطاعات خلاياه رجالا للدين ، ورجالا للدولة ـ كما هو الشان مثلا فى المسيحية ـ وانما الاسلام فى مفهومه العام والحقيقي، ينظر الى معتنقيه جميعهم ـ ولا اقول مجموعهم ـ نظرة المسؤولين عن كل شيء فى هذه الحياة. وينظر اليهم فى نفس الوقت نظرة المطالبين بفرض رقابة صارمة ودقيقة وواعية على كل الخلايا التى يتكون منها المجتمع الاسلامي .

ومن البديهي ان السياسة تتحكم الى ابعد الحدود فى توجيهات الناس والراي العام، وفى تقدير هذا الراي العام للامور ... فاذا تركت السياسة لاناس خاصين ، وقرر عدم السماح لغيرهم بالاشتغال بها ، فقد يفتري هؤلاء الاخصائيون ويفتاتون .

ومن هنا كانت التربية فى الاسلام ، تلح على ان يتوخى منها اولا وقبل كل شيء التوعية العامة ، واليقظة الدائمة من جميع المواطنين ، ولكل ما يحيط بهم من احداث وقضايا ، وفى مختلف المجالات والميادين ، سياسية واقتصادية واجتماعية وانسانية .

فالتربية فى الاسلام لا تعني فقط هذه الظواهر الخارجية مما اصطلح الناس كافة ، او علماء التربية خاصة ، على تسميته بعلم الاخلاق ، وانما تعني ـ وبالدرجة الاولى ـ السلوك الانساني كله ، ما دق منه او جل ، وما عظم منه او حقر .

والتربية فى الاسلام ، بالتالي ، تحتضن الفرد فى كل اطوار حياته ، ومراحل هذه الحياة ، من الطفولة الى اليفاعة ، ومن الفتوة والشباب الى الرجولة فالكهولة فالشيخوخة . ثم هي لا تختص بزمان دون اخر ، وانما تحيط بالفرد وزمانه ، فى يقظته ومنامه ، وفى سلمه وحربه ، وفى كل حركاته وسكناته .

ثم الاسلام فى مناهجه التربوي ، يصدر عن فكرة اساسية ، هي خلاصة اصول عقائده، هذه العقائد التى تنحصر خطوطها العريضة ، ونقاطها البارزة فى :

ا) الايمان بالله

ب) الايمان بملائكته وكتبه ورسله وانبيائه .

ج) الايمان بالحياة الاخرى .

د) الايمان ـ مع التقيد ـ بشعيرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هـ) واخيرا الايمان بالانسان ، هذا المخلوق الذى كرمه الله ، وكان محط عنايته ومجال رسالته .

والى تلك الشمائل والخطوط العامة تشير هذه الآيات القرآنية : (الم ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين ، الذين يومنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يومنون بما انزل اليك، وما انزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون) (يا يها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا) .

فاس ـ عبد الكريم التواتي

الإسلام يزحف بقوته الذاتية في قلب إفريقية وجنوب شرق آسيا

للأستاذ أنور الجندي

« 3 »

من الظواهر التى ما زالت موضع رصد المراقبين السياسيين والباحثين والمؤرخين ، ظاهرة زحف الاسلام بقوته الذاتية فى منطقتين من اخطر مناطق العالم هما : قلب افريقيا وجنوب شرق آسيا فى مواجهة حملات عنيفة من قوى التبشير ومراكزه ونفوذ الحكومات الغربية الكبرى . ومن عجب ان يتسع نطاق الاسلام فى هذه المناطق بالرغم من نقص وسائل الدعوة ومواردها ، حيث يصمد لهذه الحركة عدد من التجار والحجاج والعلماء الذين يرتادون هذه المناطق وهم لا يملكون الا اقواتهم المحدودة ، ومواردهم القليلة . ولقد سجل الاسلام على طول تاريخه كله هذه الظاهرة من التحدي ورد الفعل ، واذا بدا هذا العمل واسعا وقويا منذ اوائل هذا القرن بعد ان اتسعت اعمال الارساليات المختلفة وغزت كل صقع من اصقاع البلاد الوثنية فى افريقيا وجنوب شرق آسيا ، فقد كان الاسلام دائما حيث تظهر قوة تحاول ان تقضي عليه ما يلبث ان يتجدد ويتسع ويكسب ارضا جديدة ، وحيث تبدو علامات الضعف فى وجوه من وحداته ، تظهر علامات البعث واليقظة فى وحدة اخرى ، فلا يسقط اللواء ابدا ، وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا ابان الغزو الصليبي والغزو التتري ، كما ظهر حين بدات القوة الاسلامية العثمانية آخذة فى الضعف اذ بدات تحل محلها يقظة اسلامية عارمة ، وحيث يواجه الاسلام فى هذه المرحلة غزوا غربيا جديدا يسيطر على مقدرات عالم الاسلام فى الهند وارخبيل الملايو والعالم العربي ، يندفع الاسلام الى مناطق اخرى فى افريقيا وجنوب شرق آسيا .

فى افريقيا :

بدا الاسلام توسعاته فى افريقيا باعتناق البربر اهل المغرب الاصليين للاسلام وكان عقبة بن نافع قد بلغ راحة الكوار فى الجنوب ، حيث اكد له سكانها انه لا يوجد بشر جنوب منطقتهم ، فلما نزحت جماعة من العرب والبربر الى جهة بحيرة تشاد فى القرن الثاني الهجري ـ حيث مفترق طرق الصحراء ـ نتج عن ذلك الاتصال الاول فى الصحراء بين العرب والمسلمين ، دين السودانيين ، اعتناق عدد من ملوكهم الاسلام وتأسس عدد من الممالك المزدهرة : كانم ، سنراي غانا ، وتوالى اعتناق الملوك الافارقة للاسلام مع المبادلات التجارية بين غانا والمغرب الاقصى على ايدي قبائل الطوارق، ولم يلبث هؤلاء الملوك ان جلبوا عددا من العلماء والفقهاء ليعلموا شعوبهم اصول الاسلام وتوالى تأسيس الرباطات التى اسفرت من بعد عن ظهور « المرابطين » فى القرن السادس الهجري بعد ان انتشر الاسلام فى قبائل صنهاجة فأسسوا مملكتهم الاسلامية الممتدة من اسبانيا الى السينغال ويرى المؤرخون ان ظهور المرابطين كان بعيد الاثر فى انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمة جذبت

عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الامة الاسلامية وقد ظهر فى مستهل القرن الخامس (عبد الله بن ياسين) المعلم التقي الذى اكتشفه يحيى ابن ابراهيم شيخ قبيلة صنهاجة وكان مقدمة للنهضة الضخمة التى قادها من بعد «يوسف بن تاشفين» فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام فى مختلف انحاء قطاعات افريقيا التى تعرف بالسودان ، وقد بنى رباطا فى جزيرة نهر السينغال حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم الف شخص ثم دفعهم الى قبائلهم وعشائرهم، ثم زاول الدعوة فى القبائل المجاورة واستطاعت حركة (عبد الله بن ياسين) ان تحقق توسعا فى قلب افريقيا حيث اسلمت قبائل كبيرة من البربر الوثنية دفعت دولة المرابطين الاسلامية بقوة بين رعايا امبراطورية غانا الافريقية الوثنية الكبرى التى امتدت رقعتها فشملت مناجم الذهب فى السينغال الاعلى ، وفى القرن السابع الهجري (13 م) كانت تمبكتو مركز الثقافة الاسلامية ، ثم اصاب التوسع دفعة جديدة عندما تأسست دول سوكوتو) واخضعت اغلبية السودان الغربي لها بمساعدة الاخوة الصوفية المراكشية مريدي الطريقة التيجانية . ثم كانت حركة الموحدين امتدادا لحركة المرابطين من حيث جذبت الى الاسلام قبائل اخرى كانت بعيدة عن الاسلام ، وقد استطاع المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ان يكسب الاسلام قوة ضخمة عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية وشرح قواعد الاسلام وامر بالاذان بها .

وفى السودان الاوسط على محاذاة بحيرة تشاد دخل الاسلام فى اوائل القرن الخامس الهجري (11 م) اما السودان الشرقي المتاخم لحدود مصر الجنوبية فقد ظل على نصرانية مدة طويلة بعد ان اصبحت مصر ولاية اسلامية فى القرن الاول بعد الهجرة، وفى القرن السابع الهجري (13 م) اعتنق النصارى والوثنيون من اهل الاسلام دين الاسلام على اقتناع ، ونتيجة لنزوح قبائل عديدة من المسلمين والعرب عن مصر وقد دعى البيت الحاكم فى السودان الشرقي « الفرنج » فى القرن 12 ـ 18 هـ ثم اتسع نطاق الاسلام فى افريقية الغربية على ايدي الملوك والتجار وبواسطة الحج الى مكة ، واستعلام العلماء وادخال اللغة العربية والقرآن ؛ ومن ابرز الملوك فى هذا المجال كنكان موسى اعظم ملوك مالي واسيكا محمد .

وفى القرن الثالث عشر (19 م) نشط الاسلام بعد فترة ركود استمرت ثلاثة قرون وتأسست عدة امبراطوريات اسلامية بافريقية الغربية ومن اهمها امبراطورية عثمان دان فوديو ، وامبراطورية ماسينا وعلى راسها الشيخ احمد ، وامبراطورية الحاج عمر وقد جاهدوا جميعا لادخال افواج كبيرة من الوثنيين فى الاسلام ، ثم ظهر « ساموري »فى مالي فقاوم توغل الاستعمار الفرنسي وحارب الغزو الاجنبي 1891 ـ 1896 م .

وفى عهد الناصر ابن قلاوون (741 هـ) اسلم ملك دنقلة فانتشر الاسلام بين سكان البلاد من المسيحيين على ايدي التجار .

ودخل الاسلام الحبشة عام 702 هـ ثم توسع فى القرن الحادي عشر حتى بلغ المسلمون ثلث سكان البلاد .

ومنذ اعتنق الاسلام نصارى النوبة دخله السينغاليون والسواحليون وقبائل الصحراء ثم ازداد انتشاره فى السودان حيث اسست ممالك اسلامية قوية .

وفى القرن الحادي عشر الهجري نهض الاسلام نهضة قوية على ايدي الدعاة ومشايخ الطرق ، وكانت الدعاية المسيحية الكاثوليكية والبروتستانية قد نشطت فى افريقيا اواخر القرن الثاني عشر الهجري (18 م) غير ان الاسلام اندفع بقوة ، من ابواب الزوايا الصوفية فى المغرب وبلاد فارس ومراكش واخترق بلاد الادار بجبهة السينغال وكانت زوايا اتباع الشيخ عبد القادر الجيلي فى تمبكتو وزوايا التيجانية (احمد بن محمد التيجاني) (728) التى اتسمت حول مجرى نهر النيجر وزوايا السنوسية (محمد بن علي السنوسي) فى الجنوب (17) وغدامس متجهة نحو بحيرة تشاد ومن اهم مراكزها وادي وبورنو . ومن خريجي الازهر امتد خط آخر الى كردفان ثم الى اوغندا ، وكان لتجار المسلمين الذين كانوا يقطنون المسافات بين مصر وطرابلس ودارفور اثر كبير ، وكان اقوى نفوذ للتجار الذين يذهبون من زنجبار الى اقليم البحيرات الكبرى ثم عبر نهر الكونغو الى بلاد البانتو، او من ساحل افريقيا الشرقي داخل البلاد الى مدغشقر .

وتبدو صورة التوسع الاسلامي فى قلب افريقيا فى اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع

الهجري برسمها كابتن تيلر في تقريره الذي القاه في مؤتمر الكنيسة الانجليزية (1887 م) والذي نشرته جريدة التيمس 7 — 10 — 1887 يقول : ان الاسلام اليوم يمتد من مراكش الى يافا ، ومن زنجبار الى الصين ، ويخطو في داخل افريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه امم كثيرة وقد خطى بنفسه وثبت اقدامه في الكونغو وزامبيزي واصبحت اوغندا — اقوى البلاد السودانية واشدها باسا — اسلامية باجمعها ، اما في الهند فان التمدن الغربي الذي يهدم اركان الوثنية قائما يمهد لطريق الدين الاسلامي لا غير ، وسكان افريقيا باجمعهم اكثر من النصف منهم مسلمون ، وليس هذا باول تقدم للاسلام يلزم بيانه ، والبحث عن سرعة انتشاره ، بل هو عدم الخلط والخليط في اصوله وتبيان ، الامر الذي جعل له مكانا ثابتا في قلوب اهله وكل من يدين به ، اجل : فقد اعتنق الاسلام امة بحذافيرها في افريقيا صفقة واحدة ، ولم ترتد الى الوثنية قط ، والاسلام افاد التمدن اكثر من اي دين آخر ، فقد نشر راية المساواة والاخوة ، وهذه الادلة تذكرها نقلا عن تقارير الموظفين من الانجليز ، هذه النتائج التي تنتج عن الاسلام ، فانه عندما تدين به امة من الامم السودانية (الافريقية) تختفي من بينها في الحال عبادة الاوثان، وتحرم اكل لحم الانسان، وقتل الاولاد، ووأد الاطفال ، وتبعد عن الكهانة وتاخذ اهلها باسباب الاصلاح وحب الطهارة ويصبح عندهم كرم الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الامور الممنوعة ولعب الميسر والازلام محرمة ، والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطا دون تمييز منعدمة ، وتصبح عفة المرأة عندهم من الفضائل ، فالاسلام هو الذي يعم النظافات ويقمع النفس عن الهوى ويحرم اراقة الدماء والقسوة بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة عن ذلك فالاسلام عفيف بالكلية عن الشركات الدينية التجارية ، وقد غني عنها بالمرة ، والتجارة الاوربية تسهل وسائل المسكرات وتسوم الشعوب خسفا ، واذلالا ، والاسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وعزة النفس .

ويكشف الرحالة جوزف تومسون في تقرير له نشرته التيمس 14 — 11 — 1887 جوانب اخرى من حركة انتشار الاسلام ذاتيا في افريقيا فيقول :

اذا بلغنا غربي افريقيا والسودان الاوسط نجد الاسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والاقدام ، كما كان في ايامه الاولى ، فترى الناس تدخل فيه افواجا افواجا، وتقبل عليه باقبال عجيب ، شبه بايامه السالفة ، نرى فيه اشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون ، واخذه في انارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت اعظم فتوحات الاسلام في اواسط السودان وغربه ، كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفضي الجناح ، وفي الازمان الحاضرة كان القائم بامره تاجرا ذا همة واقدام يدعى (هواذا اوثوبية) كان ذاك الراعي يجهد نفسه نشر لواء ديانته من بحيرة تشاد الى الاقيانوس الاطلانتيكي ، ونتج عن ذلك ان اشرقت شمس الاسلام في سماء هذه الجهة باجمعها، وظهرت في اواخر القرن الماضي عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم الا رئيس يحمي ذمارهم ، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض الله لهم في بدء هذا الجيل رجلا يسمونه (فودبو) لم يمض غير زمن قليل حتى ساد الاسلام وامتد جناح سلطانه بسرعة غريبة في بلاد شاسعة واسعة وانتشرت سلطته على القبائل المتبربرة فاصابت فوزا عظيما .

ان زعيم الاسلام في هذه السنوات هو التاجر السوداني (الافريقي) الذي كان يعتمد في مهمته على تقواه ، ويستعين بها على اعماله ، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة عن بلده ويختلط بالوثنيين المتبربرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم في طعام واحد ، وكان اينما حل أو سار لا يألو جهدا في توسيع نطاق ديانته واظهار مزاياها الخالية من الالتباس ، والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة ان الفرائض والسنن التي يقض بها لا يتيسر فهمها على اخيه الوثني ولا تخرج عن قوة ادراكه ؛ هذا التاجر كان يقيم تارة معهم شهرا وطورا ستة اشهر او سنة وفي خلال هذه المدة تراه موضع التعجب والاستحسان لنظافة ملابسه ولذلك ينكب الناس الذين حوله على تقليده واتباع طريقه وليس في ديانته شيء يشكل عليهم معرفته ، وعلى هذا انغرست بذور المدنية في عدة قبائل همجية ونما الاسلام بينها نموا هائلا الى حد رن فيه صدى هذه البلاد وملأ الآفاق .

وما زال الاسلام يشق طريقه في قلب القارة الافريقية بالرغم من القوى المضادة التي تحمل لواءها هيئات التبشير باعتماداتها الضخمة وبقواها السياسية والعسكرية وترجع اسباب تفوق الاسلام الى انه اكثر بساطة ، وابعد عن التعقيد من الاديان الاخرى ، فهو خلو من الاسرار المذهبية او تعذيب الضمير ، فالاعتقاد

بالله واحد وبمحمد نبيا هما الشرطان الاساسيان فى الاسلام ، فضلا عن ان الاسلام يجيز تعدد الزوجات واقتناء العبيد والجواري وهو من هذه الناحية ملائما للنفسية الافريقية ، كما اقترن الاسلام فى افريقيا بمقاومة الاستعمار وشجب التميز العنصري،

يقول نعيم قداح : ان الاستعمار فى غرب افريقيا كان نهاية للحقبة المزدهرة التى توهجت فيها الثقافة الاسلامية فى ظل الدولة الاسلامية التى قامت فى تلك الاصقاع ، وقد التهمت نيران جيوش الاستعمار فى مدن افريقيا الغربية كثيرا من المدارس والمكتبات واتى المستعمر على كل اثر علمي عندما قطع التيار الحضاري العربي الاسلامي القادم من شمال افريقيا ومصر ، ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للافريقيين بصورة عامة ، وجد كثير منهم ان الاسلام هو الذى سيخلصهم من ظلم المستعمرين ، ولذلك تضاعف عدد معتنقيه فى مدى نصف قرن ، واقترنت الدعوة للدين الحنيف بمجهود فردي لاعادة امجاد الثقافة العربية الاسلامية، وقد بدا الاستعمار الفرنسي فى غرب افريقيا منذ سنة 1274 هـ ـ 1857 م يقضي على الاسلام واللغة العربية ، فهو لم يحاصر اللغة العربية فى شمال افريقيا والجزائر وحدها بل حاصرها ايضا فى قلب افريقيا ، فانقرضت المدارس الاسلامية عند ما عادوا الى بلادهم، غير ان المستعمرين سرقوا الكتب الاسلامية ونقلوها الى بلادهم واغلقوا المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين بينما توسعت مدارس التبشير والاستعمار ، على الرغم من ازدياد عدد الذين اعتنقوا الاسلام فى تلك الفترة ، وتضخم بصورة واضحة .

وفى المناطق التى احتلها الانجليز حالوا بصورة عامة بين المسلمين والتعليم ، اذ كانوا يشترطون على المسلم ان يغير اسمه الى اسم (لاتيني) ويشترطون حضور الصلوات الكنيسية ودراسة التاريخ الاستعماري ، ووجد المسلمون أن امامهم طريقتان : اما ان يعمدوا الى تغيير دياناتهم ليدخلوا مدارس المتعمرين ، واما ان يحتالوا على المستعمرين ليتعلموا ثم يعودوا الى دينهم ، بعد ان تشبعوا بآراء وتوجيهات الاستعماريين .

وقد صور توماس ارنولد انتشار الاسلام فى افريقيا فقال : كانت الاساليب السليمة هي الطابع الغالب على نشر الدعوة الاسلامية فى افريقيا ، كان التاجر المسلم عربيا كان ام افريقيا يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، حتى اذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الانظار بكثرة وضوئه وانتظام اوقات الصلاة والعبادة التى يبدو فيها كانه يخاطب كائنا خفيا وما يتحلى به هذا الرجل من سمو عقلي وخلقي كان يفرض احترامه وثقة الاهالي الوثنيين به» .

ويندهش المؤرخون والباحثون من ان الاسلام قد انتشر بصورة ضخمة فى افريقيا فى نفس الوقت الذى وطد الاستعمار اقدامه فى قلب افريقيا ومضى ينشر حملات التبشير والشبهات حول كل ما هو اسلامي ، وبالرغم من ذلك فقد واصل الاسلام فتوحه وكان للصوفية وابناء القارة الهندية من التجار المسلمين الذين هاجروا الى افريقيا دور فعال .

ويرجع ذلك الى بساطة الاسلام وسماحته ، وقدرته على ملاقاة الفطرة او التقاليد او العادات المحلية دون ان يصادمها ، وهو ما اطلق عليه بعض الباحثين « الاندماج » او « الامتزاج الصحي » وقد كان لمبدا « المساواة » بحسبانه المبدا الاساسي فى الاسلام اثر مباشر وعملي فى ترحيب شعوب افريقيا به والمسارعة الى اعتناقه ، وابرز ما يتسم به فى نظر الافريقيين هو ان الذين يتحولون الى الاسلام يعطون نفس الحقوق التى يتمتع بها اي عضو آخر فى المجتمع الاسلامي حتى قيادة الجيوش وتولى اعظم مناصب الحكم .

ويرجع « هوبيرديشان »: العامل الاهم فى انتشار الاسلام بين قبائل الزنوج فى افريقيا الى نشاط الدعاة من ارباب الطرق الصوفية « فقد وجد فيه الزنوج الطمانينة بفضل نظامه الاجتماعي ، وما يتمتعون فى ظله من يسر وامان فى اسفارهم للتجارة » ويركز على ان انتشار الاسلام تم بمجهود الطرق « القادرية » التى نشأت فى العراق وتوسعت فى جنوب افريقيا والسينغال ، و « التجانية » فى فاس ، وتتميز بشدة مقاومتها للوثنيين ، وقد كان للحركة « الاحمدية » دورها فى نشر الاسلام فى افريقيا ، كما كان للمرابطين المغاربة ـ واغلبهم من اتباع الطريقة القادرية والتجانية ـ دورهم فى نشر الاسلام ومد نشاطه من السينغال الى غينيا والسودان حتى سواحل العاج ومستعمرة النيجر .

ويرجع ذلك فى نظر «هوبير ديشان» الى ان الاسلام دين فطرة سهل التناول لا تعقيد فيه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ويقول : لقد بدل الاسلام مظاهر البقاع التى دخلها واشاع

النظافة التى يتميز بها المسلم عن بقية النـــاس « لباس فضفاض » و « تحريم لحم الخنزير » ويتسم الاسلام فى افريقيا بطابع صوفي ، وربما اختلطت به بعض العادات الوثنية التى لا تزال باقية .

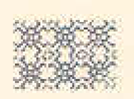
ولعل ابرز اثر للاسلام فى افريقيا اختفاء اقبح الرذائل وهى اكل لحوم البشر وتقديم الانســـان قربانا وواد الاطفال احياء ، لقد حول الاسلام المراة الى لابسين ، والذين لم يغتسلوا قط الى الطهارة ، واعان على اندماج القبائل فاصبحت امما ، وفتح باب ازدياد المعرفة والثقافة ، وقد امر الاســـلام الافريقيين بالنشاط والعــزة والاعتماد على النفس وقضى على الحروب الصليبية .

ولعل ابرز ما اعان على انتشـار الاسلام فـى افريقيا ماصوره احد الباحثين الاجانب حين قال : انه من السهل على الزنجي ان يصير مسلما ، فيكفيه أن ينطق بشهادة لا اله الا الله وان محمدا رسول الله لينغمر حينئذ فى مجموعة اجتماعية هائلة وسلسلة من تعاضد على مسافة الآلاف الكبيرة من الكيلومترات، وان الزنجي المسلم سيجد عند اخيه فى الدين دائما الطعام والحصير للنوم .

هذا بالاضافة الى روحه التحريرية للفـــرد والجماعة ، وقد حاول الاستعمار ضرب حركة انتشار الاسلام باثارة الشبهات حوله واتهامه بانه قائم على مفهوم الغيبيات والتواكل ، غير ان اندفـــاع الاسلام بهذه الصورة بالرغم من كل قــوى التبشـــير التـى تواجهه ، تكشف عما يتميز به جوهره من بساطـة تعاليمه وانسجامه وطبيعة الفطرة الاسلامية المتحررة من التعقيدات . ولا شك ان انتصار الاسلام فى هذه المرحلة من مراحل الغزو الاستعماري يكشف عـن جوهر الاسلام وقدرته على التحدي ورد الفعل .

هذا فى قلب افريقيا .. اما فى شرق آسيا فالى العدد القادم .

القاهـرة ـ انـور الجنـدي



رسالة مفتوحة إلى شاب متشكك حائر !!

للأستاذ محمد محيي الدين المشرفي

توصلت في الشهور الاخيرة عن طريق الاذاعة الوطنية برسالة مطولة بعث بها للاذاعة شاب مغربي اختلط عليه الحابل بالنابل وارتبكت حالته النفسية الى حد اوشك معه ان يفقد ايمانه لولا ان ثبت الله اقدامه بقوة من عنده ، فعاد الشاب المذكور الى طريق النور يبحث عن الحقيقة في هذه الرسالة المفيدة التي وجهها للاذاعة عله يحظى منها بالجواب الشافي الذي يريد .

※

في هذه الرسالة التي وصلتني بقصد الاجابة عنها ، يعرض علينا هذا الشاب النبيه تجربة ثمينة بكل اعتبار ومرحلة من حياته النفسية والعقائدية — ان صح هذا التعبير — كتب له ان يعيشها مدة سنتين او يزيد حتى خرج من تلك المعركة ناجحا منتصرا ، ومومنا في آن واحد بان خير طريق لبلوغ الهدف الاسمى في هذه الحياة بالنسبة للمسلم المومن ، وتحقيق ما يصبو اليه من سعادة بمعناها الواسع الشامل ، هي تمسكه بتعاليم القرآن الكريم . ومن اجل ذلك يقول السيد المراسل فيما يتعلق بهذه التجربة التي خاضها بكل نجاح « حاولت ان اجعل في هذه المعركة القرآن مرشدي في كل شيء في علاقتي مع نفسي ومع غيري ، ومع كل ما يحيط بي .. » وينتهي بعد ذلك الى القول بانه لم يكن هناك كتاب استطاع ان يوجهه خيرا من القرآن ، وهذه نتيجة لا تستغرب في حق شاب ذكي مستنير وضع همه في البحث عن الحقيقة في اعز واغلى كتاب سماوي ، جمع بين دفتيه كل شيء ، لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتاب اعتبره بحق كبار العلماء والمحدثين اعظم معجزة جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم الى خير امة اخرجت للناس تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر ! والشاب المذكور قلق مرتاب يوجه في رسالته للاذاعة الوطنية سؤالا ضخما ينتظر منها الجواب عنه بكل تلهف ، ذلك انه يريد ان يعرف بالبرهان والحجة العقلية — كما يقول — حقيقة كل ما يقدم له من افكار دينية وعقائد حتى يستطيع ان يدرك بعقله سبب التأخر العلمي والاجتماعي الذي يتخبط فيه المجتمع الاسلامي في هذا العصر ، ويتمكن بالتالي من ان يتعرف على السر في تفوق الغربيين على غيرهم من الامم الاخرى .

والسؤال في حد ذاته صادر عن نفس اقل ما يقال فيه انه صادر عن نفس حائرة وهو يتعلق في نفس الوقت بفكرتين متباينتين لا تجمعهما علاقة وثيقة فالاولى لها صلة بالبراهين التي يطلبها صاحب الرسالة وهي براهين عقلية ملموسة كما يقول كي يعلم السر في كل ما يساق له من معتقدات والثانية تتعلق بمعرفته الاسرار التي راح الغربيون من اجلها يتمتعون بمكان مرموق بالنسبة الينا من الوجهة العلمية والاجتماعية معا وابادر الى القول بان المراسل الكريم يريد بالضبط معرفة اسباب تفوق الغربيين من الوجهة التقنية او التيكنولوجية على غيرهم لا من الوجهة الاجتماعية كما يقول .

اما عن السؤال الاول فليس هناك من يستطيع ان يقدم لك الحجة التي تريد عن كل ما يمارسه الناس من معتقدات تتعلق بمجتمع ديني خاص ، غاية حجة علمية نقدمها لك على أن الله موجود اذا لم يكن قلبك عامرا بالايمان ، او اذا لم يهدك الله الى صراط مستقيم؟ اية حجة ملموسة نستطيع ان نسوقها لك لتقتنع بأن الجنة حق ، وان الله سيبعث من في القبور ، اذا لم تكن تومن طبعا بما جاء في القرآن الكريم ؟ هذه العقائد وغيرها مما ينبني عليه كيان الاسلام لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تومن بها جدلا حتى تتمرن على قبولها بالعمل والممارسة ، فاذا واظبت على الصلاة ، مثلا ، وانت صغير أصبحت في حالة لا يمكنك معها ان تتركها في كبرك . انظر الى « باسكال » (Pascal) الفيلسوف الفرنسي الذي كان يجادل خصومه في الدين، ويحاول بالموعظة الحسنة اقناعهم بضرورة الاقبال على دين المسيح عليه السلام ، لم يستطع ان يقدم لهم برهانا عقليا واحدا على ما كان يدعوهم اليه ، ولذلك كان يقول : الذين أنعم الله عليهم بنعمة الدين عن طريق الشعور القلبي هم السعداء حقا ، وليس في استطاعتنا ان نمنحهم هذه السعادة عن طريق العقل ، في انتظار ان يرزقهم الله اياها بالشعور القلبي . ومن ثم راح باسكال يسعى لزحزحة موقف اولائك الزنادقة الذين اداروا ظهورهم للايمان ، ويخاطبهم باسلوب طريف ، وطريقة عرفت منذ القرن السابع عشر عند الادباء والفلاسفة ببرهان « باسكال » . ذلك ان باسكال اراد ان يعطي الدليل لخصومه على ان الله موجود ، وان الناس لابد يبعثون ، فقال لهم : « فلنتراهن على ان الله موجود ، واننا سنرى بأم اعيننا بعد الموت كل ما وعدنا به الرحمان ، ولنعمل حينئذ في هذه الحياة بمقتضى ما يمليه علينا وجوده تعالى حتى نموت . فان وجدتم ما ادعوكم اليه حقا نلتم ما وعد الله به عباده المتقين ، وان لم تجدوا شيئا من ذلك — كما تزعمون — لم يلحقكم ضير مما ادعوكم اليه الآن من ضرورة سلوك طريق الخير والصلاح ، طبقا لما جاء به النبي عيسى عليه السلام .

والغريب ان هذه الطريقة المبتكرة فعلت في خصوم باسكال اكثر مما فعلت جميع البراهين العقلية والعلمية التي كان في استطاعته ان يعتمد عليها ليقنعهم بضرورة تشبثهم بالايمان . وهذه الفكرة الصائبة المعروفة باسم برهان باسكال هي التي ادرجها احد الشعراء في قوله :

قال المنجم والطبيب كلاهما
لا تبعث الاجسام ، قلت اليهما
ان صح قولكما فلست بخاسر
او صح قولي فالخسارة عليكما

وفي قوله عز وجل : زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ، والله بما تعملون خبير » .

والذي يجب التنبيه اليه في هذا المقام هو أن فكرة البرهان هذه التي بهرت منذ ثلاثة قرون جمهور المثقفين بثقافة غربية محضة توجد بنصها وفصها في عدة سور من القرآن الكريم ، اخص بالذكر منها سورة « هود » وسورة « غافر » التي يقول فيها سبحانه وتعالى : « وقال رجل مومن من آل فرعون يكتم ايمانه ، اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » ومن أجل ذلك كان الذين انعم الله عليهم بنعمة الدين عن طريق الشعور القلبي سعداء كل السعادة ، مومنين كاصدق ما يكون الايمان .

اما عن السؤال الثاني الذي يبحث فيه المواطن الكريم عن الاسباب التي تأخر من اجلها المسلمون ماديا على غيرهم فهو يقتضي مناظرة بمفردها وبحثا طويلا يتصل بالنظر في تنظيم المجتمعات الاسلامية تنظيما جعلها تتقدم على غيرها من المجتمعات في حقبة من الزمن الغابر ، كما يقتضي ذلك التعرض بالدرس والتحليل للاسباب المختلفة التي ادت بالمسلمين الى التأخر عن ركب الحضارة فيما بعد . والذي يمكن أن يقال في هذا المقام هو أن هذا التأخر لم يكن الا نتيجة لما اصاب المسلمين قاطبة من انحلال في الاخلاق ، وما لحقهم شرقا وغربا من ادبار عن تعاليم الدين الحنيف ، هذا الدين الذي كان بمثابة الجذوة الاولى في قيام حضارة لها قيمتها واعتبارها في البقاع التي خضعت لنفوذ المسلمين . ويكفينا ان نثبت في هذا المقام — كما يقول اولائك الذين فتح الله عليهم وعلى ايديهم — انه لو بقينا على ما كان عليه سلفنا الصالح من ايمان بالله قوي ، وعزيمة صادقة وضمير حي ، وايثار في سبيل المصلحة العامة لاستطعنا تحويل هذا المجتمع الذي ننتسب اليه وتوجيهه الوجهة التي تجعلنا نحن الآخرين نشارك بنصيب وافر في ركب الحضارة العصرية بما

امتازت به من تقدم تكنولوجي ملموس .. لكن تمسكنا بالقشور فيما يرجع لتعاليم الاسلام بالاضافة الى تواكلنا وعدم قدرتنا على المضي في السبيل حتى نحطم ما يعترضنا من صعوبات وعراقيل ، وخضوعنا لغريزة حب النفس ولو كان على حساب المجتمع الذي ننتسب اليه مثل ذلك ادى بنا حتما في نهاية المطاف الى تأخر روحي ومادي لا سبيل الى نكرانه .

هذا ومما لاشك فيه ان شباب اليوم ، لو تمسكوا بما يدعو اليه هذا القرآن في جميع تصرفاتهم ، ملتزمين سلوكا طاهرا ، متمسكين بالصدق ، مقبلين مثلا على صيام شهر رمضان عن رضى وطيب خاطر لاستطاعوا ان يخلقوا المجتمع الاسلامي الفاضل الذي ولى ورا؟ مع ادبار الفضائل التي من اجلها كانت الممالك الاسلامية تتمتع بحضارة وتقدم فيهما دليل قاطع على قابلية الاسلام للتطور والتقدم في كل زمان ومكان .

*

وبعد هذا يستطرد الكاتب الكريم الى طرح هذا السؤال الغريب الذي ان دل على شيء فهو يدل على ما وقع فيه حيرة متناهية ، فيقول : لم لا نفعل كما يفعل الاوروبيون الذين كانوا يستعمروننا منذ عهد قريب ؟ فالشاب عندهم لا يتحرج من اطلاق جماح غريزته في الشارع بحيث يقبل الفتاة التي يحبها على مرأى من الناس ، بلا خجل ، ونحن الذين نستحيي ما زلنا في مؤخرة القافلة ، مع ان الشاب المذكور يعتبر سعيدا في مجتمعه الذي يسيطر على اقتصاد البلاد ؟!

وجوابي على هذا السؤال هو انه لا علاقة هناك بين ان يقبل الشاب الاوربي المائع المنحل فتاته في الشارع وان يكون لوالديه من الجاه والسيطرة ما يمكنهما من الاستيلاء على قسم من اقتصاد البلاد . ثم ليس هناك دليل على ان والد هذا الشاب كان هو الآخر يقبل فتاته في الشارع ، بل المعروف عنه باعتباره من الجيل الماضي انه كان بالنسبة لهذا الابن المائع على قدر كبير من الحشمة والوقار ، بل نستطيع القول بأن هذه الاستقامة التي كان الجيل الماضي الى حد بعيد متمسكا بها والجدية التي كانت تصطبغ بها حياتهم في كل مظاهرها هي التي مهدت السبيل لطائفة منهم كي يتبوؤا مكانا مرموقا في المجتمع بما في ذلك الاستيلاء على اقتصاد البلاد .

وعلى ذكر هذا يتعين على العلماء والوعاظ ، كما يشير الى ذلك المراسل الكريم في رسالته ، ان يعرفوا كيف يسلكون الى قلوب شباب اليوم حتى يعودوا بهم الى الطريق السوي وان كان ذلك بواسطة اللغة العامية التي يفهمونها اكثر من غيرها . على ان استعمال الفصحى المبسطة لها فائدتها ، ذلك انها تؤدي بهؤلاء الشباب الذين لم يدرجوا منذ الصغر على تعلم اللغة العربية الى الاستئناس بها شيئا فشيئا . والواقع ان العبرة ليست باستعمال العامية أو الفصحى ، بل العبرة هو ان ينفذ الواعظ على قلوب مستمعيه من الشباب خاصة ، ولا يتأتى له ذلك الا اذا كان هو نفسه قوي الايمان ، على جانب من الاخلاق الكريمة والذكاء ، غير متعنت ولا متحجر . هكذا يستطيع ان يحبب الايمان الى قلوب هؤلاء الشباب الناهضين ، فاذا وجد الايمان طريقه الى قلوبهم وجدنا في نفس الوقت طريقنا الى خلق مجتمع مسلم متطور هادف .

ان الاختلاط الذي يشير اليه مراسلنا الكريم محبب في مواضعه اي متى كان الداعي اليه وجيها كتجمع الشباب ، ذكورا واناثا داخل اروقة الجامعة او المسجد او قاعة محاضرات أو في بيت يتصف اهله بالعفة والحياء ، اما اذا كان الاختلاط هو من اجل الثرثرة وتحقيق الميول الرخيصة فالاولى بمجتمعنا ان لا يمهد له السبيل لان الاختلاط اذ ذاك يكون وبالا عليه بما يدفعه اليه من شرور وفساد .

والذي يعجبني من قول هذا الشاب هو حين يقول بانه منذ ان عاد الى القرآن الكريم ، واصبح يكثر من قراءته ، مواظبا على الصلاة تحسنت احواله النفسية حتى اصبح يشعر بنوع من السعادة الروحية. وهذه ملاحظة ثمينة بكل اعتبار ، ذلك ان المرء لا يدخل الايمان قلبه حتى يكثر من الصلاة وتلاوة القرآن ، والرجوع الى النفس ، والحالة هذه ، رجوع الى الله الذي خلق كل شيء ، اذ بفضله تعالى تستبين النفس طريقها الى النور . ومن اجل ذلك كان باسكال يقول لخصومه من الزنادقة والملحدين : « اعتكفوا وصلوا واسجدوا دون ملل ، فسترون ان الايمان سيدخل قلوبكم بعد حين » . ومن اجل ذلك ايضا يحث الفقهاء كل من كانت لهم مسؤولية في تربية النشىء كالاباء والامهات ، على ان يمرنوا صغارهم منذ نعومة أظفارهم على الصلاة . ذلك لانه ثبت بالتجربة ان الذين يغشون بيوت الله كبارا هم اولائك الذين تدربوا على الصلاة منذ الصغر .

والذي يثير الاعجاب في النفس بهذا الفتى الـذي نرجو ان يسير معظم شبابنا على طريقته في البحث هو هذا السؤال الذي طرحه على نفسه قائلا : « بما ان الغربيين قراوا عن الاسلام ، فلماذا لم يؤمنوا به ولم يصدقوه حتى يصبحوا هم ايضا مسلمين » .

والجواب بسيط على سؤالك هذا ، ايها الاخ الكريم ، هو ان الله تعالى وحده هو الملهم لطريـق الهدى . وليس ما يحمله الرجل في صدره من علـم — وقد يكون غزيرا — هو ما يقوده حتما الى سبيل الخير والصلاح . ولو كان الامر كذلك لكان ذوو العلم كلهم من المتقين . واذا علمنا ، كما تقدم ، ان قضية الايمان قضية تتعلق بالقلب اكثر مما تتعلق بالعقـل ادركنا كيف ان كثيرا ممن انكبوا على دراسة الشريعة الاسلامية من النصارى وتعمقوا فيها أحيانا لم يحملهم ما ادركوه من علم عن طريق العقل على اعتناق هـذا الدين الذي لم يجد طريقا بعد الى قلوبهم ، في حين ان هناك طائفة منهم قد تفتحت قلوبها للايمان بالهام من الله تعالى وحده ، لا نتيجة دراستهم لتعاليم الديـن الحنيف ، « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهـم جميعا » . افبعد هذا نعجب ، ايها المراسل الامين ، من ان كل الذين اسعدهم الحظ بدراسة تعاليم القرآن من الاجانب لم يحملهم علمهم على اعتناق هـذا الديـن ! فلنتدبر قوله تعالى في هذا المعنى اذ يقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ».

اما عن النزوات الجنسية التي سارت تنتابك من حين لحين ، وتثقل عليك بصورة لا يتحملهـا الا ذوو الارادة القوية من الناس . فعلماء النفس يرشدوننا الى ان احسن طريق يجب سلوكه في مثل هذه الاحوال ، هو ان يقاوم المرء شهوته الجنسية بما يعارضها من عاطفة بريئة تكون مماثلة لها في القوة كحب المطالعـة والاقبال على الدرس والتحصيل بصورة تلهيه عما توحي اليه به نفسه الامارة بالسوء من مساوىء وشرور وما قد يسمعه من رفقاء السوء الذين يتحتم الابتعاد عنهم بادىء ذي بدء وقطع الصلة بينه وبينهم . ومتى قويت فيك مثل هذه النوازع النبيلة كالمطالعة والـدرس وممارسة الرياضة البدنية او جمع الطوابع والصـور الاثرية الى غيرها من الهوايات التي يقبل عليها الشباب المتنور عادة ، اذ ذاك تصبح من الارادة والعزيمـة والصبر بحيث تتغلب بسهولة على كل ذميمة يتعرض اليها الانسان ويرتمي في احضانها الضعيف كالشراهة والكسل والنميمة والعقوق ، ثم تكون في حالة يمكنك معها ان تسيطر على نفسك وتراقبها مراقبة صارمة ، فلا تعود تفعل الا ما تريد ولا تتوق نفسك الا لعمل صالح يعود عليك وعلى وطنك بالنفع .

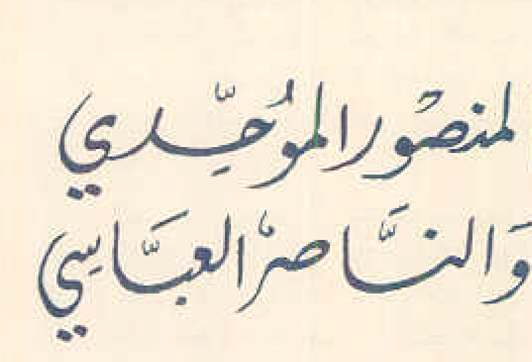
اما فيما يرجع لمعرفة اسباب بعض الامور التي لم تعثر في كتب الفقه الاسلامي على ما يعللها في نظرك فان النبي صلى الله عليه وسلم ينصحنا بعدم الاكثار من سؤال روي عن ابي هريرة عن النبـي صلـى الله وسلم قال : « دعوني ما تركتكم ، فانما اهلك من كان قبلكم سؤالكم واختلافهم على انبيائهم ، فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، واذا امرتكم بشيء فاتوا منه مـا استطعتم » . ومما يدعم هذا الحديث الكريم قولـه تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تسالوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم » .

وفي الختام اعجبتني تلك الفقرات التي اختتمت بها ، ايها الاخ الكريم ، مقالتك ذاكرا لنا انك جربت لمدة سنتين الخروج من البلبلة والحيرة اللتين وقعت فيهما نتيجة اصطدامك بالحياة العصرية ، وانت ما تزال في شرخ الشباب ، تشاهد ما يصدر عن بعض الناس من تصرفات لا تتلائم وما وضع الله في ضميرك من بذور الخير والايمان ، فلم تجد الا القرآن ملاذا لك وظهيرا ، هو الذي مكنك من ان تتغلب على التيارات الهدامـة التي كادت ان تجرفك ، وهو الذي استطعت بفضله ان تصمد في وجه الحياة وتتدبر وتتفكر وتتبصر بمـا وضع الله في قلبك من ايمان الى ان وصلت الى بـر السلامة والنجاة !



لقد عشت ايها الاخ الكريم وسنا معك هذه المرحله الدقيقة الصعبة من حياتك ، وحاولنا في هذه الكلمة المتواضعة ان نفسح امامك سبل العمل الصالـح ، وعسى ان تكون قد وفقنا الى بعض ما كنا ننوي ، وعلى كل حال فليكن ايمانك قويا بان الخير لابد أن ينتصر على نوازع الشر والفساد ، وان الله تعالى يمـد دائمـا عباده الصالحين بالصبر والقوة اللازمة التي تمكنهم من مقاومة شرور النفس ودواعي الفساد ، لكنه لا يعزز بقوته تعالى الا الذين يجدون في انفسهم من الاستعداد الفطري ما يحملهم على الثبات في مواقف الصعوبات ، ومن أجل ذلك قال بعض الحكماء في القديم : « كن عون نفسك يكن الله في عونك » . فتوكل على الله والى الامام ، ايها الاخ الكريم ، لتبني مستقبلك على تقوى من الله كما بنته من قبلك ابوتك الامجاد وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته من اخيك :

الرباط : محمد محي الدين المشرفي





للدكتور مصطفى جواد

شهدت افريقية في اواخر القرن السادس للهجرة صراعا سياسيا خفيا عنيفا بين الخليفتين ابي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي الملقب بالمنصور وابي العباس احمد بن الحسن بن يوسف بن محمد العباسي الملقب بالناصر لدين الله، ولم يسجل هذا الصراع السياسي بحسب الطريقة التاريخية العلمية الحديثة .

تولى الخلافة العباسية الناصر لدين الله العباسي ببغداد سنة 575 هـ ولقبوه بالناصر لدين الله ، وكانت امه تركية اسمها العربي « زمرد » ولقبت بخاتون فكانت تدعى « زمرد خاتون » ، وتولى الخلافة المؤمنية ابو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي سنة 580 هـ ، وامه رومية اسمها « ساحر » ، وكان كل من الخليفتين المشرقي والمغربي يعد خلافة غيره باطلة تستوجب الازالة والابطال ولو بالسيف ، لما ذكر في الاحاديث النبوية من قوله صلى الله عليه وسلم: « اذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما » (1) او كما قال صلى الله عليه وسلم على حسبان صحة هذا الحديث ، وكان الخليفتان متشابهين في القوة والحزم والشدة دون السياسة العامة بمعناها الحديث من الصبر وطول الاناة ورحابة الصدر واختيار رجال الدولة الذي هو نصف النجاح ، والتسامح على طوائف الرعية والاستفادة من الكفايات الادارية والعلمية ، ودون ما هياه القدر من طول عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، حتى امتدت خلافته « سبعا واربعين سنة » . وقد راى ابن جبير الرحالة الخليفة الناصر لدين الله ببغداد سنة (580 هـ) (2) قال : « وقد يظهر الخليفة في بعض الاحيان (3) راكبا في زورق وقد يصيد في بعض الاوقات في البرية ، وظهوره على حالة اختصار تعمية لامره على العامة فلا يزداد امره مع تلك التعمية الا اشتهارا ، وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة ويؤثر التحبب لهم وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بايامه رخاءا وعدلا وطيب عيش فالكبير والصغير منهم

---

1) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لمحيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي « ص 186 طبعة مطبعة السعادة » .

2) دخل ابن جبير بغداد قبيل العصر من يوم الاربعاء الثالث من صفر سنة (580 هـ) الموافق 16 مايو سنة 1184 م .

3) اعتاد الخلفاء العباسيون في عصورهم الاخيرة أن لا يظهروا للناس الا قليلا ولا يستقبلوا اميرا أو رسولا او سفيرا في غير الليل الا نادرا وكان الناصر لدين الله يتنكر بالبسة مختلفة ليطلع على احوال الرعية بنفسه .

داع له . ابصرنا هذا الخليفة (4) المذكور وهو ابو العباس احمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله (5) ابي محمد الحسن بن المستنجد بالله ابي المظفر يوسف ، ويتصل نسبه الى ابي الفضل جعفر المقتدر بالله الى السلف غوقه من اجداده الخلفاء — رضوان الله عليهم — بالجانب الغربي (من بغداد) امام منظرته به ، وقد انحدر عنها صاعدا في الزورق الى قصره(6) باعلى الجانب الشرقي على الشط وهو في فتاء من السن اشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل جميل المنظر ، ابيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابسا ثوبا ابيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى راسه قلنوسة مذهبة مطوقة بوبر اسود من الاوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك مما هو كالفنك (7) ، واشرف ، متعمدا بذلك زي الاتراك تعمية لشانه، لكن الشمس لا تخفى وان سترت، وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين وخمسمائة ، وابصرناه ايضا عشي يوم الاحد بعده متطلعا من منظرته بالشط الغربي وكنا نسكن بمقربة منه » (8) .

فهذه شهادة اديب كبير متدين للخليفة الناصر العباسي بما علمه من سيرته وما رآه من احواله ، ولم يمض على خلافته اذ ذاك الا خمس سنوات ، فلا عجب ان كان اعجب خلفاء بني العباس سيرة ، واطولهم عهدا ، واحكمهم سياسة وكياسة ، فضلا عما ايد به حكمه من تقريب العلويين واستخدامهم في المناصب والاعتماد عليهم في كثير من شؤون الدولة العباسية ، ولقد استوزر منهم وزيرا هو نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الرازي ولم يكن في الدولة العباسية وزير علوي غيره طوال خمسة قرون وربع قرن من السنين القمرية ، واستخدم الحنابلة اتباع الامام احمد بن حنبل ومن المعلوم ان امامة احمد بن حنبل قامت على مناهضة الخلافة العباسية منذ اواسط القرن الثالث للهجرة ، فجعلهم الخليفة الناصر لدين الله اعوانا مخلصين للدولة العباسية بله وجبة الدولة العباسية الحنبلية في اواخر عصورها مع شافعية رسمية .

اما المنصور الموحدي ابو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي فقد ذكر عبد الواحد المراكشي انه كان صافي السمرة جدا ، الى الطول ما هو ، جميل الوجه ، اعين افوه اقنى ، شديد الكحل مستدير اللحية ، ضخم الاعضاء ، جهوري الصوت ، مجربا للامور ، عارفا بأصول الشر والخير وفروعه ، ولي الوزارة ايام ابيه فبحث عن الامور بحثا شافيا ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع اليه الامور مطالعة افادته معرفة جزئيات الامور فدبرها بحسب ذلك ، فجرت اموره على قريب من الاستقامة والسداد ، حسب ما يقتضيه الزمان والاقليم ، وشرع في بنيان المدينة العظمى التي على ساحل البحر والنهر من العدوة التي تلي مراكش وكان والده ابو يعقوب يوسف هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدا بنيانها فمات قبل اتمامها فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها (اكبر مساجد المغرب واعلاها منارة) (9) طوال مدةولايته وانشا بمدينة مراكش « بيمارستانا » اي مستشفى ظنه المؤرخ عديم المثال في الدنيا ، وكان يعتقد صحة

---

4) قول ابن جبير « هذا الخليفة » تمييز له عن « خليفة المغرب الموحدي » لانه كان خليفته في بلاده ويعترف به ابن جبير .

5) كان واجبا ان تكون لاسمه هذه الصلة المناسبة للاستضاءة الا ان اسمه كان « المستضيء بامر الله » .

6) عرف هذا القصر باسم « دار المسناة » ولا تزال هذه الدار البديعة بايوانها وزخارفها الآجرية آية من آيات العمارة الاسلامية المشرقية ، وهي على شاطيء دجلة الشرقي من بغداد وقد اتخذت دارا للآثار الاسلامية .

7) نوع صغير من الثعالب ذو فروة فاخرة جدا .

8) رحلة ابن جبير « ص 227 ، 228 طبعه ليدن سنة 1907 » .

9) قال المراكشي : « وذلك انه تخير ساحة فسيحةباعدل موضع في البلد وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المشمومات والمأكولات واجرى فيها مياها كثيرة تدورعلى جميع البيوت، زيادة على اربع برك في وسطه ، احداها رخام ابيض ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، واجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصتـه خارجا عما جلبه اليه من الادوية .. »

« الملاحم » ومستقبل الحدثان من الضرب المعروف عند الفرنج باسم Eschatologie وعند نصاراهم باسم Apocalypse وذلك من الامور المستغربة من سيرته ، فقد ذكر المؤرخ المذكور آنفا أنه سار فى بعض حروبه حتى نزل مدينة تونس فجهز جيشا عظيما أمر عليهم رجلا من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب ، وذلك لما كانوا يرونه فى (ملحمة) كانت عندهم من أنهم سينهزمون مع رجل اسمه يعقوب بموضع يعرف بوطا عمرة ، فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور واقام هو بتونس فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر ، كما ذكر ، ثم ذكر المؤرخ انه قتل اخاه ابا حفص عمر الملقب بالرشيد ، وعمه سليمان بن عبد المؤمن حرصا على الملك . وقتل غيرهما محتجا بالحديث الذي نقلناه آنفا: « اذا بويع خليفتان بارض فاقتلو الآخر منهما » ، غير انه هادن الادفنش ملك الاسبان الى عشر سنين ، وجعل يذكر البلاد المصرية بانها أصبحت موطنا للبدع والمناكير ويقول : « نحن ان شاء الله مطهروها » . وكان ملك البلاد المصرية * . وكان ملك البلاد المصرية ايامئذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » . وقد احسن ابن جبير الثناء عليه اي على صلاح الدين ومدح عدالته وسياسته ، وكان صلاح الدين مشغولا بالحروب التي انشبها على الفرنج تارة وعلى الامراء والمسلمين تارة اخرى والحكم فى أيدي نوابه ، وقال المراكشي المؤرخ أيضا : « وكان المنصور فى جميع أيامه وسيره مؤثرا للعدل بحسب طاقته وما يقتضيه اقليمه (10) والامة التي هو فيها . كان فى أول امره اراد الجري على سنن (11) الخلفاء الاول ، وفى آخر أيام حكمه أمر أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من اقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على اشنع صورة كأنها البراذيع تبلغ الى تحت آذانهم ، فشاع هذا الزي فى جميع يهود المغرب الى ان غيره ابنه محمد أبو عبد الله » . واضطهد القاضي ابا الوليد محمد بن احمد المعروف بابن رشد لانه لم يلقبه « بامير المؤمنين » فى بعض كتبه وسماه « ملك البربر » وحرم كتب الفلسفة ، وكتبت عنه كتب الى البلاد يأمر فيها الناس بترك العلوم الفلسفية جملة واحدة وباحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة — أوقات الليل والنهار واخذ سمت القبلة ، ولكنه لما رجع الى مراكش نزع عن ذلك كله وجنح الى تعلم الفلسفة وارسل يستدعي ابا الوليد من الاندلس الى مراكش فحضر ومرض بها مرضه الذي مات منه ، وكانت وفاته بها فى آخر سنة 594 هـ . وقال هذا المؤرخ قبل ذلك : « وبعد قتله اخاه ابا حفص عمر وعمه سليمان (وكان ذلك فى سنة 582) أظهر زهدا وتقشفا وخشونة ملبس ومأكل وانتشر فى ايامه للصالحين والمتبتلين واهل علم الحديث صيت ، وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب اليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلاة الجزيلة . وفى ايامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وامر باحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك، فاحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة(12) سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، ولقد شهدت منها ، وانا يومئذ بفاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع وتطلق فيها النار ، وتقدم الى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الراي والخوض فى شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وامر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين والترمذي والموطا وسنن ابي داود وسنن النسائي ، وسنن البزار ومسند ابن ابي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي فى الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة،

---

10) تقدم قول المؤرخ نفسه : « فجرت اموره على قريب من الاستقامة والسداد حسب ما يقتضيه الزمان والاقليم » وهو اعتذار عنه .

11) السنن على وزن الزمن فى أشهر لغاته الطريقة، فان عد السنن جمعا لسنة وجب ضم همزة « الاول » وهو وجه ضعيف .

12) طبعت بعناية محمد الساسي المغربي بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة 1325 — وطبعت مع الذيل لابن رشد الحفيد بالمطبعة الخيرية فى اربع مجلدات سنة 1324 « معجم المطبوعات » ، وهي فى فروع مذهب الامام مالك بن انس المنتشر فى افريقية والاندلس وقد ابتدا بالانقراض فى العراق فى أواسط القرن الخامس للهجرة واستمر على تقلصه فى المشرق .

فاجابوه الى ذلك ، وجمعوا ما امرهم بجمعه ، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب وحفظه الناس من العــوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والاموال ، وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد ابيه وجده الا انهما لم يظهراه واظهره يعقوب هذا ؛ يشهد لذلك عندي ما اخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ ابا بكر بن الجد انه اخبرهم قال : لما دخلت على امير المؤمنين أبي يعقوب اول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب أبي يونس ، فقال لي : يا ابا بكر (13) انا انظر فى هذه الآراء المتشعبة التي احدثت فى دين الله ، ارايت يا ابا بكر المسالة فيها اربعة اقوال او خمسة اقوال او اكثر من هذا ؟! فى اي هذه الاقوال هو الحق وايها يجب ان يأخذ به المقلد ؟! فافتتحت ابين له ما اشكل عليه من ذلك ، فقال لي — وقطع كلامي — يا ابا بكر ليس الا هذا (واشار الى المصحف) او هذا (واشار الى كتاب سنن ابي داود وكان عن يمينه) او السيف . فظهر فى ايام يعقوب هذا ما خفي فى ايام ابيه وجده ، ونال عنده طلبة العلم ، اعني علم الحديث، ما لم ينالوا فى ايام ابيه وجده » ، ثم توفي ابو يوسف يعقوب فى غرة صفره من سنة 595 هـ وله من العمر ثمان واربعون سنة وكانت مدة ولايته ست عشــرة سنة وثمانية اشهر واياما (14) .

وقال عز الدين ابن الاثير فى حوادث سنة 595 : « فى هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الاولى توفي ابو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس بمدينة ســلا وكان قد سار اليها من مراكش ، وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية (15) من أحسن البلاد وانزهها فسـار اليها ليشاهدها فتوفي بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة ، وكان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة ، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية ، واعرض عن مذهب مالك ، فعظم امر الظاهرية فى ايامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير ، يقال لهم (الحزمية) منسوبون الى أبي محمد بن حزم رئيس الظاهرية الا أنهم مغمورون بالمالكية ، ففي ايامه ظهروا وانتشروا ثم فى آخر ايامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال اليهم (16) ».

وقال ابو المظفر يوسف بن قزا علي المعـــروف بسبط ابن الجوزي فى حوادث سنة 595 : « وفيها توفي الملك المنصور الغازي المجاهد ابو يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب الذي كسر الفنش على الزلاقة ، ولم يكن للفنش مع كثرة جيوشه طاقة ولم يكن فى ولاة المغرب من له سيرة كسيرته، وقد اثنى عليه اصحاب السير ، وذكره عبد المنعم بن عمر الجياني فى تاريخه واثنى عليه وقال: لما توفي ابو يوسف قام بالامر أحسن قيام ، فاقر العيون بما قرر من قواعد الاسلام ويسر من كلمة التوحيد ، واذل من الكفر كل جبار ، ورفع غاية الاجتهاد ، فتضوع باجتهاده كــل ناد ، وامر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ونشر نشــرة اذكى من العنبر ، وصوب كرمه أعلى من ضوء القمر الانور ، واقام الحدود على العالمين خصوصا علــى اهله وعشيرته الاقربين ، فاستقامت الامور ببركاته، وظهرت الفتوحات العظيمة بعزماته ، وانتشـــرت الخيرات بكراماته » . وقال السبط بعيد ذلك : « وحكى لي الشيخ الصالح الفاضل ابو العباس بن ما سيــف المغربي اللواتي بالديار المصرية بالقرافة سنــة

---

13) نداء الخلفاء والامراء والوزراء لاتباعهم بكناهم دليل على رفع مراتبهم وتعظيمهم ، وكان سرور أبي حفص عمر بن الخطاب — رضي الله عنــه — عظيما لما ناداه النبي صلى الله عليه وعلى آلــه واصحابه الطيبين وسلم — بكنية « ابي حفص »

14) كل هذه الاخبار الخاصة بأبي يوسف الموحدي مستخلصة من ترجمة فى كتاب « المعجب فى تلخيــص اخبار المغرب » المذكور آنفا ، من الصفحة 127 الى الصفحة 205 » .

15) ذكر ياقوت الحموي فى « سلا » من معجــم البلدان أن منشىء المهدية هو عبد المؤمن جد ابــي يوسف ، وهو تأكيد لما ذكره فى المهدية .

16) الكامل فى التاريخ فى حوادث سنة 595 من النسخة الثانية المطبوعة ، وهي غير النسخة الاولى التي طبعها وستنفيلد .

(640 هـ) (17) من فضائل الملك (18) المنصور يعقوب ابن يوسف المذكور ، وكان أبو العباس قد صحبه زماناً، وانتفع به واستفاد منه ؛ قال : (19) وكل ما حكيته عنه فهو على المشاهدة والعيان لا من فلان وفلان » ، وذكر حكاية تثبت تعظيم ابي يوسف للاشراف العلويين واخرى فيها خبر قتله ابن اخته لانه اغتصب زوجة طارىء على مراكش بتعيش بترقيص الدب ، وحكاية ثالثة لامرأة محتالة متزاهدة وقال بعد ذلك : « وكان جوادا سمحا يهب مائة الف دينار وخمسين الفا ويتفقد أرباب البيوت ويكرم العلماء والفقهاء ولم تسمع منه كلمة فحش وكان عادلا متمسكا بالشرع ويصلي بالناس الصلوات ويلبس الصوف على جسده ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم الحق » (20) .

وذكره مؤرخون آخرون بما لا يخرج عما ذكرناه فلم نجد حاجة الى أكثر من هذه الاطالة ولنذكر الآن نبذا من سيرة « الخليفة الناصر لدين الله العباسي » قال صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي الاديب المؤرخ الشاعر الكاتب المشهور وعمدته في أكثر من ترجمهم من الاعيان والخلفاء والامراء والعلماء تاريخ الذهبي .

« احمد بن الحسن أمير المؤمنين الامام الناصر لدين الله ابو العباس ابن الامام المستضيء ابن الامام المستنجد . ولد يوم الاثنين عاشر شهر (21) رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وبويع له في أول ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة وتوفي — رحمه الله تعالى — سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، فكانت خلافته سبعا وأربعين سنة ، وكان أبيض اللون تركي الوجه (22) ، مليح العينين ، أنور الجبهة ، اقنى الانف خفيف العارضين ، اشقر اللحية ، رقيق المحاسن نقش خاتمه (رجائي من الله عفوه) اجاز له (23) ابو الحسين عبد الحق اليوسفي وابو الحسن علي بن عساكر البطائحي و (السيدة) شهدة وجماعة ، واجاز هو لجماعة من الكبار (24) فكانوا يحدثون في حياته ويتنافسون في ذلك ، وكان ابوه المستضيء قد تخوفه فاعتقله ، ومال الى اخيه ابي منصور .. قال الموفق عبد اللطيف (البغدادي) : وكان الناصر شابا مرحا عنده ميعة الشباب يشق الدروب والاسواق أكثر الليل ، والناس يتهيبون لقاءه .

.. ولم يزل الناصر مدة حياته في عز وجلالة وقمع للاعداء والاستظهار على الملوك ، لم يجد ضيما ولا خرج عليه خارجي الا قمعه ولا مخالف الا دمغه ، وكان شديد الاهتمام بالملك ومصالحه ، لا يكاد يخفى عليه شيء من امور رعيته كبارهم وصغارهم ، واصحاب الاخبار (25) في اقطار الارض يواصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنة ، وكانت له حيل لطيفة ومكايد خفية وخدع لا يفطن اليها احد ، يوقع الصداقة بين ملوك متعادين ، ويوقع العداوة بين ملوك متصادقين (26) وهم لا يشعرون .. وتحكى عنه نوادر من هذا وغرائب وعجائب ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ... وقال الظهير الكازروني في تاريخه : ... ان الناصر في وسط خلافته هم بترك الخلافة والانقطاع للتعبد

---

17) في طبعة حيدر اباد الدكن بالهند 1370 هـ = 1951 « مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ص 464 » والاصل « 740 » وهو محال لان سبط ابن الجوزي توفي سنة 654 باجماع من ارخوه .

18) ما سماه ابو المظفر « خليفة » خوفا من الدولة العباسية وخليفتها المستنصر بالله أو المستعصم بالله ببغداد .

19) في الاصل « قلت » ولا يتفق ذلك وسياق الحكاية.

20) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان « ص 464 — 467 من الطبعة المذكورة » ، وهي أحسن من طبعة شيكاغو .

21) المشهور عند العرب المسلمين الفصحاء ان لا تسبق كلمة « شهر » من الشهور الا « شهر رمضان » و « شهري الربيعين » كقوله تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » .

22) تقدمنا آنفا ان والدته « زمرد خاتون » كانت تركية وقد ثبت عندنا بالتجارب والمقابلات أن ثمانين في كل مائة من اوصاف الابناء تكون من امهاتهم وعشرين من آبائهم .

23) اي اجاز له رواية الحديث النبوي الشريف .

24) واجاز لهم رواية كتابه « روح العارفين » في الحديث النبوي .

25) اراد من نسميهم اليوم « رجال الاستخبارات ».

26) هذه من اسوا التعابير في ذكر من تام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكتب عنه ابن الضحاك توقيعا قرىء على الاعيان، وبنى رباطا للفقراء واتخذ الى جانب الرباط دارا لنفسه ، كان يتردد اليها ويحاضر الصوفية وعمل ثيابا كثيرة بزي الصوفية ، قال الشيخ شمس الدين : ثم ترك ذلك كله وملّه — سامحه الله — (27) ، ثم قال « ولما صرف ابن زبادة (28) عن عمل كان يتولاه ولم يبين لابن زبادة سبب عزله ، رفع اليه شعرا منه هذا البيت :

هب ان ذلك عن رضاك فمن ترى
يدري مع الاعراض انك راضي ؟ !

فوقع الناصر على رقعة : الاختيار صرفك ، والاختبار صرفك وما عزلناك لخيانة ولا لجناية ولكن للملك اسرار لا تطلع عليها العامة ، ولتعلمن نبأه بعد حين » (29) .

وذكر جلال الدين السيوطي مثل ما ذكره الصفدي من احواله وسياسته ونسب ذلك الى شمس الدين الذهبي ، وتبين ان الصفدي حذف من قول الذهبي ما هذا نصه : « وكل من اضمر له سوء رماه الله بالخذلان، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك .. » ثم قال السيوطي : « قال الذهبي : قيل ان الناصر كان مخدوما من الجن .. وكان اذا اطعم أشبع واذا ضرب اوجع وله مواطن يعطي فيها عطاء من لا يخاف الفقر .. وقال الموفق عبد اللطيف (البغدادي) : كان الناصر قد ملأ القلوب هيبة وخيفة فكان يرهبه اهل الهند ومصر كما يرهبه اهل بغداد ، فأحيا بهيبته الخلافة وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثم ماتت بموت الناصر، وكان الملوك الاكابر بمصر والشام اذا جرى ذكره في خلواتهم خفضوا اصواتهم هيبة واجلالا .. قال ابن النجار (المؤرخ) : دانت السلاطين للناصر ودخل في طاعته من كان من المخالفين وذلت له العتاة والطغاة وانقهرت بسيفه الجبابرة ، واندحض اعداؤه ، وكثر انصاره ، وفتح البلاد العديدة وملك من الممالك ما لم يملكه احد ممن تقدمه من الخلفاء والملوك ، وخطب له ببلاد الاندلس (30) وبلاد الصين ، وكان اسد بني العباس تتصدع لهيبته الجبال ، وكان حسن الخلق ، لطيف الخلق ، كامل الظرف ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ، له التوقيعات المسددة ، والكلمات المؤيدة ، وكانت أيامه غرة في وجه الدهر ، ودرة في تاج الفخر ، وقال ابن واصل : (31) كان الناصر شهما شجاعا ذا فكرة صائبة وعقل رصين ومكر ودهاء ، وله اصحاب اخبار في العراق وسائر الاطراف يطالعونه بجزئيات الامور .. وقال الموفق عبد اللطيف (البغدادي) : وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث واستناب نوابا في الاجازة عنه واجرى عليهم جرايات وكتب للملوك والعلماء اجازات وجمع كتابا : سبعين حديثا ووصل الى حلب وسمعه الناس .

قال الذهبي : اجاز الناصر لجماعة من الاعيان فحدثوا عنه منهم ابن سكينة وابن الاخضر وابن النجار وابن الدامغاني وآخرون » ثم قال السيوطي في حوادث سنة 581 : « وفيها وردت الاخبار بأنه خطب للناصر (العباسي) بمعظم بلاد المغرب .. وفي سنة تسع وثمانين (وخمسمائة) مات السلطان صلاح الدين — رحمه الله — فوصل الى بغداد الرسول (32) وفي صحبته

---

27) لم تكن سياسة الملك ومداورة شؤون الخلافة مما يعرفه شمس الدين الذهبي وامثاله من المؤرخين المحدودي البصارة والتفكير والموهبة فالناصر لدين الله كان قد أدب ابنه «أبا الحسن عليا» وهذبه ودربه وجربه وهيأه لتولي الخلافة عند اعتزاله الا ان المنية حالت دون تلك الامنية ، فأخذته الموت سنة 612 فرأى الناصر نفسه مضطرا الى ادارة شؤون الخلافة على سبيل الاستدامة قبل حلول الندامة فهذا هو السبب في تركه ما عزم عليه وبدا به .

28) يحيى المعروف بابن زبادة بالباء لا الياء الكاتب المشهور المعاصر للقاضي الفاضل وكانا فرسي رهان في الترسل .

29) نكت الهميان في نكت العميان « ص 93 — 95 طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة 1329 هـ = 1911 م .

30) الصحيح « بافريقية وجزيرة ميورقة » بمساعيّ بقية الملثمين .

31) هو المؤرخ العالم الفيلسوف مؤلف « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » وقد نشر منه الاستاذ الدكتور المحقق جمال الدين الشيال المصري — رحمه الله — ثلاثة اجزاء ، وتوفي قبل اتمام نشره ، ولم يبلغ المنشور منه آخر خلافة الناصر لدين الله .

32) السبب في ذلك ان الخليفة الناصر كان قد غضب على صلاح الدين — رحمه الله — لمهادنته الفرنج وعدم استعانته بالجيش العباسي فمن اجل الاعتذار اليه من التقصير ارسل ابنه الملك الافضل علي ذلك الرسول بما يثبت صلاح صلاح الدين قبل موته .

لامة الحرب التي لصلاح الدين وفرسه ودينار واحد وستة وثلاثين درهما لم يخلف من المال سواها (33). وذكر سبط ابن الجوزي عمارات الناصر لدين الله وهي كما جاء في تاريخه « رباط الاخلاطية (وهي زوجه سلجوقي خاتون) والتربة (يعني تربتها وكانت فخمة) ورباط الحريم (يعني الحريم الطاهرين بالجانب الغربي من بغداد) ومشهد عبيد الله (وهو عبيد الله العلوي) وتربة عون ومعين عند تربة الاخلاطية (وهما عند العامة من ابناء الامام علي بن ابي طالب) . وتربة والدته (وهي زمرد خاتون ولا تزال قبتها قائمة تعرف غلطا بتربة الست زبيدة عند مقبرة معروف الكرخي الزاهد) والمدرسة الى جانبها (وهي المدرسة المعروفة بمدرسة الاصحاب اي اصحاب الامام الشافعي . انشئتبأمر والدته زمرد خاتون) والرباط المقابل لهاالذي كان دار والدته ، ومسجد سوق السلطان ، ورباط المرزبانية (وهو الرباط الذي اراد سكناه عند عزمه على الاعتزال) ودور المضيف بالمحال (لافطار الفقراء في شهر رمضان) ودار ضيافة الحاج (وهي للحجاج الفقراء) ودار المسناة (وهي الدار التي ذكرناها آنفا وكانت شبه دار علم ولا تزال قائمة) ودار الفلك وجعلها رباطا (للنساء) والدار البيضاء التي كان يسكنها عند التاج (وهو بناء فخم) ... ونقل الكتب السنية بالخطوط المنسوبة والمصاحف الشريفة الى النظامية ورباط الاخلاطية والرباط الذي الى جانب تربة والدته ورباط الحريم وغير ذلك (34) .

الصراع السياسي المؤدي الى الحربين

ذكرنا من سيرة الخليفتين المنصور الموحدي وسيرة الناصر لدين الله العباسي ما يمهد السبيل لمن يود الموازنة بينهما ، وقد ظهر تشابه في السيرتين الا ان سيرة الموحدي قطعت وسيرة العباسي استمرت، فكانت برهة الصراع السياسي بينهما خمس عشرة سنة ، فكان كل منهما يتلقب بامير المؤمنين ويتسمى بالخليفة الا ان العباسي كان يخطب لـه بالحرمين الشريفين مكة والمدينة وكانت سلطته الدينية مسيطرة على المشرق الاسلامي ومصر مؤيدة بقوة عسكرية هائلة ، ففتح بلاد خوزستان وبلاد الجبل وخاض بها حروبا كثيرة ، وسعى في ازالة دولة الموحدين ولكنه لم ينجح لبعد بلادهم عن العراق ، والظاهر لنا ان اول رجل استخدمه هو « ابن تاتلي » الملثمي ، قال موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي الاديب الفقيه الحكيم النحوي الفيلسوف العلامة : « ورد الى بغداد رجل مغربي طوال في زي التصوف له ابهة ولسن مقبول الصورة وعليه مسحة الدين ، وهيئة السياحة ، ينفعل لصورته من رآه قبل ان يخبره يعرف بابن تاتلي، يزعم انه من أولاد (الملثمة) خرج من المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن ، فلما استقر ببغداد اجتمع اليه جماعة من الاكابر والاعيان ، وحضره الرضي القزويني وشيخ الشيوخ ابن سكينة وكنت واحدا ممن حضره ، فاقرأ في مقدمة حساب ، ومقدمة ابن البشاني في النحو وكان له طريق في التعليم عجيب ، ومن يحضره يظن انه متبحر وانما كان متطرفا ، لكنه قد امعن في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها وأتى على كتب جابر (ابن حيان) بأسرها وعلى كتب ابن وحشية ، وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه وابهامه فملأ قلبي شوقا الى العلوم كلها ، واجتمع بالامام الناصر لدين الله واعجبه ثم سافر (35) » .

واحسب ان سفره كان لامرين احدهما ان الناصر لدين الله جعله صاحب خبر على دولة الموحدين ، يوصل اليه اخبارها ويطالعه بأحوالها كعادته في اسناد ذلك المهام الى كثير من الاعيان في مختلف البلدان ، والآخر جعله اياه رسولا سريا للاتصال ببقية الملثمين واتباعهم وكانوا يخطبون كما هو معلوم لخلفاء بني العباس في شمالي القارة الافريقية وجزر الاندلس ، فبعد هذا التاريخ ظهرت ثورة « بني غانية الميورقيين » على الموحدين وابتدأ هجومهم على افريقية ، قال عبد الواحد المراكشي في سيرة امير المسلمين ابن تاشفين بن علي ابن يوسف بن تاشفين : « وانقطعت الدعوة لبني العباس بموت امير المسلمين وابنه فلم يذكروا على منبر من منابرها الى الآن (سنة 621 هـ خلا اعوام يسيرة بافريقية كان قد ملكها يحيى بن غانية الثائر من جزيرة ميرقة ، على ما سيأتي بيانه » ثم قال هذا المؤرخ « وفي هذه السنة اعني سنة (580) خرج الميرقيون بنو

---

33) جميع ما نقلناه من اقوال السيوطي المنقولة هو كتابه « تاريخ الخلفاء ص 448 — 454 طبعة مطبعة المدني بالقاهرة » .

34) مرآة الزمان « مختصر ج 8 ص 637 من الطبعة المذكورة » .

35) عيون الانباء في طبقات الاطباء « 2 ، 204 طبعة المطبعة الوهابية بالقاهرة سنة 1299 هـ = 1886 م »

غانية من جزيرة ميرقة قاصدين مدينة بجاية فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة وهذا اول اختلال وقع في دولة المصامدة ، لم يزل أثره باقيا الى وقتنا هذا وهو سنة 621 » وذكر أن الثائر هو علي بن اسحاق بن محمد ابن غانية ، قال : « ولما توفي أبو ابراهيم اسحاق بن محمد المذكور قام بالامر من بعده ابنه علي بعيد أبيه اليه وخرج باسطول ميرقة الى العدوة وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها ، على ما يقال ، يدعونه الى ان يملكوه ، ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ، ومما جراه ايضا كون الموحدين بالاندلس وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف ، وظن ان الامر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ فكان هذا ايضا مما اعانه على الخروج.. فقصد ساحل بجاية فنزل به فقاتله اهلها قتالا غير كثير ثم دخلها .. وكان فيها اذ دخلها أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، لم يكن واليا عليها وانما كان الوالي عليها أبو الربيع (36) سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ... فدخل علي بن اسحاق كما ذكرنا بجاية في اليوم المؤرخ واقام بها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبني العباس ثم للامام ابي العباس احمد الناصر منهم، وكان خطيبه الفقيه الامام المحدث المتقن ابو محمد عبد الحق (37) بن عبد الرحمن الازدي الاشبيلي مؤلف كتاب (الاحكام) وغيره من التآليف ، فاحنق ذلك عليه ابا يوسف يعقوب امير المؤمنين ورام سفك دمه فعصمه الله منه وتوفاه حتف انفه وفوق فراشه ، وخرج علي ابن اسحق من بجاية بعد أن أسس اموره فيها وسار حتى نزل على قلعة بني حماد فملكها وملك جميع تلك النواحي فانتهى ذلك الى امير المؤمنين يعقوب ، فخرج بالموحدين قاصدا مدينة بجاية ، فلما سمع علي بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد ، ونزل امير المؤمنين بالقرب من بجاية فتلقاه أهلها .. واستعمل على بجاية من اعيان الموحدين رجلا .. ثم سار حتى نزل مدينة تونس فجهز جيشا أمر عليهم رجلا من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب .. فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر .. وذلك أن الموحدين التقوا هم واصحاب علي بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزاما قبيحا واتبعهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه وهلك اكثرهم عطشا ورجع بقيتهم الى تونس حيث امير المؤمنين ، فلم شعثهم وجبر ما وهى من احوالهم وخرج بنفسه حتى لقي ابن غانية بموضع يعرف بالحامة : حامة دقيوس فما وقف أصحاب علي الا يسيرا حتى انكشفوا عنه وأبلى هو عذرا فأثخن جراحا وخرج فارا بنفسه فمات في خيمةلعجوز اعرابية، وكان حين خرج من ميرقة خرج معه من اخوته عبد الله ويحيى وابو بكر وسير ، فبقي هؤلاء ... بعد موت أخيهم علي من كان معهم من أصحابهم ثم راوا أن يقدموا عليهم يحيى لما راوا من شهامته وشجاعة نفسه فقدموه ثم لحقوا بالصحراء، فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك الى أن رجع امير المؤمنين من هذا الوجه ، وفي هذه السفرة انتقضت عليهم ايضا مدينة قفصة ونزع اهلها ايديهم من طاعتهم ، ودعوا للميرقيين ، فنزل عليها أمير المؤمنين ابو يوسف فحاصرها أشد الحصار ثم دخلها عنوة فقتل اهلها قتلا ذريعا ، بلغني أنه قتل اكثرهم ذبحا وامر بأسوارها فهدت .. ولما فرغ ابو يوسف من أمر افريقية كر راجعا الى المغرب ، ولم يزل يحيى بن غانية قائما بما كان يقوم به اخوه من تدبير الامور ... ولم يزل أمر يحيى بافريقية ينبه تارة ويخمل اخرى وله اخبار يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها (38) »

وكان يحيى بن غانية ارسل رسولا الى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد سنة 596 هـ يطلعه على ما آلت اليه حالهم من وفاة اخيه علي وتوليه الامر والحكم بعده ويستعينه على الموحدين ، ثم ان الناصر لدين الله ارسل رسولا هو ابن النطروني الاسكندري ثم البغدادي ، قال محب الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار المؤرخ في ترجمة : « عبد المنعم عبد العزيز بن أبي بكر بن عبد المؤمن ابو الفضل القرشي العبدري المعروف بابن النطروني، من اهل الاسكندرية، قدم بغداد واستوطنها ومدح بها الامام الناصر لدين الله بعدة قصائد ، وكان

---

36 ابو الربيع اسم كان وهو مؤخر ، وكلمة « الوالي » خبرها وهو مقدم ، ولا يصح غير هذا الاعراب .

37) ترجمة الذهبي في وفيات سنة 581 من كتاب تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس 1582 الورقة 4 » وفي كتابه « العبر في خبر من عبر 4 : 243 طبعة دولة الكويت » ، ونقل الذهبي هذه الاخبار من المعجب الى كتابه تاريخ الاسلام .

38) المعجب في تلخيص اخبار المغرب « ص 132 ، 176 — 182 » .

شاعرا مجيدا ، مليح الشعر فاضلا اديبا فقيها مالكيا ، مليح الشبيه ، حسن السمت . رتب شيخا برباط العميد بالجانب الغربي (من بغداد » وناظرا في اوقافه ثم نفذ رسولا من الديوان الى يحيى بن غانية الميورقي المقيم ببلاد المغرب ، الداعي الى الدولة العباسية ، فاقام هناك مدة طويلة ، وولده عبد العزيز ينوبه (39) في الرباط .

وقدم بغداد وقد حصل له مال طائل فرتب ناظرا في المارستان العضدي فلم يزل على ذلك الى حين وفاته .. توفي عبد المنعم بن التطروني يوم الجمعة لاربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة ودفن من الغد بالشونيزية » . وقد اوضح الامر تاج الدين ابن الساعي قال في ترجمة عبد المنعم المذكور : « وفي سنة ست وتسعين (وخمسمائة) ورد الى الديوان العزيز رسول من يحيى بن غانية الميرقي الداعي الى الدولة القاهرةوالعباسية — ادامها الله تعالى — ببلاد المغرب، وقضيت اشغاله ، ونفذ عبد المنعم المذكور رسولا معه من جانب الديوان العزيز وتوجه بطريق الشام ومصر فكانت سفرته الى أن عاد ثلاث سنين وشهورا وولي النظر بالمرستان العضدي بعد عوده (40) » .

وقد واصل بنو غانية نزاعهم لبني عبد المؤمن في افريقية بعد وفاة ابي يوسف يعقوب وذلك في عهد ابنه ابي عبد الله محمد ، واول شيء شرع فيه ابو محمد عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص والي افريقية من قبل ابي عبد الله المذكور تجهيز الجيوش الى افريقيــة لمحاربتهم ، قال عبد الواحد المراكشي : « وذلك ان يحيى بن اسحاق بن غانية المتقدم الذكر كان استولى على اكثر بلادها ايام اشتغل الموحدون عنه بغزو الروم، فاول جيش جهز من الموحدين الجيش الذي استعمل عليه (ابو عبد الله الخليفة) السيد ابا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ، لم ار له جيشا اضخم منه ولا اكثر سلاحا ولا احسن عدة ، وكان فيه من اعيان الموحدين واشياخهم جملة وافرة ، فسار ابو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والميرقيون فيما بين بجاية (41) وقسنطينية ، وبالقرب من قسنطينية (42) ، فانهزم الموحدون اصحاب ابي الحسن المذكور ، ورجع ابـو الحسن الى بجاية على حالة سيئة ، وجهز بعد هذا الجيش جيشا على مثله وامر عليهم من الموحدين ابا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير فسار الجيش حتى بلغ قسنطينية المغرب ثم استعمل امير المؤمنين ابو عبد الله على افريقية واعمالها السيد الاجل ابا زيد عبـد الرحمن بن عبد المؤمن وخرج هو في سنة 597 الـى تينملل (43) لزيارة قبر ابيه ابي يوسف وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ثم رجع الى مراكش واقام الى اول سنة 598 (44) فتجهز بجيوش ضخمة حتى اتى مدينة فاس ونزل بها واشاع انه يقصد افريقية ، هذا بعد ان بلغه ان الميرقي استولى على مدينة تونس وقبض على الوالي عليها عبد الرحمن ، فاقام بفاس ثلاثة اشهر وايايا وبدا له أن يبعث بعثا الى جزيرة ميرقة ليستأصل شأفة بني غانية ويقطع دابرهم ، فعمر الاسطــول والطرائد فيها الخيل والرجال واستعمل على الاسطول عمه ابا العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن وعلى الجيش ابا سعيد عثمان بن ابي حفص من اشيــاخ الموحدين فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عنوة وقتلا عبد الله بن اسحاق بن غانية الامير عليها ، وكان الذي قتله رجل من الاكراد يقال له عمر المقدم ... وكان دخولهما ميرقة وقتلهما اميرها المذكور في شهـــر ذي الحجة من سنة 599 فانتهبا امواله (45) وسبيا حريمه ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال في هيئة الاسارى فاما النساء فدخل بهن ليـلا فجعلـن في بعــض الخانات الى ان نفذ الامر بالمن عليهن واطلاقهن وتزويج

---

39) اراد « ينوب عنه » .

40) التاريخ المجدد لمدينة السلام بغداد « نسخــة المكتبة الظاهرية بدمشق ، من الورقة 26 الى الورقة 27 » .

41) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيـــون السير « 9 : 211 طبعة المطبعة السريانية ببغــداد سنة 1353 هـ = 1934 م » .

42) في المعجب « ص 210 طبعة مطبعة السعادة » (قسطنطينة) وهو تصحيف .

43) كتبها ياقوت الحموي في معجم البلدان « تين ملل » وقال : « الميم مفتوحة واللام الاولى مشـــددة مفتوحة : جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البرابر ، بين اولها ومراكش : سرير ملك بني عبد المؤمن اليوم نحو ثلاثة فراسخ ... » .

44) في المطبوع « سنة 609 » وهو تحريف ظاهر.

45) قال عبد الواحد : « وبلغني ان المتولين لفتحها انتهبوا منها اموالا عظيمة وذخائر نفيسة » .

من تحتاج الى التزويج منهن وتجهيزها بمال ، واما الرجال فلم يزالوا في الحبس الى ان من عليهم بعد ان ضمنهم اكابرهم واتخذوا اجنادا فهم كذلك الى اليوم... ثم رجع امير المؤمنين ابو عبد الله الى مراكش وبها اتصل به خبر فتح ميرقة وكان رجوعه الى مراكش في ذي القعدة من السنة المذكورة ... ولما كانت سنة 601 تجهز امير المؤمنين ابو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد افريقية ، وقد كان الميرقي يحيى بن غانية قد استولى خلا قسنطينية وبجاية ، هيأله ذلك غفلة الموحدين عنه واشتغال امير المؤمنين ابي يوسف بغزو الروم بالاندلس (46) ، على ما قدمناه ، فسار ابو عبد الله حتى نزل بلاد افريقية فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية : مهدية بني عبيد فانه أقام عليها اربعة اشهر قبل ان دخلها ، أوجب ذلك ما قدمناه من شدة منعتها ، وكان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لحا أبا الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن غانية فلما طال الحصار سلم البلد وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ثم بدا له أن يرجع الى الموحدين فارسل اليهم فتلقوه احسن لقاء ووصلوه من الصلات النفسية بما لا قيمة له ولا يصل بمثله ، الا الخلفاء ، وبعد هذا نزع اليهم اخو يحيى بن غانية (سير بن اسحاق بن محمد) فاكرموا نزله واقطعوه الاقطاع الواسعة بعد ان ملؤوا يديه بالاموال ، ولم يزل أبو عبد الله امير المؤمنين مقيما بافريقية يصلح ما أفسده ابن غانية الى ان تم له ما اراد من ذلك ، وبلغني ان جملة ما انفق في هذه السفرة مائة وعشرون حملا ذهبا ثم رجع الى مراكش دار الملك بعد أن ترك بافريقية من الموحدين واصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها واستعمل عليها من اشياخ الموحدين أبا عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص عمر اينتي » (47) .

قال المراكشي في كلامه على مدن افريقية :

« فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة الى هذا الوقت وهي أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها في مدة ملكهم وفي ملك ابي يعقوب منهم المملوك قراقش .. ثم ثم اخرجه منها المصامدة واستولى عليها ايضا يحيى بن غانية وعلى كثير من افريقية ، حسب ما تقدم تلخيصه ثم اخرجه عنها ايضا المصامدة فهي في ملكهم الى وقتنا هذا وهو سنة 621 » (48) . وكان هذا المؤرخ ذكر ابناء ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وذكر منهم موسى وقال : « توفي موسى بظاهر مدينة تاهرت قتله العرب اصحاب الميرقي في شهور سنة 605 » (49) . ولم يذكر المراكشي آخر ما آلت اليه حال يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقي لانه ختم تاريخه بحوادث سنة 621 ولانه انتقل الى مصر ، قال في ترجمة ابراهيم بن ابي يوسف يعقوب المؤمني : « وكان توديعي اياه — قدس الله روحه — آخر يوم من ذي الحجة سنة 613 ثم اتصلت بي وفاته وانا بصعيد مصر سنة 617 (50) » والظاهر انه أملى كتابه (المعجب) في مصر بطلب من احد اعيان الدولة يلقب بفخر الدين ، قال : « مع ان اصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به وانما بعثه عليه (الهمة الفخرية) — اعلى الله رتبها — » (51) والظاهر لي انه فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه (52) .

وقد ذكر زكي الدين عبد العظيم المنذري المصري خاتمة أمر يحيى بن غانية في وفيات سنة 633 هـ قال: « وفي آخر شوال توفي الامير الاجل ابو زكرياء يحيى ابن ابراهيم بن اسحاق بن حمو بن علي الصنهاجي الميورقي بالبرية من قطر تلمسان ، وكان خرج على بني عبد المؤمن ، ويقال ان خروجه كان من ميورقة في شعبان سنة ثمانية وخمسمائة واستولى على بلاد كثيرة ، وكان مشهورا بالشجاعة والاقدام . وحمو بفتح

---

46) اراد المؤرخ حملة بني غانية الثانية التي قال فيها : « ولم يزل أمر يحيى بافريقية ينبه تارة ويخمل اخرى وله اخبار يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها » وقد تقدم نقل هذا الخبر ، قال مصطفى جواد . وقد ذكر اخبار بني غانية الشيخ محمد بن ابي القاسم الرعيني في كتابه « المؤنس في اخبار افريقية وتونس » ص 114 وما بعدها ، طبعة الدولة التونسية سنة 1266 هـ » .
47) المعجب المذكور « ص 610 — 614 من الطبعة المذكورة » .
48) المعجب « ص 232 » .
49) المرجع المذكور « ص 221 » .
50) المذكور « ص 207 » .
51) المذكور « ص 230 »
52) راجع « السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي » في فهرست الجزء الاول من طبعة دار الكتب المصرية »

الحاء المهملة وبعدها ميم مشددة مضمومة وواو » (53)
وذكر ابن خلكان في ترجمة ابي يوسف يعقوب المؤمني اكثر اخبار بني غانية « الوفيات 2 : 489 وما بعدها ».
وذكر ابن السماع مؤرخ الدولة الحفصية المشهورة بتونس هذا « الميورقي » ذلك ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني مؤرخ تونس ، قال ناقلا في اخبار الخليفة يعقوب الملقب بالمنصور بالله : « وفي سنة خمس وثمانين (وخمسمائة) جاز يعقوب الى الاندلس فنازل اشترين واشبونة فنكى فيهما وسبى من النساء والذرية ثلاثة عشر الفا ورجع الى العدوة ونزل مدينة فاس فأتته الاخبار ان الميورقي اقام بافريقية فرحل عن فاس ودخل افريقية ونزل على تونس فوجد الاحوال ساكنة والميورقي فر امامه الى الصحراء حين سمع بقدوم امير المؤمنين يعقوب المنصور . قلت : ذكر ابن السماع — رحمه الله — الميورقي ولم يستوفه من حقه (54) وها انا اذكره هنا لاتمام الفائدة : هو علي ابن اسحاق بن حموية (كذا) الصنهاجي صاحب ميورقة ومنورقة ويابسة ثلاثة جزر في البحر ، توفي ابـوه اسحاق سنة ثمانين وخمسمائة وخلف أولادا : فعلي هذا ويحيى اخوه خرجا الى افريقية وصنعا العجائب بها واخوهما محمد خدم دولة الموحدين واخوهم عبد الله وهو اصغرهم ملك ميورقة وعصى الناصر بن المنصور فترك اليه لما دخل افريقية سنة اثنتين وستمائة وحاصر الناصر ميورقة فمات عبد الله بن اسحاق في تلك الحروب فحمل راسه الى مراكش وعلقت جثته على سـور ميورقة ، ولم تزل ميورقة في يد المسلمين الى سنـة سبع وعشرين وستمائة اخذها عدو الدين (55) ، كما اخذ غيرها — اعادها الله للاسلام بمنه وكرمه (56) — .
واما علي غانه عاث بافريقية عند اشتغال امير المؤمنين يعقوب المنصور ببلاد الاندلس فلما سمع به تحرك اليه في هذه السنة ففر امامه ، ولما رجع امير المؤمنين الى المغرب رجع الميورقي الى افريقية وملك المهدية وتونس وعسف عماله عماله على تونس والزم اهلها مائة الف دينار ، ولم يزل متماديا على حاله في الفساد (57) حتى تحرك اليه الناصر بن المنصور وكانت له وقعـات وحروب وسيأتي بقية خبره عند ذكر الناصر ، وكان الميورقي شجاعا مقداما وتوفي سنة ثلاث وثلاثـين وستمائة في زمن بني حفص ، ذكره غير ابن السماع ، ولما فر الميورقي الى الصحراء رجع أمير المؤمنين يعقوب المنصور الى المغرب بعد ما سكن احوال افريقية (58)»
فالرعيني في هذا الخبر نسب الحوادث كلها الى ابن غانية علي وحده حتى الوفاة المؤرخة بسنة 633 مع انها وفاة اخيه يحيى ، كما قدمناه نقلا من تاريخ المزكي المنذري ، ثم قال في ترجمة محمد الناصر المؤمنـي :
« ولما وصل الى جزائر بني مزغنة امر بانشاء اساطيل واخذ في تجهيز العساكر الى ميورقة ففتحها وقتـل صاحبها عبد الله بن اسحاق (ابن غانية) وفر اخوه يحيى ودخل الصحراء ، ووصل الناصر الى افريقية فاطاعه كل من عصى عليه ما عدا المهدية لان العامل بها من قبل الميورقي وكان شهما صاحب دهاء فحاصره بها ونصب عليها المجانيق فلما راى العامل ان لا طاقة له بقتال الناصر ركن الى الصلح فصالحه وعفا عنه وكان فتحها سنة احدى وستمائة (59) » . وارتكب الرعيني هنا غلطا آخر هو زعمه ان يحيى بن غانية فر من ميورقة الى الصحراء بعد احتلال الناصر المؤمني لجزيرة ميورقة ، وقد اشرنا آنفا أن يحيى كان مع اخيه علي فلما توفي أخوه جريحا جعله الميورقيون وأتباعهم مكانه وهو الذي توفي سنة 633 هـ وبموته انقطعت ثورة بني غانية واستمرت دولة بني عبد المؤمن على سيرتها متجهة نحو التضاؤل والانحلال حتى قرضها بنو مرين ، على ما هو مسطور في التواريخ الخاصة بذلك.

ومن قضايا الصراع السياسي بين الناصر لدين الله العباسي ما ذكره السيد محمد الحسن الحسيني الشافعي الداعي الى الدولة الحفصية بتونس من أن

53) التكملة لوفيات النقلة « نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية 1982 ج 2 ص 180 » .
54) هكذا وردت العبارة وقد اراد قائلها « ولم يوفه حقه » ولكن اللغة في القرن الحادي عشر للهجـرة ضعفت .
55) الظاهر انه اراد بعدو الدين « ملك اسبانية » وكلامه يشبه كلام ابن خلكان في الوفيات « 2 : 494 »
56) هذا معناه ان القرن الحادي عشر للهجرة المسلخ وهي في حكم عدو الله والدين .
57) كل ما ذكره هذا المؤرخ يدل على أنه نقله مـن تاريخ مؤرخ متعصب لبني عبد المؤمن .
58) المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابي عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن ابي دينار « ص 114 من طبعة مطبعة الدولة التونسية سنة 1286 هـ » .
59) المرجع المذكور « ص 117 » .

القاضي الحافظ محمد بن سلامة القضاعي المصري (60) الف في الانساب كتاب « الاستقصا في نسب من اقصى » وذكر فيه انساب من اقصى » وفيه انساب القبائل في افريقية الشمالية ، على التسمية العصرية، ومنهم « بنو ولهاصة » من النطارين الخوارج ، قال مؤلف التحفة : « ولم يزل الكتاب المذكور في خزانة الخلفاء المصريين الى ان مضت ايامهم واستولى السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شاذ بن مروان بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (61) .... واثاريه على خزائنهم .. فوقع الكتاب فيما حصل للسلطان تقي الدين ابن اخي السلطان صلاح الدين يوسف .. وكنت هاجرت الى الشيخ السيف (سيف (سيف الدين الآمدي) لاشتغل عليه ، ففي اثناء مدة الاشتغال اخرج السلطان الملك المنصور (بن تقي الدين الايوبي) الكتب التي في خزائنه لتنقح وتنفض وجمع فقهاء المدرسة لذلك ، فوقع الكتاب في يدي وهو (الاستقصا في تعريف نسب من اقصى) وكنت ذاكرا لسماعي به فاغتبطت به فلم تمض ايام قلائل والا قد جاء نجابون من عند الخليفة يومئذ الامام احمد الناصر (العباسي) بتسيير الكتاب في اسرع وقت ، وشدد النكير في اخراجه ، فدفع في الوقت وحمل الى مدينة بغداد — اعادها الله للمسلمين بمنه وكرمه — » (62). والظاهر ان الخبر ان صح اريد به منع الخليفة الناصر لدين الله العباسي انتشار الكتاب لما فيه من تلفيق الانساب ، لئلا يستفيد منه الافريقيون الذين لم يصح انتسابهم الى العرب بقبيلة عبد المؤمن وذريته ، الا ترى أن صاحب التحفة المذكورة وكان من مزوري الانساب فيما علمت يقول في تحفته : « قال السيدان الشريفان بالنقيب ابو علي محمد ابن الامام اسعد الجواني وابن عمته الشريف شيخ الشرف ابو جعفر بن الجوانية : ان من ذرية العباس (بن علي بن ابي طالب) السقاء المذكور بني عبد المؤمن الذي بالمغرب وهو عبد المؤمن بن علي بن غسان بن نصر بن ابي العلاء محمد ابن عبد الله — ويدعى المقاتل — بن علي بن عون بن حمزة بن الحسن بن عبيد الله بن الحسن بن عبد الله ابن العباس السقاء ابن امير المؤمنين علي — كرم الله وجهه — وكان بعض سلف عبد المؤمن لما نزل ببني كومي بن الناصر بن عبد الله بن ابراهيم .. بن قيس عيلان نسبوه اليه ولا صحة لذلك ، والحق ما رويناه لك . ويأتي ذكره في موضعه » (63) . فالناصر خشي أن يكون في كتاب « الاستقصا في تعريف نسب من اقصى » مثل هذا النسب فيحتج به بنو عبد المؤمن ، ويزدادوا تقربا من استحقاق الخلافة بكونهم علويين لان الخلافة في قريش . ثم قال مؤلف التحفة : « ومن بني العباس (بن علي بن ابي طالب) هذا عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب ، نائب المهدي ابي عبد الله محمد ابن تومرت الفاطمي العلوي الحسني الادريسي (كذا) على رأي السيد الشريف شيخ الشرف ابي جعفر النسابة وبسط ذلك بسطا كثيرا نذكره في غير هذا المختصر » (64) . ثم قال يذكر دراسته على الشريف محمد بن اسعد الجواني — وكان متهما بالكذب — علم الانساب : « وكان يقرئنا : خمسة نفر علويين حفظا لا يمكننا من الكتب فرقا من الذي يجب كتمانه من اتصال القبائل بالعرب والملاحم خوفا من الدولة العباسية وذلك انهم عاقبوا جماعة من المؤرخين العلويين وغيرهم » (65) . وذكر الاسباب التي بعثته على تاليف التحفة وهي في الحقيقة تحفة لذوي الانساب المزورة ، وقال فيما قال : « السبب الثاني لجمع هذه المقدمة اتصال كل من ذكر اتصاله باصله من المغرب » (66) .

ولما اضطربت احوال الغازي المجاهد الكبير صلاح الدين يوسف بن ايوب وضيق الفرنج الصليبيون الحصار على عكا بفلسطين ارسل رسولا الى الخليفة

---

60) في كتابه « التحفة في نظم اصول الانساب وبيان اتصال من انخزع عن اصله من ذوي الاحساب » وهو كتاب فيه تلفيق للانساب وتزوير ظاهر ، واراه اولى بان يسمى « نظم اختراعات الانساب » .

61) هذا النسب المزور وتلفيقات مؤلف « التحفة » وما اكثر تلفيقاته !!

62) التحفة في نظم اصول الانساب وبيان اتصال من انخزع عن اصله من ذوي الاحساب » نسخة دار الكتب الوطنية بباريز 2048 الورقة 18 » ودعاء المؤلف باعادة بغداد الى المسلمين سببه ان المغول كانوا قد استولوا عليها سنة 656 والف كتاب التحفة سنة 659 .

63) المرجع المذكور « الورقة 12 » .

64) المذكور « الورقة 107 »

65) المذكور « الورقة 202 » .

66) المذكور « و 203 » .

المؤمني ابي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب الى الديار المصرية وساحل الشام ولم يخاطبه في كتابه بلقب (امير المؤمنين) بل خاطبه بأمير المسلمين ، فعز ذلك عليه ولم يجبه الى طلبه من النجدة » (67) .

وكان هذا من الصراع السياسي بين الخليفتين المنصور المؤمني والناصر لدين الله العباسي ، فالملك العظيم صلاح الدين لم يكن يعترف بخلافة المنصور المؤمني حتى يلقبه بأمير المؤمنين وهو لقب الخليفة الشرعي عنده ، فضلا عن انه كان يخطب على جميع المنابر في مملكته باسم الخليفة الناصر لدين الله العباسي وقد استولى على ما استولى عليه من البلاد باسم الدولة العباسية ، وتقليد تملكه صادر منها ليكون شرعيا ، فلذلك سمى المؤمني بأمير المسلمين .

ومن الصراع السياسي بين الخليفتين ان ابا عبد الله محمد بن ابي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما بويع بالخلافة سنة 595 تلقب بالناصر لدين الله وهو لقب الخليفة ابي العباس احمد الناصر لدين الله العباسي منذ سنة 575 فهو قد نازع الخليفة العباسي في لقبه ثم توفي سنة « 610 » (68) والخليفة العباسي حي يرزق ، وتولى الخلافة المؤمنية ابو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب وتلقب بالمستنصر بالله ، ثم توفي سنة (620) (69) والمستنصر هذا عاصر الناصر لدين الله العباسي ايضا كجده وابيه وتوفي والناصر العباسي حي يرزق ، ولم يخلف المستنصر بالله ابو يعقوب ابنا فاتفق ارباب الدولة على تولية ابي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن لكبر سنه ووفور علمه ، كما قال ابن خلكان ، فلم يحسن التدبير ولا دارى اهل دولته فخلعوه وخنقوه بعد تسعة اشهر من ولايته ، والناصر لدين الله العباسي أيامئذ في الاحياء ، وخلاصة الامر ان الناصر لدين الله العباسي لم يمت حتى ترددت خلافة بني عبد المؤمن بالمغرب ، وفي سنة 623 بويع الخليفة العباسي منصور حفيد الخليفة الناصر لدين الله وتلقب بالمستنصر بالله وهو لقب الخليفة المؤمني المذكور آنفا أبي يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب ، وكان ذلك من الصراع السياسي الخفي ايضا بين الخلافتين ، هذا ما خطر بالبال فسجلناه بالرجوع الى مراجعه حين عن لنا موضوع الصراع الخفي المذكور الذي لم يبحث عنه مؤرخ قديم ولا عصري .

بغداد — مصطفى جواد

---

67) وفيات الاعيان « 2 : 494 طبعة بلاد العجم وهي أصح الطبعات الى الآن » .
68) المعجب « ص 205 — 216 » والوفيات « 2 : 495 »
69) المرجعان المذكوران « الاول ص 217 » والثاني « ص 495 » .

الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة

للأستاذ دانيل ماك كول — عربه عن الانجليزية الأستاذ محمد الحماوي

« 2 »

3) الرواية التاريخية عن مدرار

نرى في كلتي الروايتين المذكورتين فيما قبل ان التاريخ قد حدد ، اما هذه الرواية فلم يذكر لها اي تاريخ ، كما انها محاطة بكثير من الشكوك ، ومناقضة للروايتين السابقتين ، ومن ثم فقد كانت دائما محل تشويش للمعلقين ، وهاهي ذي الرواية كما يحدثنا عنها البكري، قال : « وذكر آخرون ان مدرارا كان حدادا من ربضية الاندلس ، فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة ، وموضع سجلماسة ، اذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون القرب ، فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد ، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله فكان ذلك اصل عمارتها ، ثم تمدنت ، والاول اصح في عمارتها ، واما مدرار فلا شك انه كان حدادا ، لان ولده القائمين بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك » . وقد تجاهل ابن عذارى وابن خلدون هذه الرواية ، فاما لانهما قد شكا في صحتها ، واما لانهما لم يعلما اي شيء عماذا تعنيه . والا فمما لا شك فيه انهما قد اطلعا على مؤلف البكري ، والبكري نفسه لم يعط للرواية كبير اهتمام ، وانما ذكرها بالمناسبة ، وانه لمن الصعب ان تتفق هذه الرواية مع الرواية عن ابي القاسم الذى ذكر انه كان جدا لمدرار ، اذ كيف يعقل ان يبني مدرار هذا ، المدينة ، اذ كان جده قد بناها من قبل ؟ او كان عيسى هو الذى قد بناها في ايام جده ؟ وانه لغريب حقا ان ينسب بناء المدينة الى الثالث من رجال دولتها الاولى ، وقد وضع البكري سلسلة نسب هذه الدولة حين قال : « ابو القاسم سمجوا بن واسول المكناسي ابو اليسع المذكور وجد مدرار » ، وابن عذارى وابن خلدون قد اتفقا كذلك على رتبة مدرار في الدولة . على ان ترتيب الحوادث التاريخية وتعيين ازمنتها يضع امامنا مشكلة كذلك، فالبكري لم يعين لهذه الرواية اي تاريخ محدد ، ويقترح دوسلان في حاشية له اسفل الصفحة تحت هذا الكلام طريقة لتوريخ خروج مدرار من اسبانيا حين يقول : « في الثالث عشر من رمضان سنة 202 هـ (1) (نهاية مارس 818 م) نشبت ثورة في الارباض على الناحية الجنوبية من قرطبة ، وقد وضع الحكم ثالث الخلفاء الموحدين نفسه على راس حرسه وهجم على المتمردين ، وقام فيهم بمجزرة مرعبة ، واعطى اوامره بتهديم جميع الدور بما في ذلك المساجد ، حتى اصبحت هذه الناحية التى كانت آهلة بالسكان قاعا صفصفا ، وارغم السكان على الفرار فذهب البعض الى طليطلة ، والبعض الى اراضي البربر من افريقيا الشمالية ، وشكل آخرون كتائب من خمسة عشر الف رجل وذهبوا الى الاسكندرية » .

ولكن اذا كان مدرار لم يصل الى المغرب حتى سنة 818 ميلادية ، ثم بعد ذلك بزمان اخذ يذهب باستمرار الى السوق على وادي زيز ، واخيرا اقام

(1) للاطلاع على تفاصيل هذه الوقعة واختلاف روايات المؤرخين في تحديد سنة وقوعها راجع تاريخ دولة الاسلام في الاندلس ج 1 ص 240) للاستاذ عبد الله عنان

المترجم

هناك في خيمة ، وعندما بنيت المدينة تطورت تدريجيا ، فان هذا يتعارض مع التواريخ الحقيقية المعينة لحوادث خاصة ، مثل بناء السور العظيم الذي رفع من الحجر والآجر ونسب الى سنة 199 هـ (15 — 814) ثم تقع في مشكلة انساب رجال الدولة، حيث نجد ان هذا السور قد قام ببنائه اليسع ابو مدرار . قد يكون دوسلان محقا في ان هذه هي الثورة التي كان يعنيها البكري عندما كان يكتب ، ولكن البكري ربما اختلطت عليه او على مصادره الثورة الشهيرة باخرى اقل منها ، اذ ان هناك عدة سلسلات من الثورات كانت قد وقعت في اسبانيا ابتداء من 740 م ، فبالاضافة الى ثورات البربر ضد السيطرة العربية كانت هناك ثورات المولدين الاسبان (الداخلون في الاسلام) ، ومن بعيد الاحتمال ان يكون مدرارمولدا اسبانيا اكثر من ان يكون واحدا من كثير من البرابرة الذين هاجروا الى اسبانيا ، والاقرب الى الاحتمال انه كان مكناسيا ، فاذا فرضنا ان الثورة الاسبانية كانت احدى الثورات المبكرة ، فاننا نستطيع بهذه الطريقة ان نحل مشكلة تناقض ترتيب السنوات غير ان المشكلة التي يثيرها امامنا تسلسل نسب الدولة تبقى معلقة ، فلناخذ اذن بطريقة اخرى، ذلك ان قصة مغامرات مدرار في اسبانيا لا تشكل اية صعوبة اذا ابتعدنا بها عن قصة بناء المدينة ، ونظرنا اليها فقط كمجرد تفاصيل عن احد رجال الدولة ، فمن الممكن ان يكون مدرار قد ذهب الى اسبانيا كشاب في الوقت الذي كان فيه والده يباشر بناء اسوار المدينة ، ويمكن ان يكون قد زاول هناك حرفة حداد (وان كان ذلك ربما كان غير مناسب لمقامه كوارث دولة) ، وشارك في ثورة قرطبة ، ثم رجع الى سجلماسة لياخذ في النهاية مكانة في خلافة الدولة، غير ان هذا الحل غير ممكن لانه يوجد هناك سبب آخر يجعلنا ناخذ رواية مدرار على انها رواية لها بعض معاني ، ذلك ان الدولة التي اسسها ابو القاسم قد عرفت بدولة بني مدرار ، يعني حفدة مدرار ! فلماذا يرتبط اسم الدولة باسم العضو الثالث في سلسلة نسبها ؟ مع انه ليس فقط ذلك الذي لم يرق رتبة الشرف وعلو المنزلة الا بفضل جده وابيه ، بل انه لم يصل الى مقام ابيه الذي اشتهر كحاكم ممتاز ، والذي كان اول من اطلق عليه لقب (المنتصر) لانه هو الذي اخضع باقي اراضي جنوب الاطلس ، وادخل وادي درعة تحت سيطرة الدولة ، وبنى القصور والحصون، على حين ان ابنه مدرارا كان رجلا خاملا وعديم الفائدة، غير قادر حتى على ضبط ابنائه المتشاجرين .

وربما كان هذا كله مبعث اضطراب لابن خلدون حمله ، وهو المولع بالتدقيق والتنظيم ، على ان يحذف رواية مدرار ، وينفرد من بين اقدم المؤرخين الذين سبقوه بتسمية الدولة باسم (بنو واسول) ، وهي تسمية اقرب الى المنطق ، اذا اخذنا برواية ابي القاسم على انها رواية قطعية . على ان اشتراك شخصين في اسم واحد — وهو حادث كثير الوقوع — قد يمكننا من أن نحمل الرواية على انها تقصد اقدم مؤسس المدينة، ولكن ما هي العلاقة حينئذ بين مدرار الاقدم، ومدرار حفيد ابي القاسم ؟ ، هناك سبب واحد يحمل على الظن بان هذه الرواية عن مدرار هي اقدم رواية يرجع اصلها الى ما قبل الاسلام ، وهذا السبب هو ان هناك اشياء غريبة عن مدرار هذا ، فالحدادون كانوا يعتبرون في كثير من جهات البحر الابيض المتوسط، وبعض اجزاء افريقيا ، والجزيرة العربية ، وكانهم يملكون بعض القوى الخفية. وان تجريد الاسم ، وغموض الحداد ، وربما كانا شيئين ليسا بعيدي الصلة ، فالبكري لم يعطه اي اسم او لقب من الاسماء والالقاب الشائعة في الاستعمال الاسلامي (2)،

---

(2) يعني في النص الذي يتعلق برواية بناء مدرار للمدينة ، اما عندما اخذ البكري يتكلم بعد على تعاقب رجال الدولة على الحكم ، فقد جاءت عبارته كما يلي :

« والى ابنه مدرار المنتصر بن اليسع ، ومدرار لقب » (المغرب ص 150). فاذا نظرنا الى هذه العبارة في ظاهرها وصريحها نجد ان البكري قد اعتبر ان (المنتصر) هو الاسم ، وان (مدرار) هو اللقب ، وحينئذ يكون قد ابتعد عن الاستعمال التاريخي لتلقيب الملوك والامراء في عهود ما بعد الصحابة.
اما ابن عذارى فقد جاءت عبارته صريحة في اعتبار (مدرار) اسما لرجل دولة لم يستحق أي لقب ، وذلك حين يقول : « ثم ولى بعده ابنه مدرار بن اليسع » (المغرب ج 1 ص 217) ، ثم يعيد التصريح بتخصيص لقب (المنتصر) بالاب الذي هو اليسع حين يقول : « وهو المنتصر بن سمغون المتقدم ذكره » . ثم ياتي ابن خلدون فيخالف كلا من البكري وابن عذارى وياتي باسم مدرار ملقبا بالمنتصر كما جرت العادة في الاستعمال التاريخي الاسلامي حين يقول : « وولي مدرار ، ولقبه المنتصر » (العبر ج 6 ص 131) .
المترجم

حقا ان ابن خلدون اضاف لقب (المنتصر) الى مدرار ، ولكن هذا اللقب اكتسبه ابوه من قبله ، كما انه اطلق على التوالي (وبدون استحقاق) على عدة اعضاء من رجال الدولة الذين اتوا بعد مدرار ، والمسعودي اطلق عليهم اسم (بنو المنتصر) . وربما كانت الرغبة في التحقيق ايضا هي التي حملت ابن خلدون على ان يخالف من سبقه من المؤرخين ويطلق اللقب على مدرار ، الشيء الذي لم يستعمل في المؤلفات التي وصلت الى ايدينا . فاذا كانت هذه الرواية تشير الى حداد سحري حكيم ، قد اسس المدينة قبل وصول مكناسة اليها ، فكيف اذن اشتبهت قصة مدرار الاقدم بقصة مدرار حفيد ابي القاسم ؟ ويظهر بادىء ذي بدء ان سبب ذلك هو انه ربما كان سميا له ؟! ولكن ذلك ليس بكاف لتبرير اطلاق اسم (بنو مدرار) على الدولة ، ولا لتلك المسبات التي كانت الدولة تتالم منها من اجل احتراف اجدادهم الاعلين لصنعة الحدادة، من الممكن ان تتناسب رواية مدرار مع روايتي ابي القاسم وعيسى بطريقة اخرى هي هذه ، ذلك انه اذا كان مدرار الذى اسس مدينة سجلماسة في زمن اقدم من زمن عيسى ، وكان عيسى حاكما متاصلا في الحكم هناك ، فليس من البعيد حينئذ ان مدرارا هذا كان جدا اعلى لعيسى، وبعد عزل عيسى يمكن أن يكون ابو القاسم قد احتاج الى تعضيد قوم عيسى ، لانه لم يكن ذا مركز ثابت فيهم ، وما ثم توقف على مساعدة ابي الخطاب ، واكبر الظن انه قد زوج ابنه احدى سلايل البيت العيسوي قصد ان يكسب التعضيد التام من السكان المحليين . ذلك انه بهذه الصفة يصبح ولدها اول حاكم شرعي للدولة الجديدة في اعين السكان المحليين ، وربما لتقوية ذلك اعطى هذا الولد اسم (مدرار) الذى يستدعي الرواية القديمة ، وبهذا يمكننا ان نفسر تسمية الدولة بمد الثالث من حكامها ، كما انه في الوقت نفسه يجعل من المعقول تجنب الكنى والالقاب التي تثلم شرف الاسم القديم . لقد كان في امكاننا ان نضع رايا نهائيا على هذا الاساس ، لو اننا استطعنا ان نقيم هذه الافتراضات على مقياس التجربة والاختبار ، ولكننا لا نستطيع ذلك، لاننا لا نعرف من كانت ام مدرار . ومن الغريب ان اول رجل من رجال الدولة ذكرت زوجتاه هو مدرار نفسه ، وربما كان ذلك لانه كان له ولدان باسم واحد ، والطريقة الوحيدة التي امكن بها تمييز كل واحد عن الآخر هي اضافة اسم امه اليه ، لقد كانت احدى زوجتي مدرار هي أروى بنت رستم مؤسس مملكة تاهرت المجاورة ، التي كانت كذلك دولة خارجية (3) ، وحليفا طبيعيا لدولة سجلماسة .

والزوجة الاخرى ذكرت فقط باسم مجرد دون اي اشارة الى اجدادها ، وقد صور دوسلان اسمها بالاحرف اللاتينية هكذا Elteki وذكر في حاشيته ان المخطوطات المختلفة قد قدمت اشكالا متنوعة لهذا الاسم باختلاف كبير هكذا :

(4) El Baki, Baghi, Yefi, Thakia

وبالرغم عن هذا الاختلاف الكبير في النطق ، فان هذه الكتابات جميعها ليست سوى تصوير بالخط العربي لاسم غير مفهوم ، والذى يظهر من هذا كله هو ان اسما غير معروف قد حرف باغلاط النساخ المتاخرين، وقد يدل هذا على ان الاسم الاصلي ربما كان اسما غير عربي ، فهل كان اذن اسما بربريا ؟.

---

(3) في موضوع انتشار المذهب الخارجي في المغرب يقول ابن خلدون ج 7 ص 24 طبعة بيروت : « لما استاثلت دولة بني امية كثرت الخارجية في البربر وملك ورفجومة القيروان ، وهوارة وزناتة طرابلس ، ومكناسة سجلماسة ، وابن رستم تاهرت ». وابن رستم هذا هو عبد الرحمن بن رستم الفارسي الاصل الاباضي المذهب ، دخل افريقيا في اوائل الفتح الاسلامي ، استخلفه ابو الخطاب المعافري الاباضي على القيروان سنة 141 ولما انهزم البرابرة الاباضيون على يد ابن الاشعث وقتل ابو الخطاب فر عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الاوسط والتحق بالاباضية هناك فبايعوه بالخلافة ، واسس مدينة تاهرت التي اصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الرستمية الخارجية التي استمر حكمها بالجزائر 130 سنة الى ان سقطت على يد العبيديين . انظر اخبار تاهرت واخبار الدولة الرستمية في البكري المغرب ص 66 – 67 ، وابن عذارى ج 1 ص 278 طبعة بيروت. ابن خلدون ج. 6 ص 246 – 247 طبعة بيروت . وعن حضارة الدولة الرستمية ونظام الحكم فيها ، انظر التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعاك ص 167 ، وكتاب الجزائر لاحمد توفيق ص 20 – 21 – 22 .
المترجم

(4) ورد اسمها عند البكري ، ثقية ، وعند ابن عذارى بقية ، وعند ابن خلدون في طبعة مصر : بغي . وفي طبعة الجزائر وبيروت : تقي .
المترجم

ذلك ما لم استطع ان اثبته حتى الآن ، غير ان النسخ المغربية قد اشتملت على اسماء مؤنثة اكثر شيوعا ، وحتى اذا كان اسما بربريا فمما لا شك فيه انه كان اسما غير عادي ، وقد يكون اسما لسكان اهليين ، ولكننا لا نستطيع ابدا ان نقيم الحجة على ذلك، لاننا لا نعرف اي شيء عن لغة البروروسيين القدماء The Perorsi ، ولا عن اية لغة اخرى من لغات السود الصحراويين الذين كانوا يعيشون في المغرب الشمالي قبل البرابرة ، وهذا مع الاسف يجعلنا لا نستطيع ان نستمر في البحث اكثر ، والذي يستفاد من هذا كله هو ان الاسم اذا كان يوحي الينا بان مدرارا قد تزوج بامراة حرطانية ، فان ذلك يدل على موقف يختلف تمام الاختلاف عما هو واقع اليوم تجاه الزواج بهذا الرهط المنبوذ ، فاذا كان الرجال البرابرة في سالف الايام قد رغبوا في الزواج من نساء السود المحليين، على الاقل لاسباب سياسية، فان ابن ابي القاسم يمكن ان يكون قد فعل ذلك ، وابنه مدرار يمكن ان يكون كذلك قد تزوج من رهط امه، زد على ذلك انه اذا كان السكان المحليون السود حينئذ عاملا سياسيا في اوائل دولة بني مدرار فان النزاع بين بني مدرار يمكن ان يكون له مغزاه في هذا التناحر السلالي ، لقد فضل مدرار ابن بنت ابن رستم ، ولكن شعب سجلماسة تدخل فعضد ابن تقية ، وابن خلدون الذي يقدم لنا هذا التفصيل لم يتحدث لنا عن اي شيء اكثر من نزاع الاشخاص ، لذلك فان كل ما تقدم يحتوي على قدر كبير من الافتراض ، وينبغي ان ينظر اليه بالقدر اللازم من الاحتراس .

لقد نسب بناء مدينة سجلماسة الى ضابط جيش روماني في تاريخ غير معين ، وقد ذكر هذه الرواية مؤلف عربي واحد لم يكن يكتب لجمهور عربي . ففي القرن السادس عشر كتب ليون الافريقي (5) الذي زار الناحية قبل اسره من قبل الايطاليين يقول :

« يذهب البعض الى ان هذه المدينة قد اسسها قائد جيش روماني كان قد قاد جنوده شمال موريطانيا واحتل نوميديا متوجها نحو الغرب حيث بنى مدينة سماها سيجيليوم مسة « Sigillummesse » سميت بهذا الاسم لانها وقعت على تخوم ماسة « Messa » وبتحريف الكلمة اصبحت تدعى سجلماسة « Segelmesse » وقد علقت دائرة المعارف الاسلامية على هذا فقالت : « وفي هذه الرواية نجد اشارة صريحة للحملة العسكرية الرومانية التي قادها كل من سوتونيوس بولينوس وهو سديوس جيتا جنوب المغرب الاطلسي في سنة 41 ميلادية » . وجميع التعاليق الاخرى التي وقفت عليها تشير الى نفس الارتباط ، غير ان من المحتمل ان تكون هناك عدة ارتباطات تاريخية اخرى ، فبالرغم عما يثبته بليني (6) حين يقول : « ان اول امراء حاربت فيها القوات المسلحة الرومانية في موريطانيا كانت في ايام كلوديوس (7)، وان من المحقق ان جنودنا قد وصلت الى حدود الاطلس المغربي تتابع غزوها للاهالي المغلوبين ، وان فخر روما لم يكن فقط بقناصلها وقوادها الحربيين الذين استطاعوا ان يخترقوا سلسلة جبال الاطلس، ولكن فخرها كان كذلك بساداتها الذين حكموا البلاد بتتابع » — فان هذا مع

---

(5) راجع التعليق رقم (2) من «دعوة الحق» العدد السابق ص 50

المترجم

(6) راجع التعليق رقم 1 (دعوة الحق) العدد السابق رقم 59

المترجم

(7) هوكلوديوس بن دروسس ، احد اباطرة الرومان الذي تولى حكم الامبراطورية الرومانية بعد جايوس كاليجيولا من سنة 41 الى سنة 54 ميلادية ، وكان اهم حادث وقع في عهده هو احتلال لبريطانيا سنة 43 ميلادية . وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية (مادة (Claudius) وول ديورانت (قصة الحضارة ج 11 ص 35) ان كلوديوس هو الذي الحق موريطانيا بالامبراطورية الرومانية ، وقسمها الى موريطانيا القيصرية في الشرق، وموريطانيا الطنجية في الغرب ، اما الاستاذ احمد صفر صاحب كتاب (مدنية المغرب العربي في التاريخ ، فقد ذكر (ج 1 ص 291 — 305 ، ان كاليجيولا هو الذي الحق موريطانيا بالامبراطورية الرومانية ، وقسمها الى ولايتين رومانيتين جديدتين بعد ان قتل الملك بطليموس ابن يوبا الثاني ، وقضى على الثورة البربرية التي قامت في عهده بزعامة الزعيم البربري ايدامون ، تحت قيادة القائد الروماني سوتونيوس بولينوس المذكور في النص الذي نقله الكاتب عن دائرة المعارف الاسلامية .

المترجم

مع ذلك لم يكن اول استخدام للجيوش الرومانية فى هذه الناحية ، ولكنه كان فقط اول استخدام لها بعد ان خضعت موريطانيا واصبحت مقاطعة رومانية .

بل ان يوبا الثاني (8) كان اكثر من اداة طبيعية فى يد اغسطس « Augustus » وكورنليوس لوتليوس كوسوس هو الذى سحق ثورة قبائل جدالة Gaetulians فى السنة السادسة من ميلاد المسيح .

وقد كتب مومسن (9) الذي تحدث عن المقاطعات بمثل ما تحدث عن روما ، يقول : « لقد دعت الحاجة الملك يوبا الثاني اكثر ما مرة لان يلتمس المساعدة من الحاكم الروماني ضد الجداليين » .

ان جنودا من هذا النوع ، لم يكونوا تحت مراقبة عسكرية لفيلق منظم ،قد اعيروا اصاحب سلطة مجاور ، ليستعين بهم على استتباب الامن فى مناطق نفوذه التى لم يستطع هو بمفرده ان يسيطر عليها بالقدر الذى يلزم — جنود من هذا النوع ، ربما كانت لهم الفرصة التامة لان يؤسسوا قاعدة عسكرية امامية، بل ربما كان الدافع المضاعف لان يقوم هؤلاء الجنود بما قاموا به هو ما قد ثبت لديهم من قبل من دلائل التجارة الرابحة التى من اجلها كانت للبلاد شهرتها المعروفة . وفى الوقت الذى عثر فيه على قطعتين من النقود الرومانية فى الصحراء عبر طريق معبدة جنوب سجلماسة ، اصبح النشاط الروماني فى هذه الناحية امرا قابلا للتصديق، ان جميع هذه المصادر غير محددة جغرافيا بالقدر الذى تمنيناها ان تكون ، ذلك ان قبائل جدالة كانت منتشرة على مسافة كبيرة من تلك الاراضي، كما ان العمليات العسكرية التى قام بها يوبا الثاني ربما امتدت بعض الشيء الى بعد نقطة شرقا ، بل ان الاقرب الى التصديق ان البعثة الحربية التى قادها سوتنيوس قد اخترقت وادي زيز . وبالرغم عما ثبت من ان كلا من سوتنيوس وجيتا قد نقلا فيما بعد لاحتلال بريطانيا، فان النص المنقول عن بليني يثبت ان مراقبة دائمة استمرت زمنا فى هذه الناحية من الاطلس الجنوبي ، وقد اخبرني طبيب فى مستشفى ارفود بانه قد وجدت بالقرب من هذه الناحية بعض الاطلال التى تأكد انها كانت اطلالا رومانية ، كما ان الناشرين للترجمة الفرنسية الجديدة لمؤلف ليو الافريقي قد اخبرونا بان بعض الآثار قد وجدت فى هذه الناحية، واعتبرت وكأنها اطلال رومانية ، غير ان نسبتها الى الرومان لا تزال لم تتأكد بعد .

ان ليو هو المؤلف العربي الوحيد الذى اشار الى اصل ومعنى الاسم (سجلماسة) ، وقد كانت مدينة ماسة تقع فى المغرب الجنوبي على نهر يصب فى

---

(8) هو يوبا الثاني بن الملك البربري يوبا الاول، ولد سنة 50 قبل الميلاد ، ولما مات ابوه منتحرا سنة 46 قبل الميلاد ، اخذه يوليوس قيصر معه الى روما وهو صبي صغير ، وهناك حظي برعاية اغسطس الذى وكل تربيته الى اخته اوكتافيا ، ولما كبر زوجه بكيليوباترا الصغيرة ابنة كيليوباترا ملكة مصر الشهيرة سنة 29 قبل الميلاد ، واورثه عرش ابيه على نوميديا سنة 30 قبل الميلاد ، وبعد ان اصبحت نوميديا مقاطعة رومانية عوضه عنها مملكة موريطانيا سنة 25 قبل الميلاد ، وفى عهده ثارت قبائل جدالة البربرية فى الحكم الروماني ثورتين اثنتين ، احداهما سنة 6 ميلادية فى ايام حكم اغسطس ، وهي الثورة التى قضى عليها كورنليوس ، والثانية فى سنة 17ميلادية فى ايام حكم تيبريوس خلف اغسطس بزعامة الزعيم البربري تاكفاريناس ، وفى كلتي الثورتين كان يوبا الثاني يحارب مع القواد الرومانيين جنبا الى جنب ضد الوطنيين ، وقد كان يوبا الثاني عالما ومؤرخا الف اكثر من كتاب فى الفن والادب والتاريخ والنبات، ويظن ان وفاته كانت بين سنة 19 و 24 ميلادية .

Lensns's Ency. « Juba »
Ency. B. « Juba »
(مدنية المغرب العربي فى التاريخ) ص 286 وما بعدها
المترجم

(9) Mommsen احد رجال التاريخ الكلاسيكيين الالمان فى القرن التاسع عشر ، ولد سنة 1817 وتوفي سنة 1903 ، وقد اشتهر كذلك بتضلعه فى القانون وفقه اللغات والمسكوكات ، شغل اكثر من منصب فى استاذية التاريخ القديم والفقه الروماني ، وكتب تاريخ روما فى خمس مجلدات ، نال جائزة نوبل فى الادب سنة 1902 .
المترجم

المحيط الاطلسي ، وقد كانت مدينة ذات اهمية اثرية (10).

ومن الممكن انها كانت في بعض الاوقات تسيطر على بعض الاجزاء من التراب المجاور ، وربما كانت تلك الاجزاء مساحة كبيرة اذا صح القول ان سجلماسة كانت تصل الى حدود ماسة ، بل ان الواقع ان امتداد ماسة الى وادي درعة يتجه بها الى ناحية وادي زيز . فماذا يعني الاسم اذن ؟ . فهل يعني علامة او رمز او انتصار على ماسة ؟ ان المعنى الشائع (11) Sigilla هو مجموعة من الرسوم او من الصور ، ولكن مفرده Sigillum الذي هو الصيغة الواردة في عبارة ليو يمكن كذلك أن يعني به ، اثر ، سمة ، علامة ، ولكن هل سبق ان استعملت الكلمة بهذه الطريقة في تسمية بعض الاماكن الرومانية ؟ في بريطانيا الرومانية كانت توجد مدينة اطلق عليها اسم Segelocum فهل جاءت هذه التسمية من كلمة Sigillum الذي يظهر عند الفحص ان الافضل هو ان تجزأ الكلمة الى جزاين قبل الحرف (ل) لا بعده ، وان كلمة Locum التي تعني المكان مقصودة في الاسم ، وتكون الكلمة Sigillum دخلت الى العربية بالتغيير الذي اعطى الاسم سجلماسة . وفي استطاعة المرء ان يعتقد ان استنتاج ليو لا يقوم على اساس محقق ، ومع اننا لا نستطيع ان نطرده عن اصول اللغات الموروثة ، فان رائحة الاشتقاق الفولكلوري تفوح منه ، واعني بذلك نوع التفسير القائم فقط على الظواهر دون البحث العلمي القائم على اساس فقه اللغات وفهمها . وناحية الضعف في هذا التفسير اللغوي تاتي من كون الجزء الثاني من الاسم يبقى دائما غامضا ، كما ان الاستعمال الروماني هو ايضا امر مشكوك فيه ، والحقيقة ان كون لفظ (سجيل) دخل الى العربية لا يساعد حتما التعليل الذي اتى به ليو ، ذلك لانه بالرغم من عدم اعتراف كثير من المعلقين فان الاسم يمكن ان يكون بكل سهولة من اصل عربي (12).

---

(10) ذكر الزياني في الترجمة الكبرى ان ماسة احدى المدن التي بناها البربر قبل الاسلام ، وذكر المالكي في رياض النفوس (ص 26) والدباغ في معالم الايمان (ص 48) ان عقبة وصل الى ماسة وبنى بها مسجدا . وقد صورها ابن حوقل في خريطته التي وضعها للمغرب تحت اسم (رباط ماسة)، وقال (ص 68) : انها تقع بين النهر والساحل . وذكر البكري عند كلامه على وادي ماسة (ص 161) : (ان ماسة التي اضيف اليه الوادي ، رباط مقصود عندهم، له موسم عظيم، ومجمع جليل ، وهو ماوى الصالحين) . وذكر ابن عذارى (ج 1 ص 102) : ان المولى ادريس انتهى الى بلاد السوس الاقصى ودخل ماسة . وما ذكره البكري ذكره ابن خلدون في (ج 6 ص 138 طبعة بيروت) . وذكر في نفس ج (ص 374) : ان ابا بكر اللمتوني غزا بلاد السوس الاقصى وافتتح ماسة) . ورباط ماسة هو الذي اعتصم به محمد بن هود الماسي حينما ثار على عبد المومن الموحدي سنة 480 . وقد وضع المرحوم السيد احمد المكناسي (ماسة) في خريطته الاكيولوجية للمغرب ، وسط الخط الواصل بين اكادير وايفني على شاطيء المحيط الاطلسي .
المترجم

(11) يعني في اللغة اللاتينية

(12) جاء في القرءان لفظ (سجل) بدون ياء ، و (سجيل) بالياء ، وقد اختلف اهل اللغة واهل التفسير في معنى اللفظتين وفي اصالتهما او تعريبهما، فقالوا في الاول (سجل) ان من معانيه : الصك ، وكتاب العهد، والكتاب ، والرجل بلغة الحبشة ، وقد عده الاب رفائيل نخلة في كتابه (غرائب اللغة العربية) من الالفاظ المأخوذة عن اللاتينية وقال : ان اصله فيها لفظ Sigillum الذي يعني وضع الخاتم على ما قيد من العقود ، وقد رجح الاستاذ احمد محمد شاكر في تعليقه على كتاب (المعرب) للجواليقي تبعا لابن دريد ان اللفظة عربية . وقالوا في الثاني (سجيل) ان من معانيه ، الصلب الشديد ، وحجارة كالمدر ، وحجارة من طين ، وقد ذكر البخاري في تفسير سورة هود من صحيحه ان معناه (الشديد الكبير) ، وعلى هذا المعنى يكون عربيا اصيلا كما هو مذهب ابي عبيدة ، اما في تفسير سورة الفيل من صحيحه ايضا فقد روى ان ابن عباس قال : (سجيل من سنك وكل) وعلى هذا يكون دخيلا في اللغة العربية من الفارسية ؛ والى ذلك ذهب الجواليقي تبعا لابن قتيبة والازهري ، مفسرا لفظتي سنك ، وكل الفارسيتين بمعنى حجارة وطين ، وبهذا المعنى ذكرها المسعودي عند كلامه على قصة الفيل في مروج الذهب كما سينقله الكاتب عنه فيما بعد .
المترجم

فاذا كانت الكلمة عندها في اللغة العربية معنى ، دفتر تدوين ، او وثيقة من اي نوع كانت ، فهل يمكن انها تشير الى بعض التقارير او البيانات عن التجارة عبر الصحراء ؟ ، وهذه ايضا طريقة لا تتناسب مع التماس اسم لمكان ، واذا صح ان لفظة (سجيل) غامضة وقليلة الاستعمال ، وذات اصل دخيل في اللغة العربية ، فليس من المرجح ان تكون قد استعملت مرادفا لبعض الاسماء المتداولة بكثرة في اللغة العربية. والذي يظهر ان في اللغة العربية اكثر من محمل يمكن ان يحمل عليه هذا الاسم ، فالمسعودي يحدثنا عن (حجارة من سجيل) انها «طين خلطت بحجارة خرجت من البحر ». فهل تكون الكلمة حينئذ قد استعملت لتشير الى معدن ذهبي ؟ ان شركة البحث عن معدن الذهب في سجلماسة قد يكون عندها نوع استحسان لهذا الراي ، غير ان كلمة (تبر) التي تعني في اللغة العربية (تراب الذهب) ربما كانت هي المفضلة لو اريد هذا المعنى ، وفي النهاية يبقى الجزء الاخير من الاسم غير واضح في هذه الحالة ، والذي يظهر ان هذا الاسم ليس بالاسم اللاتيني ، ولا العربي ، وربما كذلك ليس اسما بربريا .

– يتبـــع –

البيضاء – محمد الحمداوي

خزانة العزيز بن المعـز الفاطمـي ..

وصف المقريزي في خططه ما كانت عليه خزانة كتب العزيز بن المعز الفاطمي في ايام عزها ، فيما نقله عن المسبحي قال :

وذكر عند العزيز بالله ، كتاب العين للخليل بن احمد ، فامر خزان دفاتره فاخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين ، منها نسخة بخط الخليل بن احمد. وحمل اليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار ، فامر العزيز الخزان ، فاخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، منها نسخة بخطه . وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد ، فاخرج من الخزانة مائة نسخة منها .. وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف .. والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل . وفيها من اصناف الكتب مايزيد على مائتي الف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات. فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف .. كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة .

أبو الجيش الأنصاري وكتابه "علل الأعاريض"

للأستاذ سعيد أعراب

« 2 »

وقد اولع المغاربة والاندلسيون بهذا اللون من الادب ، فنظموا فى سائر العلوم والفنون ، وفى العروض نظم كثيرون ، كابن معط الجزولي (ت 628هـ) والفتح بن موسى القصري (ت 663) ، وابن المرحل السبتي (ت 699) ، وابن المالك الجياني (ت 692) ، وابن حيان الغرناطي (ت 745) ، وسواهم . وممن لمع اسمه فى هذا الميدان — ابو محمد عبد الله بن محمد الخزرجي (ت 626) صاحب « الخزرجية » الشهيرة ، وتعرف عند المشارقة بالرامزة ، وهي قصيدة من البحر الطويل فى 96 بيتا ، ضمنها قواعد العروض والقوافي ، ولمح فيها الى اغراضه برموز واشارات على الطريقة التى عرفناها عند ابي الجيش. مطلعها :

وللشعر ميزان يسمى عروضه
بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

قال ابو العباس البلفيقي : اول ما ظهرت بالمغرب صدر المائة الثامنة ، وتنافس الحذاق من اهل الادب فى حل مقفلها بالشرح ، فالفوها بكرا لا تستطاع ، وعقيلة لا تنالها الاطماع ، الى ان اتصلت بيد قاضي غرناطة الشريف ابي القاسم السبتي .. قال والخزرجية منسوبة لناظمها ابي محمد عبد الله بن محمد الاندلسي الخزرجي المالكي .. وبعضهم قال انه ابو عبد الله محمد الخزرجي ، وهو الذى عند الشارح الشريف الغرناطي . وقال بعض شراحها هو ابو الحسن علي ابن محمد بن علي الخزرجي الاشبيلي اصلا ، الفاسي مولدا ، حج وجاور بمكة ، ودخل الاندلس وقطن بسبتة ، وتوفى سنة عشر وستمائة (610) (1) .

والذى صدر به البلفيقي ، هو الذى اقتصر عليه فى كشف الظنون ، وعليه اكثر الشراح كالدماميني ، والشيخ زكرياء الانصاري، وابي اسحاق التادلي ، وابن زاكور فى ءاخرين .

وما فى دائرة المعارف الاسلامية (2) خلاف التحقيق . والنصوص التى بين ايدينا لا تفصح بمغربيته ، وهي مطبقة على انه اندلسي توفى سنة (626 هـ) (3) كما اسلفنا .

وقد اشتبه الامر على كثيرين ، فتوهموا ان الخزرجي هذا ، هو ابو الجيش السالف الذكر ، وانهما شخص واحد ، لا شخصان ، فتراهم ينسبون قصيدة « الخزرجية » لناظمها تارة باسم ابي محمد الخزرجي، وتارة باسم الجيش الانصاري ، ومنهم من يجمع بين اللقبين .

وممن وقع فى هذا الالتباس سركيس فى معجم المطبوعات (4) واسماعيل باشا فى هدية العارفين (5)،

---

(1) الابتهاج ، شرح منظومة المساري 184/1 .
(2) المجلد الثامن ص 13 .
(3) انظر كشف الظنون 830/1 .
(4) 821/5 .
(5) 960 .

وكحالة في معجم المؤلفين (6) ، وبروكلمان في ملحقه (7) وءاخرون .

ووقع في مثل هذا الخلط ايضا بعض المفهرسين، فجعلوا احد شروح عروض ابي الجيش ، شرحا شرحا لعروض الخزرجي (8) .

واذا ما قارنا بين القصيدتين ، نجد انهما وان اتفقتا في اسلوب الرمز والاشارة ، فقد اختلفتا في طريقة العرض ، وفي كثير من الجوانب ، فابو الجيش لم ينظم قصيدته على بحر واحد ، ولم يلتزم فيها قافية، فهو نظمها على اوزان البحور الشعرية الستة عشر ، وكل بيت منها يمثل ضربا خاصا من ضروب هذه الابحر ، وهي تختلف — ولا شك — في اوزانها ومقاييسها ، فوجب ان تختلف في رويها وقوافيها ، فكأن كل بيت نمط خاص من الشعر قيل على منواله . وقد عالجوا مثل هذا الشعر الذى لا تربطه قافية في الوصايا والحكم والامثال والمسائل العلمية وما الى ذلك (9) .

على ان ابا الجيش استطاع ان يلطف من هذا الاسلوب العلمي الجاف ، فاضفى عليه الوانا زاهية من الفن والابداع، اذ سلك فيه مسلك اهل الغزل في ظاهر اللفظ ، ولمح الى اغراضه عن طريق التورية .. ويشبهها في هذا النمط من الاسلوب ، قصيدة « غرامي صحيح » — لابن فرح الاشبيلي (ت 699) التي نظمها في القاب الحديث . ومطلعها :

غرامي (صحيح) والرجا فيك (معضل)
وحزني ودمعي مطلق (ومسلسل)

عكس قصيدة الخزرجي ، فهي مقصورة من بحر الطويل ، افتتحها بتعريف علم العروض ، على عادة النظامين في سائر الفنون :

وللشعر ميزان تسمى عروضه
بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

وضمنها اشارات الى ابيات الشواهد المعروفة عند ارباب هذا الفن ، فجاء اسلوبها جافا في كثير من ابياتها ، وقد تضيق عنه العبارة فيلمح ولا يفصح ، ويجمل ولا يكاد يبين ، ولذا جاءت بعض ابياته مغلقة تسدل دونها الحجب ، ولا تكاد تصلها الافهام ، وقد سجل احد شراحها على نفسه بالعجز ازاء طائفة من ابياتها (10) .

اقرا ان شئت قوله :

فرتب الى اليازن دوائر خفشلق
اولات عد جزء لجزء تناثنا
خ ثمن ابن زهر وله فل ستة
جلت حض شمر بلوفزن لذو وطا
وطول عزيز كم بدعب لكم طووا
يعزز قس تثمين اشرف ما ترى

وقل لي بربك ماذا تفهم ، ان لم ترجع الى اكثر من شرح ، وربما اوقعوك في حيرة وبلبلة ، كل وما فهم ! واقول لك انه يريد ان يبين لنا الدوائر الخمس التي استخرجت منها البحور الشعرية ، والاجزاء التي تتالف منها ..

والنظم في هذا الباب يجب ان يعطينا القاعدة واضحة جلية ، لا غبار عليها ولا التباس . وقد اعفانا ابو الجيش من هذه الدوائر التي افترضت على الشعر العربي، وكل التفصيلات الجانبية لهذا الفن .

يضاف الى ذلك ، ان الخزرجي ارتكب شذوذا وضرورات ، — قد تغتفر للمولدين — كما يقول الشريف السبتي (11) .

ورغم ما حاوله من ايجاز ، الذى كاد يبلغ — كما قيل — الاعجاز ، فاننا نجد عنده كثيرا من الحشو ، وهو عبارة عن جمل وكلمات ، يتكىء عليها الشاعر دون ان تعطينا قاعدة ، او تتمم فائدة .

واليك ما جاء في الابيات الاولى من القصيدة : (يدريهما الفتى) — البيت الاول . (قل) — البيت الثاني . (بلا امترا) البيت الرابع . (قد اتى) — البيت الخامس . (قل) (وسوف اذا ترى) — البيت السادس . وهكذا لو سايرنا القصيدة لعرضنا عليك

---

(6) 6/111 — 117 .
(7) وقد جعل وفاة ابي الجيش سنة 626 وهو نفس تاريخ وفاة الخزرجي كما في كشف الظنون وغيره.
(8) انظر فهرس المخطوطات لدار الكتب المصرية ، سنة 1936 — 1955 ، (القسم الثاني) ص 171 .
(9) انظر الرافعي ، تاريخ الآداب 3/155 .
(10) انظر شرح الزوروي
(11) انظر شرح الدماميني ص 27.

الشيء الكثير من هذا القبيل . وهناك عيوب اخرى لا حاجة الى تعدادها

وهذا لا يقلل من قيمة « القصيدة الخزرجية » التي سارت بها الركبان ، وذاعت شهرتها فى كل مكان ، وانما اريد ان اقول ان هناك بونا شاسعا بين اسلوب القصيدتين ، والناظم غير الشاعر ، فالاول عالم ، والثاني فنان . على اننا لا نعفي قصيدة ابي الجيش من بعض العيوب ولكنها جد ضئيلة .

ولتلمس ذلك بنفسك ، اعرض عليك هذه الابيات، التى تضمنت البحور الشعرية واعاريضها واضربها .. فى كل من القصيدتين :

الطويل

ــ ابو الجيش :

طويل على الليل اذ بت كالقا
جنوح الدجا والليل ينقاد للجنح

ــ الخزرجي :

اجري غرورا ام ستبدي صدوركم
اسود واحداج ام المور قد عفا

المديد

ــ ابو الجيش :

مدباعا فى التجني ولجا
وانثنى يثنيه تيه وزهو

ــ الخزرجي :

يجود كليب لا يفر اعلموا انما
يعيش بهندي متى مايع اهتدى

البسيط

ــ ابو الجيش :

ابسط رجاءك بالايام مبتهجا
واغنم من الانس قبل الشيب ما سنحا

ــ الخزرجي :

جرت جولة يا حار شعواء خيلت
وقوفي فسيروا عنه قد هيج الجوى

الوافر

ــ ابو الجيش :

توافرت المنى وجنيت رطبا
جنى مواصلاتك غير ذاوي

ــ الخزرجي :

دنت بجدي فيه لنا غنم به
ربيعة تعصيني ولم تستطع اذى

الكامل

ــ ابو الجيش :

وكملت لا احد يفوقك فانتهج
طرق السيادة فى علوك واستو

ــ الخزرجي :

هجرت طلا يصحو خبالا برومتي
اجش لانت الذى سبقتهم الي

الهزج

ــ ابو الجيش :

هزجتم اذ دنا ناء
بري جثمانه الوجد

ــ الخزرجي :

وابدا بسهب الضيم باسا بذودهم
كذلك ولو ماتوا بموسى امرؤ دنا

الرجز

ــ ابو الجيش :

رجز فان مالوا لنا عن موعد
فالخلف من احبابنا محبوب

ــ الخزرجي :

زكت دهرها دار بها القلب جاهد
وقد هاج قلبي منزل ثم قد شجا

الرمل

ــ ابو الجيش :

مرمل من وصل غر واثب
وثبة الليث محب فيه ثاوي

ــ الخزرجي :

حبونك سحقا مالك الخنس فاربعا
فبي مقفرات ما لما فعلت دوا

السريـــع

ـ ابـو الجيـش :

اسرعـت في ءاثـارهم جاهـدا
واخيـت ذل الصبـر اذ ثـوبـوا

ـ الخـزرجـــي :

طفى دون شام محول لا يقيـل ما
به النشر في حافات رحلي قد نما

المنســرح

ـ ابـو الجيـش :

سرحت طرفي في حسن ذي غنج
جنت به البـاب الـورى وهـوي

ـ الخـزرجــي :

يلجج يفشي صبر سعد نوى سمى
على سمت سولاف به الانس قد يرى

الخفيـــف

ـ ابـو الجيـش :

خف حملي ابعـاد غـر لجـوج
هاج لا يثنى من عنـاق المثـاوى

ـ الخـزرجـــي :

كفيت جهارا بالسخـال الردي فان
قدرنا نجد في امرنا خطب ذي حمى

المضــــارع

ـ ابـو الجيـش :

ضرعنـا لعـــز نـــاء
اعـاد الكـرى سهـادا

ـ الخـزرجـــي :

لماذا دعاتي مثل زيد الى ثنـا
فان تدن منه شـبرا اذكر اليـه ذا

المقـتـضـب

ـ ابـو الجيـش :

اقتضبت مـن رشـا
اذا وهبـتـه خلـدي

ـ الخـزرجـــي :

تقاوم هلال من علقت ضمائرهـم
اولئك كل منهم السيـد الرضى

المتـقـــارب

ـ ابـو الجيـش :

تقاربت اذ شمروا للذهـــاب
وحبي لهم ما له مـن بـراح

ـ الخـزرجـــي :

سبـوا لابن مرة نسوة وروو الميـ
ـة دمنة لا تبتئس ـ فكذا قضى

على ان المغاربة عنوا بالخزرجية اكثر من غيرها، ووضعوا عليها عدة شروح ، وكانت تدرس بفاس في حدود القرن العاشر وما بعده (12)، وكانت هي العمدة عندهم في هذا الفن ، دون ساعداها (13) .

والدنيا ـ كما يقولون ـ حظـوظ ، والمؤلفـات كالاشخاص ، تطول اعمارها وتقصر ، وقد يكـون لشخص حظوة عند قوم دون ءاخرين ، وفي بلد دون ما سواه . وفعلا ، فقد عنى المشارقة ـ والعـجـم بصفة خاصة ـ بعروض ابي الجيـش ، فشرحـهـا كثيرون نذكر منهم :

ـ محمود بن احمد اللارندي (ت 720) ، وشرحه يقع في مجلد .

ـ عبد الحق ، او عبد المحسن القيصـري (ت 872) وشرحه مـن احسـن الشـروح ترتيبـا وتبويبا ، ذكر في مقدمته سليمان الوزير بن الاميـر طاشقن (طاشخون) بك . ولعله الفه برسمه .

ـ المولى الياس بن ابراهيم السينوبي (ت 891) وسماه «فتح النقوض ، في شرح العروض» . واخطا بعض المفهرسين ، فجعله شرحا لعروض الخزرجـي كما اشرنا الى ذلك ءانفا .

ـ جلال الدين المحلي (ت 864) ولم يكمله .

---

(12) احمد بابا نيل الابتهاج 213/1

(13) البلفيثي شرح المسارية 184/1

ـ محمد بن ابراهيم الحلبي ، المعـروف بابـن الحنبلي (ت972) سماه « الحدائـق الانسية ، فى كشـف الحقائق الاندلسـية » .

ـ الشيخ قاسم بن قطوبقا الحنفـي (ت 879) سماه شـرح الاندلسـية والنسبة (الاندلسيـــة) فى هذين الشـرحين باعتبار اصل المؤلف والا فهو مغربي، وقد صرح بذلك هو نفسـه فى مقدمة الكتـاب كمـا نبهنا على ذلك فى القسم الاول من هذا البحث

ـ محب الدين البصروي الشافعي (ت 879) .

ـ خطير بن محمد النيسـابوري ، وقد افتتـح شرحه بقوله : الحمـد للـه الـذي توافـر فيضـه واحسـانه .. »

ـ شرف الدين محمود الانطاكي، وقد قطع ابيات القصيدة ، وجعلها نماذج تطبيقية لقواعد الفن التى لمح اليها الناظم ـ داود القيصري ـ وسماه بعضهـم خطأ بالمقربي (14)

ومن الشـروح التى جهل مؤلفوها : (الكافي) ، (احسـن الثنا) ، (15) (شرح مشـكلات المختصر فى علم العروض) ـ ولعله اقدم الشروح ، فقـد فـرغ منـه مؤلفه سـنة (715 هـ) (16) .

ومن الذين نوهوا بكتاب ابي الجيش هذا : العالم الموسوعي : طاش كبرى زاده (ت 968) فى كتابـــه « مفتاح السعادة » قال انه من الكتب النافعة المفيدة فى هذا الباب (17) .

وبعد : فهذا علم من اعـلام الادب فى العصـر المرابطي ، القينا عليه بعض اضواء كمحاولـــة اولى للتعرف على شخصيته ، وان قصيدته هذه لتعتبـر خير نموذج للشعر التعليمي (18) ، الذى مهر فيـه المغاربة والاندلسيون ، وكانوا من السـباقين (19) .

وهي اقدم نص فيما وقفت عليــه ، حتى على الشـاطبية التى نظمها ابو القاسم الشاطبي (ت 590) فى القراءات ، والتى يقول فيها ابن خلكـان : « ومـا اظنه سـبق الى اسلوبهـا .. » 20 . وهو لـون من الادب لم ينل حظه من عناية الدارسيــن ، وهو فى حاجة الى بحث شامل ، ودراسة اوسـع ، تلم بجميع جوانبه ، وتجليه فى سائر اطواره والزمـان كفيـل بذلك والله الموفـق .

تطوان ـ سعيد اعـراب

---

(14) انظر مفتاح السعادة 172/1 ـ وقارنه مع ما فى كشف الظنون 1135/2
(15) انظر كشف الظنون 1135/2 .
(16) انظر فهرس الاسكوريال 121/1
(17) 172/1 .
(18) وسمه ان شئت الشعر العلمي ، انظر ابن خلدون ، المقدمة ص 1048 . والرافعي 155/3
(19) انظر البحث القيم فى النظم التعليمي ـ لاستاذنـا كنـون ـ
(مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج 2 ـ م43 ـ ص: 261 ـ 271)
(20) انظر وفيات الاعيان 234/3 .

تاريخ الحضارة الفكرية في الرباط

للأستاذ حسن السائح

من المألوف عند المؤرخين ان يتحدثوا عن المنصور الموحدي كمؤسس لمدينة الرباط وباني مسجد حسان، غير ان التاريخ لا يسارع بالتسليم بهذا الراي الذى لا يدل على ان الرباط لم يكن موجودا مطلقا قبل تأسيسه فى عهد المنصور .. ومن المرجح تاريخيا ان شالة كانت تمتد فى عمرانها منذ العصور الاولى الرومانية الى خارج حدودها وتتلاقى مع قصبة الموحدين كما ان قصبة الموحدين يرجع بناؤهاالحالي الى عهد عبد المومن ابن علي وان الرباط كان مركزا حربيا من اربطة المغرب، ولاشك ان هذا من العوامل التي تشكك ان يكون المنصور الموحدي هو مؤسس الرباط بدل ان يكون باني حسان ومخطط الرباط حسب هندسة جديدة ليكون مركزا من المراكز الكبرى فى المغرب — ولا يعقل ان يبني المنصور فيه مسجدا عظيما الا اذا كان عاصمة من عواصم المغرب الكبرى لان رحابة المسجد دالة على كثرة السكان ونمو المدينة ؛ ونعرف كذلك ان المهدي بن تومرت عبر من الرباط الى سلا ولا يمكن ان يعبر الا من مدينة صغيرة الى مدينة سلا لا سيما ويقال انه اقام بالرباط .

وقد يجوز ان نرجع تاريخ الرباط الى العصور الاولى فى التاريخ الانساني ففى سنة 1933 عثر احد حراس مصلحة الاثار بالرباط على جزء من فك بشري كما عثر بعد ذلك بثلاث سنوات فى القبيبات بالرباط على هيكل بشري من بقايا العصر الجيولوجي واسفرت الدراسة الانتروبولوجية عن هذا الهيكل انه شبيه بخصائص الهيكل المكتشف فى نياند برطال Néandertel قرب نهر الرين كما اكتشف بجانب الهيكل الانساني عن هياكل للفيلة قرب الدار البيضاء بمنجم سيدي عبد الرحمن ..

ولنتجاوز مرحلة تاريخ تأسيس الرباط الى الحركة الفكرية التى شهدتها هذه المدينة فى ابهى عصورها ، وهي عصور حياة الجالية الاندلسية فى الرباط، ذلك ان الاندلسيين وردوا على الرباط فى مناسبات متعددة كانت الاولى قبل محكمة التفتيش حيث اقاموا بسلا وبالقصبة وبالرباط وكانت اهم جالية وردت فى عصر متاخر بعد محاكم التفتيش .

وذكر مؤلف سوق المهر ان قدماء المهاجرين الاندلسيين ساروا فى البلاد ونشروا ما حملوا من علوم وآداب وذلك لسقوط الدولة فى الاندلس وحياة الافكار متوقدة، لان سقوط الدولة الاندلسية لم يكن عن هرم طبيعي وانما اودى بها الشقاق ، وفى كتاب بلاغة العرب فى الاندلس ان الدولة زالت على اثر الاضطرابات السياسية والحياة العقلية فى عز مجدها، وعلماؤها وادباؤها لا يزالون فى ابان نشاطهم ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا فى البلاد وافاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له اثر نافع عند الامم التى نزلوا فيها سنة 1016 (1). وأما الذين خرجوا عند الجلاء الاخير بعدما ساكنوا الاسبان بغرناطة واعمالها

(1) هذا الفصل الاخير منقول عن تاريخ الرباط بتصرف لمؤلفه م. السائح

نحو من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت سيطرة المسيحيين فلا يمكننا ان نعتقد انهم بقوا على ثقافتهم الاندلسية . وهل يبقى مع اعمال محكمة التفتيش علوم وادباء ، فلقد ضويقوا حتى فى لهجتهم العربية فكيف بالعلوم ، ثم انهم لما نزلوا الرباط سواء قدماء او المحدثون اشتغلوا بالتحصين وتوطيد المنزل وبالغزو على السفن القرصانية وفيما بينهم بالحروب ، ولا يشك فى ان المدينة وان خفت فيها صيت العلم اخيرا لم تخل قبل من حركة علمية فقد كان فيها عدة اعلام من الاندلسيين وغيرهم كالقاضي بني عميرة المخزومي المترجم له فى النفح والجذوة فى العصر الموحدي ، واليابري النازل بها فى المائة الثامنة والعارف ابي العباس احمد بن عاشر السلاوي، فقد ذكر الحضرمي انه نزل بزاوية شيخه اليابري بالرباط دهرا طويلا ، وابي الحسن خطيب الرباط (انظر تايخ الحضرمي) ، والاديب ميمون بن خبازة المترجم له فى الجذوة وفى جملة الكتب التى استخرجت من الخرم الذى بخزانة القرويين طرف من تاليف فى اللغة لعلي بن حمزة البصري كتبه يوسف بن محمد بن مسعود برباط الفتح سنة 596 اي بعد عهد المنصور بنحو ثلاثين سنة على انه بالرباط اثر ادبي للمهاجرين اليه قديما من الاندلسيين لما هو معلوم من ان الادب والظرف فى اهل الاندلس كالغريزة كما فى نفح الطيب ، نعم فان النهضة العلمية بالرباط انما كانت فى عهد السادة العلويين وتسلسلت عبر التاريخ ، وتعزى هذه النهضة الى العلامة ابي الحسن العكاري .

والعكاري هذا مراكشي الاصل من تلامذة ابي علي الحسن اليوسي ، ورد الزاوية الدلائية وقاسا بعد التحصيل وشفوف المنزلة ودرس بها ثم قدم سلا لجامعها الاعظم ثم استقر بالرباط برسم التدريس ونشر العلم عن امر السلطان المولى اسماعيل ورتب له سنويا مائة مثقال من خراج مرساها حسب طلب اهل الرباط وكانت وفاته سنة 1118 وحضر لجنازته اهل العدوتين وشالة والقصبة وغيرهم ومن الاخذين عنه بالرباط ابو العباس احمد التلمساني وابو عبد الله الحويشي وسيدي محمد الدغيمر ومحمد الحداد الاندلسي ، واخوه احمد ومحمد بن ابراهيم الزبدي الاندلسي والقاضي محمد مرينو الاندلسي واخوه احمد والحاج محمد الدقاق ومحمد شعبل الاندلسي والفقيه احمد بن عبد الله الغربي واحمد ابن يحيى والزهراء ، ويوسف الدادشي والقاضي عبد الله الدرعي والشيخ ابو العباس الكراري وغيرهم ممن ذكر حفيده فى البدور الضاوية ، اما تراجم علماء الرباط واعلامه فقد خصهم المرحوم السيد محمد بوجندار بتاليف فى جزاين وسماه « الاغتباط بتراجم اعلام الرباط » وان للمؤلفين من اهل الاندلس اليد البيضاء فى نشر العلم وتعميم الثقافة بالرباط والمغرب وغيره ، وان كثيرا من العلوم لتستمد من تصانيفهم حتى اليوم ، وهو مما يقضي بتدفق الثقافة الاندلسية على العالم كله ، ولنصدر فى ذلك عن يقين يجب ان نرجع الى رسالة ابن حزم فى فضائل علماء الاندلس وذيلها لابن سعيد .

وقد عم ازدهار الثقافة المغربية فى عصر المولى اسماعيل ، ويذكر مؤلف نشر المثاني ان المغرب فى عهد المولى اسماعيل كثرت عمارته وجدد الناس فى ايامه للعلوم عهداء وذكر ابن الحاج فى تاريخه ان فى ايامه كثر العلماء وحفاظ القرآن ، وهذه الظاهرة عاصرت عصر الانبعاث للثقافة الاندلسية فى الرباط .. ولعل ابرز ما عرفه الرباط فى العصور المتاخرة عبقرية الشاعر بسير الاندلسي الذى روى صاحب الاغتباط كثيرا من قصائده وبالاخص نونيته التى يعارض بها ابن زيدون ، والعلامة (التادلي) الذى كان دائرة معارف معجمية واخذ عنه كثير من العلماء المغاربة بل اخذ عن التادلي الرباطي حتى مشايخ العلم فى المغرب وكانوا كثيرا ، نذكر من اولئك الشيوخ ، العلامة السيد احمد بن علي دنية من الآخذين عن الفقيه ابن عبد الرحمان السجلماسي وسيدي عبد القادر الكوهن وغيرهم ، وتخرج عليه من اهل الرباط الفقهاء السيد التهامي بناني وابو حفص عمر عاشور والمعطي الغربي توفى سنة 1282 والعلامة الكبير الشيخ ابا بكر بن محمد البناني صاحب التصانيف الكثيرة كمدارج السلوك الى ملك الملوك ، وبغية السالك ، وشرح الحكم المسمى بالغيث المنسجم فى اربع مجلدات والفتوحات القدسية فى شرح القصيدة النقشبندية والفتوحات الغيبية، فى شرح الصلاة المشيشية ، وبلوغ الامنية فى شرح حديث انما الاعمال بالنية ، الى غيرها مما ذكره فى الاغتباط ، توفي سنة 1284 ، والعلامة القاضي سيدي عبد الرحمان بن احمد البريبري له عدة شيوخ ذكرهم ولده القاضي ابو عبد الله فى اجازته لسيدي محمد خليفة المدني ومن الاخذين عنه بالرباط ولده المذكور . وتوفى سنة 1293 ..

وسيدي البدوي السرايري العلامة المدرس الخطيب توفى سنة 1295 وسيدي محمد لبريس الضرير

من شيوخ السيد الجيلالي بن ابراهيم المفتي المذكور كان قائما بالتدريس ونشر العلم تولى فى حدود عام 1295 .

والعلامة الكبير القاضي ابا عبد الله سيدي محمد بن ابراهيم كان من رجال العلم ومن المشاركين فى الفنون خصوصا الحديث والسير والمعاملة والفرائض والتوثيق والحساب بن جبر ومقابلة شرح البردة وكتب على كبير ميارة وعلى الخرشي وكتب التوثيق وعلى مسطرته عمل الرباط توفي سنة 1297 والقاضي سيدي احمد بن عبد السلام مليين من الاخذين عنه القاضي ابو حامد البطاوري وابو العباس احمد بن بنقاسم جسوس والقاضي سيدي الجيلاني بن ابراهيم توفي سنة 1297 وكلهم من جلة شيوخ الرباط ، والسيد الهاشمي الضرير العلامة المحدث المقريء استاذ ابي اسحاق التادلي توفي سنة 1300 ، وابا المواهب الشيخ سيدي العربي بن السايح الشرقي الشهير الذكر الطائر الصيت العلامة المشارك فى سائر الفنون لاسيما فى الحديث وكانت تحدى الركاب الى مجلسه الحفيل توفي سنة 1309 والعلامة الكبير المفتي الشهير سيدي الحاج محمد عاشور كان معتكفا على نشر العلم بالتدريس والافتاء والقضاء خصوصا على الفقه والحديث والتصوف توفي سنة 1314 بعدما جاوز السبعين . وغيرهم ممن يعلم بالاطلاع على كتاب الاغتباط .. اما فيما قبلهم فقد كان بالرباط من نجوم العلم الزاهرة ما يسجله التاريخ بقلم الفخر كالقاضي السيد الطيب بسير العلامة الاديب الشهير وقاضي العدوتين السيد احمد الحكمي والقاضي عمر بن العروسي والشريف سيدي احمد الرفاعي صاحب القلم الاعلى والمنظومة وشرحها فى علم الخط ، والقاضي ابي عبد الله محمد ابن احمد القربي وابي القاسم السجلماسي صاحب العمل الرباطي وشارح العمل الفاسي والقاضي محمد عاشور المتوفى بمراكش قاضيا بها والهاشمي بن محمد بن عبد الله شكلانط صاحب منهاج التوضيح لمسائل صلاة التسبيح وغيره والقاضي سيدي عبد الرحمان السرايري وغيرهم .

وقبلهم المحدث المسند الشيخ سيدي احمد بن عبد الله الغربي من شهرته ان من الاخذين عنه شيخ علماء فاس الشيخ التاودي بن سوده وفخر مكناسة القاضي العميري ومسند سوس وراويته ابو عبد الله الحضيكي الشهير وغيرهم من الاكابر الذين يطول استقصاء حديثهم وقبله المحدث الحسن العكاري المراكشي الاصل السالف الذكر ومن الآخذين عنه بالرباط ابو العباس احمد التلمساني وابو عبد الله الحديثي والشريف سيدي محمد الدغيمر ومحمد الحداد الاندلسي واخوه احمد ومحمد بن ابراهيم الزبدي الاندلسي والقاضي مرينو الاندلسي واخوه احمد والحاج محمد الدقاق ومحمد شعبان الاندلسي ، والفقيه احمد بن عبد الله القربي واحمد بن يحيى والزهراء ويوسف الدادسي والقاضي عبد الله الدرعي والشيخ ابو العباس الكراوي وغيرهم ممن ذكره حفيده فى البدور الضاوية ، (اما الرياضيون) فاذكر منهم احمد بن محمد التلمساني المذكور وهو صاحب الضريح بجوار المسجد الاعظم والعالم الحيسوبي الفقيه الاديب احمد بن العربي عاشور الحيسوبي الموقت ، والموقت الكبير المعطي مرينو صاحب كتاب ارشاد الحائر وغيره ، ومحمد المسناوي مرينو المعدل الحيسوبي الشيخ الفرضي المؤرخ ورياضي الرباط الكبير محمد بن الرئيس علي التريكي والقاضي ابن ابراهيم السالف الذكر والفقيه السيد محمد احمد الرغاي الاديب المؤدب، على ان اكبر رياضيي الرباط هو التادلي الذى كان من المهرة فى العلوم الرياضية ، وقد اخذ الحساب بفاس عن سيدي العربي البلغيثي واخذ التعديل وعلم الرخامات والكرة والاسطرلاب والربع والهيئة عن اعجوبة عصره السيد المكي الجنان حسبما ذكر ذلك فى اختصاره لتذكرة الانطاكي فبحث المفرح، كما كان المفتي السيد الجيلاني بن ابراهيم من اهل المعرفة بالحساب ايضا اخذه عن ابي اسحاق ، كما كان بالرباط العدد العديد من الطوبجية الماهرين فى الحساب فان السلطان المولى محمد بن عبد الله كان اتخذ الرباط مدرسة لتعليم الطوبجية من اهل العدوتين كما بالاستقصا والحساب من وسائل تلك العلوم وقد ادرك المغاربة المتاخرون قبل الاستقلال جماعة منهم .

الرباط ـ حسن السائح



للأستاذ: عبد القادر زمامه

180 تذييل ...!

وجدت في كناشة الفقيه ابن قفيرة المكناسي (*)
قال ابو العباس المنجور : وكان شيخنا عبد الواحد الونشريشي كثيرا ما ينشد بيتي ابي العيناء..

شيئان لو بكت الدماء عليهما
عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم نبلغ المعشار من حقيهما :
فقد الشباب وفرقة الاحباب –

وزاد صاحب الكناشة فقال :
وقد ذيلهما ابو الحسن الشامي بقوله :

والثالث المنسي اعظم منهما
ذل السؤال ووقفة بالباب

ثم زاد ابو حامد الفاسي :

والرابع المزري بكل ذميمة
رفع الغبي وذلة الالباب

وذيل ذلك بعضهم فقال :

والخامس المقنى لمهجة واجد
صرم المحب بدون ما اسباب

181 – فتوى ...!

وجدت في كناشة الفقيه ابن قفيرة المكناسي :
استدل الفقيه العبدوسي بما انشد بعض المعمرين من الشعراء :

اليس ورائي ان تراخت منيتي
لزوم العصا تحنى عليها الاصابع
اخبر اخبار القرون التي مضت
ادب كاني كلما قمت راكع ...!

على عدم صحة امامة الشيخ المقوس الظهر للسالمين وافتى بالبطلان قائلا : انه راكع لا قائم ..!

قال ابن غازي في تكميل التقييد وقد نقل ان العبدوسي عضه الزمان بشيء من هذا او كاد .. وذلك انه لقي بمكناسة شيخنا الاديب ابا زيد عبد الرحمان بن ثابت .. فنظر اليه وقد انحنى ظهره فقال له يستدعي منه الشعر بديهة : لا تنحني يا شيخ لا تنحني .. فانشد ارتجالا :

يا سليل الكرام نفسي فداكا
قلت لا تنحني وانت كذاكا
خفض الظهر فاعل الدهر منا
مع حال عدمت منه انفكاكا
ختم الله للجميع بخير
انه قادر على فعل ذاكا

وافتى ابن عرفة والقوري بصحة امامته ..!!

182 – الطرقون ...!

من الغرائب التي كانت في الاندلس ايام اختلال احوالها .. ان هناك موظفا خاصا باستخلاص ضريبة على الافراح ...! يسمى عندهم الطرقون .

(*) اطلعني على هذه الكناشة الاخ السيد حماد بوعياد فله خالص الشكر ...

ويحدث ان يكون هناك طرقون رسمي .. وطرقون مزيف .. وكلاهما ياخذ حقه ..!! والطرقون المزيف يهدد اصحاب الحفل بافشاء اخبارهم لدى السلطة اذا لم ياخذ حقه .. حتى قال احد الشعراء..

ولا تنس اياما تقضت كريمة
بزاوية المحروق او دار همدان
وتاليفنا فيها لقبض اتاوة
واغرام مسنون وقسمة حلوان
وقد جلس الطرقون بالبعد مطرقا
يقول: نصيبي..! او ابوح بكتمان..!

183 ـ عبد الوهاب بن المعتمد ..!

ترجم ابن الابار في التكملة طبعة مدريد ج 2 ص 639 لعبد الوهاب نجل المعتمد بن عباد .. وختم هذه الترجمة بقوله :

« وقدم لصلاة الفريضة بجامع مراكش. واستنيب في الخطبة مدة . وكان خيرا وقورا معلوم العدالة والنزاهة ثم تخلى عن ذلك وانقبض وتخير الانتقال الى تادلى ..! فتوفي بها بعد العشرين وخمسمائة .. »

184 ـ ما يبالي حسن ما لبسا ..!

رايت منسوبا لابي بكر ابن العربي هذه الابيات ولا ادري اهي من انشاده .. ام تمثل بها ..؟

لبس الصوف لكي ننكره
واتانا وجهه قد عبسا
قلت ايه قد عرفناك ردا
جل سوء ما يعيب الفرسا
كل شيء انت فيه حسن
ما يبالي حسن ما لبسا

185 ـ الطائفة المكازية ...!

وجدت في الرسالة التي الفها ابو علي اليوسي في الطائفة المسماة « العكازية » او « العكاكزة » ما ياتي :

« ولقد تظاهروا بهذا .. حين سموا انفسهم اسماء وسموا المسلمين باسماء اخرى .. ليتميز كل فريق بلقبه .. فكان منهم من كان في قبائل البربر كزمور يسمون انفسهم : العكازين ..! ويسمون المسلمين » ارقين ..؟ » ومن كان بقبائل الغرب كأهل تادلا يسمون « الشراقة » ويسمي المسلمين « الخرائلة » وفي هذا المعنى قولهم للمسلمين انهم اصحاب محمد ..! ونحن اصحاب احمد ..! واصحاب المنزول ....! ويقولوا في الميتة : ذبيحة الله وهي خير من ذبيحة الآدميين ....!! »

186 ـ البلغة

البلغة : هي الحذاء الجلدي المستعمل في المغرب .. والكلمة كانت معروفة بالاندلس .. ويظهر من مادة الكلمة انها عربية .. ويجمعونها فيقولون «بلاغي» واشتهرت الكلمة في المغرب ومصر وما زالت مستعملة باسمها ومسماها الى الآن ..

غير ان البحث ادى الى ان مسمى البلغة في العصور القديمة كان يعني انها مصنوعة من مادة نباتية وهي الحلفاء كما ان هناك في الاندلس القديمة كانت توجد كلمة (Pâga) برغة بمعنى حذاء مصنوع من الحلفاء ..!!

وقد اشار بعض شعراء الاندلس الى البلغة بقوله في قصيدة يمدح بها المامون الموحدي :

لتبليغها المضطر تدعى ببلغة
وان قست بالتشبيه شبهتها نعلا

« والمستشرق (R. Dozy) دوزي تكلم في كتابه تكملة المعاجم العربية على : برغة وبلغة » .

187 ـ السلهام ...

السلهام المغربي له مكانة مرموقة في اللباس التقليدي ويظهر ان هذه الكلمة كانت معروفة في الاندلس بدليل اننا نجد في اللغة الاسبانية عدة صيغ لها ومن جملتها Zulame كما يظهر ان الاصل الاصيل لهذه الكلمة يرجع الى اللغة البربرية القديمة .

ونجدها مكتوبة هكذا : سلهم وسلهام وسلهامة كما نجد الجمع هكذا : سلاهم ...

ويلبس السلهام فوق الجلابية وله جناحان طويلان .. وغطاء للراس لا يستعمل الا نادرا

وقد اشتهر من ملابس البربر « البرنس » وهو شديد الشبه بالسلهام .. الا ان السلهام يلبس فوق الجلابية بخلاف البرنس فانه كان يستعمل وحده .. وما زال ..

واشتهر عن البربر انهم : يحلقون الرؤوس ..! ويلبسون البرنس ..! وياكلون الكسكس ..!

188 ـ مسجد الحوراء بفاس ..!!

ترجم ابن الآبار فى التكملة ج 1 ص 207 من طبعة مدريد لمحمد من محمد بن معاذ اللخمي ... وختم هذه الترجمة بقوله :

« وخرج من اشبيلية بلده واستوطن مدينة فاس وتصدر للاقراء بمسجد الحوراء منها ..؟؟ الى ان توفي بها فيما قال ابو القاسم بن الملجوم فى المحرم سنة 553 هـ ذكره ابن مومن . وفيه عن غيره »

189 ـ غفير ...؟

فى نوازل المعيار للونشريشي ج I ص 347

« كان يرافق الحجاج شخص معين يسمى : غفيرا ..؟ جرت العادة بالسلامة معه غالبا ..! باعطاء مال من جهة السلطان او من طرق الحجاج .. »

« الونشريشي يقص الركب المغربي الذى كان يقصد الديار المقدسة كل سنة ولعل اصل كلمة غفير .. خفير بالخاء .. »

190 ـ زمن الضياع ...!

فى زوائد تكملة ابن الآبار المطبوعة بمدريد سنة 1915 م فى ترجمة عمر بن محمد بن يعمر من اهل المرية ...

قال ابو الطاهر السلفي : قدم علينا الثغر يعني الاسكندرية وكان من الاذكياء انشدنا لابي الحسن علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف بالحداد المهدوي ..

قالت وابدت صفحة
كالشمس من تحت القناع
بعت الدفاتر وهي آخر
ما يباع من المتاع
فاجبتها ويدي على
كبدي وهمت بانصداع
لا تعجبي مما رايت
فنحن فى زمن الضياع ..!

191 ـ يازغي ... وابن يش ...!

وجدت من شعر الفقيه الشيخ عبد القادر ابن شقرون هذين البيتين :

حبيبي ان محضت اليه نصحي
يقل هذا لعمر الله غش
فلم يرفق على جسدي ومالي
كاني يازغي وهو ابن يش

وابن يشو هذا كان من الولاة الذين اشتهروا ايام الفوضى وكانت ولايته سنة 1147 هـ

192 ـ الشيخ حمدون ابن الحاج فى العطارين ..!

وجدت فى (رياض الورد) فى الروضة الثامنة :

« وقول العلامة اللغوي المجتهد على الاطلاق ..!! ابو عبد الله سيدي محمد المجيدري الشنقيطي ..! وقد مر يوما بسوق العطارين الكبرى فوجد الشيخ ابا الفيض حمدون .. يبيع ويشتري لضيق ضرورياته ..! وذلك فى اول أمره ..

فقال (الشنقيطي) متمثلا بقول ابي هلال العسكري ...

جلوسي فى سوق ابيع واشتري
دليل على ان الانام قرود ...!
ولا خير فى قوم يذل كرامهم
ويعظم فيه نذلهم ويسود ...!
وتهجوهم عني رثاثة حالتي
هجاء قبيحا ما عليه مزيد ..!

193 ـ فى معركة تطوان ..!

وجدت فى كناشة الفقيه ابن فقيرة المكناسي قصيدة يبلغ عدد ابياتها 76 بيتا فى معركة تطوان ..! وقد قدم لها ناظمها بهذه الكلمات :

« يقول كاتبه سامحه الله بمنه يوم استولى الكافر لعنه الله على مدينة تطوان ـ اعادها الله دار اسلام وامان ـ وذلك فى بضع عشر ليلة من رجب الفرد سنة ستة وسبعين بموحدة ومائتين والف »

والقصيدة من شعر الفقهاء ...! واغرب ما فيها ان صاحبها يحمل اهل تطوان وحدهم مسؤولية جميع ما وقع ..!!! فيقول :

كيف صار بكم اهيل تطوان
خبرونا عنكم بما فى الجنان
احسنا رايتم ما فعلتم
بل وبال عن الكريم الديان
الله الله اين من علم العلـ
ـم لديكم ومن تلا للبيان
اقلم تنفع القلوب علوم
طال مكثها فى حجا الاذهان

فاس ـ عبد القادر زمامه

أين نحن من :
الثقافة العربية المعاصرة

للاستاذ عبد العلي الوزاني

اظن ان قد آن الاوان لاثارة هذا الموضوع ، ذلك ان عملية النقد الذاتي من اوكد ما يلزمنا فى وضعنا الثقافي الراهن . فبواسطتها نتمكن من ادراك حسنات هذا الوضع وسيئاته ، متخذين من ذلك منطلقا نحو غد ثقافي افضل . ويجب ان تتم هذه العملية فى نطاق الثقافة العربية عامة ، اذ لو اننا قسنا انفسنا الى انفسنا ، فلن نصل الى نتيجة ايجابية فى هذا المضمار . والقياس الى النفس فى الشؤون الثقافية — وكذا فى المجالات الاخرى — لا يؤدي الى تبين العيوب وتجسيمها ، قصد تلافيها فى المستقبل ، الا ان قياس الواقع الثقافي المغربي الى الثقافة العربية المعاصرة ، ينبغي أن يخضع لشروط سنشرحها فى موضعها المناسب من هذا الحديث .

وانا ها هنا لا اطلق كلمة (الثقافة) لتنصرف الى الناحية الادبية وحدها ، وانما اطلقها على معناها الواسع الشامل ، الذي تدخل فيه كل انواع المعارف النظرية والعملية ، طبقا لمدلول الثقافة فى استعمالها المتعارف عليه . وعليه ، تدخل فى الكلمة الآداب وعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وكذا العلوم الطبيعية والرياضية والخبرة اليدوية المكتسبة فى الصناعات والتقنيات المختلفة ، وكذلك العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وتشريع وما الى ذلك ، هذا باضافة الوان الادب الشعبي على تعدد فنونه وآفاقه ، والفنون الجميلة من رسم ونحت وتصوير وعمارة وموسيقى . ولست ادعي اني سأشمل ببحثي كل هذه النواحي ، لان ذلك يتطلب عدة دراسات لا دراسة واحدة ، نعم لست ادعي اني سأقف عند كل علم او ادب او فن على حدة ، لا فصل القول فى حظنا منه ، بالنسبة للجو الثقافي العربي العام ، فذلك مطلب ارجو ان تتيسر لي الوسائل الضرورية للنهوض به على الوجه الاكمل ، ولكن حسبي الآن ان اتحدث عن هذه القضية بكيفية مجملة ، ليكون ذلك تمهيدا للقيام بدراسة مفصلة ، متى تحققت شروطها الضرورية اللازمة .

وبعد ، فما هي المبررات الاساسية التي تحتم دراسة هذا الموضوع ؟

او بعبارة اوضح : ما ضرورة بحث هذه القضية فى الوقت الراهن بالنسبة الينا ؟

للاجابة عن هذا السؤال ينبغي ان نتفق اولا على ان من الموضوعات المطروحة للكتابة ، ذلك الموضوع الذي يمكن طرحه فى كل وقت ، وفى جميع الاحوال والعصور ، لانه لا يتقيد بحدث معين ، ولا يرتبط بمرحلة خاصة ، ولا بحالة موقتة اذا مرت يكون الحديث فيه عبثا لا طائل وراءه ، وذلك كالحديث عن شاعر كالمتنبي او شوقي او شيكسبير ، او تناول موضوع الغزل فى العصر الاموي ، او الشعر السياسي عند الخوارج ، الخ . وعلى العكس من ذلك ، هناك المواضيع الموقتة ، بحادث معين او حالة خاصة او ما هو من هذا القبيل ، وهذه ليست مطلقة ولا صالحة

لكل عصر ، وانما هي مرهونة بملابساتها الموقتة وظروفها الخاصة ، وذلك كالحديث عن موضعنا من الثقافة العربية المعاصرة الذي نحن بصدده ، فبعد مرور عشر سنوات يمكن اثارة هذا الموضوع من جديد ، ولكن بالنسبة لواقع الثقافة في المغرب ، بعد مرور هذا العدد من السنين ، او بوصفه مرحلة تاريخية بحتة ، والمواضيع التاريخية لا تبلى ابدا . اما اثارته الآن ، فلابد ان تخضع للظروف والملابسات الحاضرة ، وبذلك يكون قضية موقتة في شكلها وطريقة عرضها وابعادها المختلفة .

ومع احترامي الكامل لاي موضوع مطلق عام، يتناوله باحث ليسلط ضوءا على جانب أو أكثر من جوانبه التي ما زالت غامضة ، فاني ارى اننا نكون مقصرين في ذات الثقافة المغربية ، ان نحن اوقفنا جهودنا الثقافية على هذه الزاوية ، لا نتجاوزها الى تلك الموضوعات الاخرى، التي تستدعيها طبيعة المرحلة الثقافية التي نجتازها الآن . فسوف لا يبلى الحديث عن (الشخصيات العلمية والادبية الماضية ؛ ولن يبلى الحديث عن الحركات التاريخية الهامة في تاريخ العرب والاسلام ، نظرا لكون الحديث عن مثل هذه الشؤون، كلما تجدد يستفيد من آخر تطورات المعرفة وما جد من اسلحتها التي يمكن استخدامها في الدرس والبحث . بيد انه ليس من اللائق الا تمتد انظارنا الى آفاق المستقبل ، والا نثير المواضيع والقضايا المستوحاة من الحاجات الثقافية الاكيدة ، قصد الخروج من اطار النظر الضيق والاهتمام المحدود ، الى النظر الطليق والاهتمامات الاشد صلة بمتطلبات البيئة الثقافية .

اذا كنا متفقين على هذا المبدا ، يبدو لي ان هناك اكثر من مبرر لاثارة هذه القضية الآن .

في مقدمة هذه المبررات ، اننا نقع بالفعل داخل حقل الثقافة العربية . قد نكون في هذه الناحية أو تلك من هيكلها الضخم ، وقد نكون منها في مركز ضعف ، ولكنا على أية حال نوجد داخل هذه الثقافة ، تشملنا ضمن من تشملهم من الشعوب العربية . وبناء على ذلك ، يكون من الضروري ان نعرف اين نحن منها ، وماذا نمثل من اتجاهاتها ومستوياتها ، وفي اي فرع نستقر من فروع شجرتها العظيمة الوارفة الظلال . فكل ثقافة تنتشر في أرض شاسعة الاطراف ، وبين شعوب عديدة كالثقافة العربية بالنسبة الى الوطن العربي الكبير ، والى الشعوب العربية الضخمة ، تجد جميع مراحل تاريخها تقريبا موزعة بين ابنائها على نسب متفاوتة ، فمنهم من يمثل منها عصرها الوسيط، ومن يمثل منها عصرها القديم، ومن يمثل منها حاضرها المشهود ، من يكون منها في موضع الصدر ، ومن يكون منها في موضع الذنب ، من يحتل منها الصميم ، ومن يعيش منها على الهامش . وما الثقافة العربية الا واحدة من تلك الثقافات الكبيرة العريقة ، يتوزعها العرب قاطبة ، ويختلفون في القطاعات والمستويات والجهات التي يحتلونها منها ، تبعا لمبلغهم من التقدم العلمي والتماسك الاجتماعي والنهوض الاقتصادي .

ومنها اننا نشعر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا نحو هذه الثقافة العربية ، لاننا من جنودها وسدنة معبدها ، في انحطاطها انحطاطنا ، وفي رفعتها رفعتنا ، هي ليست دخيلة علينا ، ولم نستوردها من الخارج ، وانما هي من صميم شعورنا القومي والوطني فواجبنا ان نعرف بدقة الدور الذي يمكننا اداؤه في خدمتها وصيانتها . ونحن مدعوون اليوم الى تبين موضعنا منها لنزيده تحصينا وتمتينا اذا كان موضع قوة ، ولنعالجه المعالجة اللازمة اذا كان موضع ضعف ، وبذلك نكون قد قمنا بدورنا الايجابي نحوها

ومنها اننا نريد ان نعرف بدقة من اين ينبغي أن نبدا . فنحن لحد الآن عند انتاجنا للادب وسائر الوان الثقافة ، لا نخضع الا لشيء واحد ، هو المزاج الفردي الخاص . بمعنى اننا نتناول من المواضيع ما وافق هوانا ، وشايع منازعنا ، دون ما مراعاة لخطة معينة ، او منهج مدروس ، توضع فيه المواضيع بطريقة منظمة ، تعطي الاسبقية لموضوع على آخر ولقضية على اخرى تبعا لطريق مرسوم ، وغير خاف ان رجوع امر الكتابة الى المزاج الفردي وحده ، دون خطة ما ، يعتبر من علامات الطفولة الادبية . لذلك كان من الزم الامور لنا الآن ، ان نعرف من اين ينبغي أن نبدا ، وما هي القضايا التي يجب تقديمها على غيرها، وما المقياس الذي نعتمد عليه في تقديم ما نقدم ، وتأخير ما نؤخر . ولن يتأتى لنا هذا الا اذا عرفنا موقعنا من الثقافة القومية ، وربما من ثقافة العصر ايضا ، فنكون قادرين على رؤية نقط الانطلاق ، بالقياس الى ما قطعنا من اشواط ، وما ينتظرنا من اشواط اخرى .

ويمكنك أن تضيف الى المبررات السابقة مبررات اخرى ، كتقييم واقعنا الثقافي الراهن ، ومعرفة ما استطعنا اضافته الى الهيكل الثقافي العربي العام ، واسلوب تجاوبنا مع الاصداء الثقافية الآتية من هنا وهناك

والآن لندخل الى ما نحن بسبيله ، وليكن سؤالنا الاول : كيف السبيل الى معرفة موضعنا من الثقافة العربية العامة ؟ الامر في منتهى البساطة . فنحن اذا أردنا معرفة موقع منزلنا من الحي الذي نسكنه ، نلقي نظرة عامة على الحي تحيط به من كل الجهات ، كي تتمكن من رؤية موقعنا منه ، واذا اردنا معرفة موقع بلادنا من جغرافية الارض ، نقوم الى المصور الجغرافي لنشمله بنظرة شاملة ، ثم نشير الى النقطة التي نحتلها من هذا الكون الكبير . وكذلك لو حاولنا تبين موضعنا من الثقافة العربية ، تعين علينا القاء نظرة عامة على هذه الثقافة ، تظهرنا على الناحية التي نحتلها من جغرافيتها الكبيرة .

ومحاولة رسم مصور جغرافي للثقافة العربية ، ليس بالامر السهل ، نظرا لتشعب فروع هذه الثقافة، وتنوع فنونهاوتعدد مراكزها، وضخامة هيكلها المعماري. ولكن لا معدى لنا عن القيام بمحاولة ولو بسيطة لاعطاء وصف تقريبي لها ، يمس الخطوط العامة ، والمعالم البارزة، لاتخاذها مفتاحا لها يندرج تحت كليتها من الجزئيات والتفاصيل ، لمن شاء المزيد من البحث والاستقصاء .

الثقافة العربية اليوم ، شبيهة بالثقافة العربية في العصر الاسلامي الوسيط ، من حيث انها فتحت أبوابها لاستقبال اشعة الفكر الانساني من اي مصدر اتت ، خارجة من عزلتها التي فرضتها عليها اجيال من التخلف والانحطاط والجمود . وكنتيجة لذلك خطا الادب العربي خطوات لعلها أن تكون فريدة من نوعها ، بالنسبة الى الآداب العربية القديمة والوسيطة . فتقدمت بحوث النقد الادبي والادب المقارن — رغم قلة ما كتب فيه — واصبح النقد الادبي التطبيقي ذا اصول ومناهج تعتمد على الدراسات النفسية والاجتماعية ، والتاريخ للادب العربي استفاد من احدث مناهج الدرس ، فكانت حظوظه في هذا العصر احسن الحظوظ حيث ظهرت حقائقه بدقة وتفصيل ، بفضل مناهج الدرس ، ومساعدة العلوم التي تعتبر من ادوات المؤرخ الادبي ، كعلوم الاقتصاد والنفس والاجتماع والسياسة وغيرها . والادب الانشائي حقق تقدما كبيرا ولا سيما النثر ، فتدفق الانتاج القصصي والمسرحي ، اقتباسا وترجمة اولا ، ثم ابداعا وابتكارا بعد ذلك . وتصدرت المقالة الادبية والاجتماعية والسياسية صدر الصحافة الادبية والسياسية ، وتنوعت طرقها بتنوع موضوعاتها ، وثقافة كتابها وأمزجتهم .

وتكونت مدارس فكرية للدراسات الاجتماعية نظرية وتطبيقا على واقع المجتمعات العربية الحديثة والقديمة . ومدارس للدراسات الفلسفية ، وان كانت تتبنى مذاهب فلسفية غربية ، مثل (الوجودية) (عبد الرحمان بدوي / و (الوضعية المنطقية) (زكي نجيب محمود) و (الجوانية) (عثمان امين) . واستفاضت الدراسات والبحوث في علوم الاقتصاد والقانون والسياسة . وشمل التجديد الدراسات الدينية ، فجدت طرق في التفسير ودراسة الحديث متنا وتاريخا وكذا في بسط نظريات الفقه الاسلامي ، مع مقارنتها بنفسها حسب اختلاف المذاهب الفقهية ، ومقارنتها ببعض القوانين الاجنبية ، وصرنا نرى الفقه يتصدى للرد على المستشرقين ، ويوازن بين تعاليم الاسلام ، وتعاليم الاديان السماوية الاخرى ، ويحاول التوفيق بين احكام الاسلام واوضاع العصر . والبحوث اللغوية تطمت هي الاخرى اشواطا بعيدة ، فاقيم بناء شامخ لدراسة الكلمة العربية ، نبرا وايقاعا وتاريخا ودلالة واستعمالا ، ادبيا ودينيا واجتماعيا . الناحية التي ما زالت الثقافة العربية ضعيفة فيها ، هي الناحية العلمية الصرف ، فما زال العرب ينتظرون أن ينتهي الغرب من ابداع نظريات العلم وقوانينه ، اكتشافا من استقراء ظواهر الطبيعة ليعلموا بها في وقت متأخر ، وربما بغير دقة ومهارة في اكتسابها وتلقيها . وبالرغم من ذلك ، فقد عربت أكثر فروع الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات ، مع اختلاف البلدان العربية في اخذها بالتعريب ، ما بين سائرة فيه بخطى حثيثة ، ومترددة مشفقة على نفسها من اخطار هذه العملية . فالتعريب في العربية المتحدة مثلا اوسع منه مجالا في لبنان . والمكتبة العربية اليوم مكتظة بالمترجمات الادبية من شتى اللغات ، ولا سيما من الانجليزية والفرنسية والروسية ، مع تفاوت في حظوظ هذه اللغات من الانتقال الى العربية ، فالانجليزية والفرنسية أولا ، ثم الروسية والاسبانية تبعا للصلات التاريخية القديمة والحديثة التي ربطت بين الشعوب العربية وغيرها من الشعوب الاخرى ، اذ الامر راجع الى نوع الاستعمار الذي تعرضت له كل بلاد عربية ، والاتجاه الخارجي الذي سارت فيه ، بحكم ظروفها الخاصة .

ولئن اتهمت هذه الثقافة العربية بانها مجرد زبون للثقافات الاخرى ، تأخذ منها ولا تعطيها شيئا ، فلاشك في اصالتها وعراقتها ، واستعدادها للتاثر والتأثير ، والاخذ والعطاء ، انما الشيء الذي كون هذه النظرة اليها عند الاجانب ، هو جهل أكثرهم بها ، وهذا راجع

الى دس بعض المستشرقين ، والى تعود العرب انفسهم عن التسريف بأدبهم وحضارتهم الفكرية بين شعوب الارض ، بالاضافة الى تخلفهم الاجتماعي والاقتصادي والعلمي ، الذي افسد سمعتهم في الخارج حتى صار ينظر الى كل ما يمت اليهم بصلة بعين الريبة والحذر . مع الاعتراف بان جزءا هاما من هذه الثقافة يرجع الى أصول اجنبية فعلا ، دفع الاجانب الى تجريد الثقافة العربية من كل أصالة ، وهذا يخالف الحقيقة .

هذه باختصار نظرة خاطفة عن واقع الثقافة العربية ، وهي نظرة لا ازعم انها عميقة أو كافية . وحسبك انها قضية تتطلب المجلدات الضخام، ألمنا بها في عجالة خاطفة . وعذري اني اكتب مقالا لمجلة ، ولا اضع بحثا مفصلا طويل الذيول .

والآن في وسعنا ان نعرف موضعنا من هذه الثقافة ، وهذا امر يتطلب ايضاح حظنا منها لحد الآن ولكن قبل ذلك لابد من ملاحظة امور عدة .

أولها — ان الثقافة العربية هي للعرب جميعا اينما وجدوا ، فهي ليست شيئا محتكرا لفريق دون فريق ، ولا هي ابنة بلد دون بلد ، فالعلماء والادباء العرب ينتمون الى جميع البلاد العربية ، ويشتركون جميعا في اعطاء هذه الثقافة وجودها الحي الخالد .

وثانيها — ان تاريخ كل بلد عربي ، والاحداث التي توالت عليه ، مما له دخل كبير في حظه من هذه الثقافة ، ونوع تمثله وتجاوبه معها . فلا يمكن ان تطالب البلد العربي الذي لم ينل استقلاله الا منذ وقت قريب ، ان يكون في مستوى البلد العربي الذي مرت على استقلاله عقود من السنين .

وثالثها — ان فرص الاحتكاك بالثقافات الاجنبية — هذا الاحتكاك الذي يعد من أهم أسباب النهضة العربية الحديثة — متفاوتة بين البلاد العربية . فهناك البلاد التي فرضت عليها ظروفها الخاصة العزلة والانكماش زمنا طويلا ، فلم يكن حظها في هذه الناحية كحظ البلاد العربية التي قدر لها ان تتصل بالحضارة الاجنبية منذ وقت مبكر . وهذا الاختلاف لا شك في انه يفرض تفاوتا في المستوى الثقافي الى ابعد الحدود .

ورابعها — ان للموقع الجغرافي اثره الكبير في انتقال الحركات الفكرية من بلد الى بلد ، وفي تفاعل التيارات الثقافية . وعليه فالمناطق البعيدة ، او التي تسمى في العرف الجغرافي (منطقة أطراف) والمغرب من هذا القبيل — لا يمكن ان تتساوى ثقافيا مع البلدان العربية التي تهيأ لها بحكم موقعها الجغرافي ان تقع تحت التاثير المباشر للثقافة العربية المنحدرة عن العصر الوسيط ، عصر الرشيد والمامون ومن اتى بعدهما ، وان ترث منذ وقت بعيد حضارة العرب الفكرية القديمة والوسيطة .

وخامسا — عامل النسبة المائوية من حيث عدد السكان بالقياس الى مجموع الشعوب العربية . فاذا كنا ثلاثة عشر او اربعة عشر مليونا من السكان ، فمن الظلم ان نقاس على اكثر من ثمانين مليونا من العرب ، بعد اسقاط عددنا من مائة مليون التي هي عدد العرب اجمعين . يخطىء من يقيس واقع المغرب الثقافي بالواقع العربي كله فيقول مثلا : لماذا لا يكون الكتاب المغربي في مستوى الكتاب (الشرقي) ؟ يقولها هكذا، من غير تفرقة بين بلاد وبلاد ، والاقرب الى الصواب ، أن نعقد مقارنة بين بلدين عربيين أو اكثر ، يتقاربان في ظروفهما التاريخية ، وفي حظوظهما الثقافية ، وفي طاقتهما البشرية .

هذه امور لابد من مراعاتها قبل الاقدام على توضيح موضع المغرب من الثقافة العربية ، لاننا لا نود ان نكون مظلومين في ميزان الحسنات والسيئات ، ولا ان يكون نصيبنا من العبء الثقافي لا يتناسب وامكانياتنا وظروفنا الخاصة ، وكل حديث عن واقع الثقافة في المغرب ، لا يضع في اعتباره هذه الظروف والامكانيات ، يؤدي لا محالة الى ظلم هذا البلد العربي وانتظار صدور المعجزة منه ، الامر الذي يخالف نواميس التطور .

وكما قمنا بعملية وصف جد موجزة لحصاد الثقافة العربية عامة ، كتمهيد لوضع الاصابع على موضعنا من هذه الثقافة ، لابد من القيام بعملية مماثلة ، بالنسبة لواقعنا الثقافي ، حتى نتمكن من تبين ما تمثله من تلك الثقافة ، وما نشخصه من آفاقها الواسعة . ولكن يجب الا يغيب عنا لحظة ، ونحن نفعل هذا امكانياتنا وظروفنا حتى لا نقع في الظلم .

وليست الطريقة الصالحة لتشخيص الواقع الثقافي في المغرب ، هي أن نقف عند كل فن أو علم على حدة لنتساءل : ماذا انتجنا في الادب ؟ ماذا انتجنا في العلم ؟ لان ذلك يؤدي بنا دون ما شعور ، الى قياس الصورة على المثال ، فاذا وجدناها تقل عن المثال في جمال التكوين ، ودقة التقاطع ، صرنا ننعى على الواقع الثقافي في المغرب جموده ، وحطمنا الصورة وكل ذنبها انها لم تطابق المثال . لا ، ليست هذه هي

الطريقة التي يجب اتباعها في هذه القضية . كما لا ينبغي أن نقع تحت تأثير عواطفنا الوطنية فنضيف الى واقعنا الثقافي ما ليس فيه من المزايا والصفات ، فننزعم لانفسنا كيت وكيت مما لا يمت الينا بصلة في الوقت الراهن . وهذا منزلق خطير يجب ان ننأى عنهمتسلحين بالشجاعة الادبية .

وانما الطريقة الصالحة في نظري ، هي ان نبدأ من الاساس ، والاساس هو ان نتساءل علىهذا النحو : ما مبلغ الواقع الثقافي المغربي من التلاؤم بينه وبين ما قدر لنا من فرص النهوض الثقافي ، بناء على ظروفنا التاريخية والاجتماعية وغيرها ؟ أو بعبارة اكثر وضوحا : هل استفدنا من امكانياتنا الخاصة وطورناها واستنفذنا معطياتها ؟ ام نحن مقصرون في ذلك ؟ وفي أي شيء تتجلى استفادتنا في الحالة الاولى ، او تقصيرنا في الحالة الثانية ؟ ومن مزايا هذه الطريقة — طريقة وضع النتائج الى جانب الامكانيات — انها تضع ثمرات الفكرية موضعها المناسب ، وفي اطارها المتلائم مع ملابسات الزمان والمكان ، مع عدم اغفال نسبة هذه النتائج الى التراث القومي العام .

وهذه ظروفنا : نحن شعب لم ينل استقلاله الا منذ ثلاث عشرة سنة ، بعد أن عاش في ظل الحماية اربعين سنة ونيفا ، كان خلالها معزولا سياسيا عن اخوته الشعوب العربية ، وشبه معزول عنها ثقافيا ، اذ ان ما ورد على المغرب من ثمرات الثقافة العربية الشرقية ، كان خاضعا لرقابة شديدة . اما الاتصال المباشر بينه وبين اخوته هناك ، فلم يكن اليه من سبيل وقد قضت الانظمة الاستعمارية ببقاء معاهد المغرب على نظامها العتيق ، فلم يعرف التعليم تطورا جذريا ، ومن ثم اكتفى جل مثقفيه بالثقافة العربية بالاجترار والانكباب على قشور الثقافة العربية في صورتها المتحجرة الجامدة التي استقرت عليها طيلة عصور الانحطاط . كما قضى النظام الاستعماري بالحيلولة دون نشر التعليم بين صفوف جميع المواطنين، فبقيت الاغلبية منا أمية ، وانحصرت الثقافة في عدد قليل من المواطنين بالقياس الى عدد افراد الامة ، قصد اعداد موظفي الادارة ، مما كون طبقة تتعالى بثقافتها على الشعب الفقير الجاهل ، امعانا في الدس والتفرقة بين ابناء الشعب . ولقيت اللغة العربية مقاومة تعتمد على مخطط استعماري مدروس ، اعده رجال التربية والتعليم الاجانب ، للحيلولة بين الشعب المغربي ولغته العربية التي هي الاساس الاول لقوميته ، ولغة كتابه المقدس ، وكانت السلطات الاستعمارية تكمم الافواه ليلا تتكلم ، وتكسر الاقلام ليلا تتحرك ، وتفرض الحجر على الافكار ليلا تتحرر ، ولو استطاعت لجففت معين العواطف ، ونتيجة لذلك عانت الثقافة العربية من الكيد لها ووضع الالغام في طريقها ، ومنعها من الانطلاق والتفتح على شتى الآفاق ، وحيل بين المثقفين المغاربة — على قلتهم — والتعبير عما تكنه قلوبهم ، وتضطرب به مشاعرهم ، الا في اضيق الحدود واشدها خضوعا للرقابة المباشرة . فلم تترك المواهب حرة لتتفتح وتنطلق ، متعودة على البذل والعطاء . ومعلوم أن الانتاج الادبي والثقافي يرجع في جزء هام منه ، الى عادات عقلية مكتسبة بالمران والممارسة المستمرة . فلما حيل بين المثقفين المغاربة وحرية الفكر ، واصبحت الملكات العقلية معطلة او كادت ، أدى ذلك بطبيعة الحال الى اصابة اكثرنا بالجمود . كان الجمود مفروضا أولا ، ثم اصبح تلقائيا ، كان تطبيقا فصار طبيعة . وتلك مأساة الثقافة العربية في هذه البلاد ، ما زلنا نعاني من آثارها ما لم تستطع سنوات الاستقلال ازالته والقضاء عليه .

وعندما انتزعنا استقلالنا ببذل المهج والارواح ، وتضحية الملك والشعب ، الفينا انفسنا ازاء ارث ثقيل التكاليف ورثناه عن عهد الحماية : اطفالنا جلهم في الشوارع ينتظرون مقاعد الدرس ، ومرضانا يصارعون الموت في انتظار السرير في المستشفى ، وعاطلونا يملأون الارصفة يطلبون العمل ، وجياعنا يلهثون وراء الرغيف وكل هذا كان يتوقف على وجود اقتصاد وطني، والحال ان الاستعمار تركنا دون اقتصاد ، فاتجهت الحكومة المغربية الاولى الى التفكير في وضع أساس نظام اقتصادي وطني ، بواسطته تتحقق المشاريع الصحية والتعليمية والاجتماعية وغيرها . وهذا امر ليس بالسهل ولا بالهين فهناك اذن مشاكل اجتماعية واقتصادية وصحية وتعليمية ورثناها من عهد الحماية، ثقيلة العبء ، باهضة التكاليف ، بالنسبة لاقتصاد ضعيف ، يحاول ان يتماسك ، أو قل بالنسبة لاقتصاد وطني يولد من جديد ولادته الثانية ، التي تفصدها عن ماضيه البعيد مدة نصف قرن تقريبا ، اي منذ اعلان الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 . وطيلة مدة الحماية كان الاقتصاد في بلادنا استعماريا يخدم مصلحة الاجانب والادارة الاجنبية ، ولا يخدم مصلحة الشعب المغربي . وكان من نتائج ذلك ان بقي الشعب جاهلا فقيرا مريضا ، مبعدا عن تقرير مصيره ، يساق بالعصا ، وتغرس في نفسه روح العبيد ، وتغتال كل الفضائل الانسانية ، بالوسائل الجهنمية التي يتقن

الجلادون الاستعماريون استخدامها . وازاء هذه الحالة لا يتأتى نهوض ثقافي ، ولا يتاح للعقل ان يرسل اشعته ويتحرك للابداع .

وقد ورثنا ضمن ما ورثناه عن الوضع الاستعماري علاوة على ما تقدم ، عقلية جامدة متحجرة ، لا تتطور الا بصعوبة ، وعادات وخرافات وطقوسا تلبس لبوس الدين ، وليست من الدين فى شيء ، كان الاستعمار يغذيها ، ويقدم اليها دوما ما هي فى حاجة اليه من وقود ، لتزداد انتشارا او هيمنة على تفكير المواطنين ، وبذلك تأخر المجتمع ، وبقي يرسف فى أغلال الاوهام والخرافات ، وما الفرد الا من تكوين المجتمع ، يحمل حسناته وسيئاته . اما المرأة المغربية — وهي نصف عدد الامة — فقد ظلت قعيدة البيت زمنا طويلا ، ولم تكن تلقى تشجيعا من طرف السلطات الاستعمارية لتلج المدرسة والمعهد ، ان لم نقل انها كانت تقيم سورا منيعا يحول بينها وبين الخروج الى النور والهواء الطلق ، لعلمها ان المرأة هي عصب الحياة ، واستاذة الاجيال ، وصانعة الرجال .

وبعد أن احرزنا على استقلالنا ، ثم تم جلاء الجيوش الاجنبية عن بلادنا ، بقيت فى اعماقنا جيوش اخرى لا تقل خطرا عن الاخرى ، اذا لم نقل انها اشد منها خطرا ، تتمثل فى تقديس كل ما هو اجنبي ، والنظر بعين الريبة الى كل ما هو وطني ، وفى فقدان او ضعف القابليات الفكرية لامتصاص عصارة الثقافات الواردة وهضمها والتفاعل معها واضافة الجديد اليها بعد ذلك . ومصداق هذا ان الثقافة العربية كليا وبجميع فروعها توجد فى بلادنا ، منذ الاستقلال بصفة خاصة ، ولكن فى المكتبات لا فى الرؤوس . لان اكثريتنا لم تربى على عادة القراءة المستمرة ، وحتى اذا قرا البعض منا ، فقل منه من يحسن ان يقرا ، وان يستفيد مما قرا ، وان يكون مبدعا فى قراءته ، وذلك لان قابليات الذهنية المغربية صارت ضعيفة ضيقة ، نتيجة للعوامل السابقة . ومعلوم ان القابليات الفكرية القوية المتفتحة ، تحتاج فى تكوينها الى زمن ليس بالقصير ، والى وضع اسس للتفكير الحر الطليق ، ابتداء من المرحلة الابتدائية حتى الدراسة الجامعية . وهذا ما لم يهيأ لنا فى عهد الحماية الذي لم نخرج منه الا منذ وقت قريب ، لا يعتبر شيئا ذا بال بالنسبة الى حياة الشعوب . فالمدرسة الابتدائية والثانوية كانتا الى اعلان الاستقلال اداتين لخنق الشخصية الوطنية ، وتقويض دعائم كل تفكير حر سليم غرضه البحث عن الحقيقة .

واما الحياة الجامعية فلم نعرفها على حقيقتها — ومع كثير من التجوز — الا بعد الاستقلال ، وابتداء من انشاء جامعة محمد الخامس . وهي ما زالت بحكم حداثتها لم تؤد رسالتها على الوجه المطلوب . ولم تزرع فى نفوس شبابنا الجامعي عادات وتقاليد جامعية على غرار ما نعرفه عن كل جامعات العالم المتقدم . واذن فقد تكونت اجيال من المغاربة — من الوجهة الثقافية — بكيفية مشوهة ، لا تحمل على تعشق الحقيقة ، والتساؤل العلمي البناء ، وتقوية القابليات الفكرية للتفاعل مع الثقافات الاخرى وهضمها والاضافة اليها. وجل مثقفي المغرب هم من مواليد أيام الحماية . اما ابناء ما بعد الاستقلال فما زالوا فى طور نشأتهم ، ولابد ان ننتظر زمنا قبل مطالبتهم بتحمل مسؤولية فكرية او عبء ثقافي فان وجدنا مثقفا مغربيا خرج عن هذه القاعدة ، وحطم القيود الفكرية التي يرسف فيها الآخرون ، فذلك راجع الى موهبة شخصية فائقة كانت اكبر من كل عائق ، فهو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها .

والقابليات الفكرية القوية المتفتحة هي اساس كل نهضة ثقافية ، لانها الوسيلة للهضم والاستيعاب ثم التجديد والابتكار . وهي قد تنعدم حتى عند بعض الشهادات العليا دكاترة وغيرهم ، متى كانت الشهادة رمزا لعدد من المعلومات حصلها صاحبها وادى فيها امتحانا ، ولكنها لا تدل على تطور جذري فى الشخصية ، وفى صميم الفكر ، فهي حينئذ كالسيارة الفاخرة يملكها شخص يكمن فى اهابه بدوي جلف .

تلك هي ظروفنا ، أو جزء منها على الاصح . فما مقدار التلاؤم بينها وبين واقعنا الثقافي ؟ وهل كان فى امكاننا ان نكون احسن مما نحن الآن ، فى اطار ما نملكه من امكانيات ؟ تلك هي النقطة الحساسة فى صلب هذا الحديث . فمعلوم ان كل حركة ثقافية ، قوية كانت أو ضعيفة ، لا يمكن عزلها عن اطارها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والنفسي ، لينظر اليها على انها شيء قائم بذاته ، لا علاقة له بأي شيء سواه . ذلك ان الثقافة هي فى الحقيقة مظهر لعدة علاقات متشابكة متفاعلة ، لا سبيل الى فهم الواحدة منها الا عن طريق فهم الاخريات ، كما أن فهم أدق عضو فى جسم الانسان ، يتطلب فهم الجهاز البدني كله ، نظرا لكون وظيفة العضو ، تتعلق بوظائف الاعضاء الاخرى .

وتقضي القاعدة بان يكون حظ الثقافة من التقدم والتطور ، تابعا لحالة المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ونفسيا ولا يمكن أن تجد بلدا ذا ازدهار ثقافي وهو متأخر اقتصاديا واجتماعيا لان قوة الاقتصاد تقضي على الفقر المدقع ، وترفع الدخل الفردي ، فيتحرر الفرد من الوقوع فى أسر حاجيات البدن والضروريات اليومية ، مرتفعا الى التفكير فى الاخذ باسباب الرقي الفكري والروحي ، واجدا الوسائل المادية للوصول الى هذا الغرض ، على حين تدرك الحياة النفسية نصيبا هاما من الصحة ، اذ تحرر من كثير من العقد الناجمة عن الفقر ، مع ما يصحبه عادة من الخوف من المستقبل ، وانكسار النفس ، وامتلائها بالوسائل والاوهام ، وشعورها بالضعة والانحطاط وفقدان الكرامة ، الامر الذي يثير بعض الافذاذ من ذوي المواهب العالية والنفوس الكبيرة ، فيدفعهم الى التحدي واثبات الذات ، على حين انه يقضي على الاكثرية بالبقاء خارج نطاق الثقافة ، مقيدة بقيود المرض النفسي والحاجة المادية ، وتبعا لذلك تبقى اجهزة الثقافة التي هي وسائل التثقيف ضعيفة لا تفي بحاجيات المواطنين ، ولا تستطيع اداء رسالتها على الوجه الاكمل ، من جراء الضعف الاقتصادي .

واذا كانت السياسة ظالمة جائرة ، تحارب حرية الفكر ، وتضطهد الفرد والجماعة — كما كانت الحال ايام الحماية التي ليست ببعيدة عنا — اقبرت المواهب والملكات ، وادت الى سيطرة عقدة الخوف على النفوس ، وانتشار الرياء والنفاق السياسي ، ولحق الزيف كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية للامة تقريبا ، ومع مرور الزمن يدرك التفكير جمود مزمن يصعب التخلص منه ، ولن يستطيع الفرد والجماعة التخلص منه الا بعد مرور زمن ليس بالقصير . نعم ، لا يكفي فى زواله ان يعلن الاستقلال ، وخروج الجيوش الاجنبية ، بل لابد من وجود مناخ جديد ، يعيش فيه الفرد والجماعة عددا غير قليل من السنين ، قبل ان يتحرر كل منهما من عقده وعاداته التي ورثها عن الماضي البغيض .

ونحن عندما ننظر فى واقعنا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي نجد أننا ما زلنا فى طور البناء ووضع الاساس ، فالاقتصاد الوطني لم توضع اسسه الا بعد الاستقلال ، الذي لم تمض عليه الا مدة يسيرة، وهناك جهود تبذل لاخراج المغرب من حالة التخلف ، وجعله دولة عصرية بالمعنى الصحيح . وما اقامة السدود ، وبناء المدارس والمستشفيات ، وتنظيم الاصلاح الفلاحي ، الا محاولات فى عملية البناء هذه، لتحقيق التطور الاجتماعي ، وارتفاع الدخل الفردي. ولكن هذا العمل لحداثته وقصر عمره ، لا يمكن أن يوتي ثمرته الا بعد مرور عدة سنين اخرى . وفى مجال السياسة من البديهي أن نقول اننا لم نتحرر سياسيا الا منذ وقت قريب ، لا يكفي لازالة رواسب الخوف وسائر العقد النفسية الاخرى التي ورثناها عن أيام الحماية ، وهي العدو اللدود لحرية الفكر ونهضة الثقافة . وابتداء من حياة الاستقلال فقط ، بدأ المواطن المغربي يزاول حرية العمل ، ويمارس حرية الفكر ، ويعرف عمليا معنى الانتخابات ، ويتعاطى النشاط السياسي الحر ، ويساهم فى التجمعات الحزبية دون خوف أو توجس ، ويعطي رايه فى سياسة بلاده ، ويقترح الحلول للمشاكل الاجتماعية ، ولجدة التجربة نرى أن ممارسة الحقوق السياسية التي خولها القانون للمواطنين المغاربة ، اقترنت بكثير من الفوضى والارتجال ، شأن كل جماعة تشرع فى ممارسة حقوقها بعد حرمان طويل .

نحن ما زلنا فى طور التأسيس فى كل نواحي حياتنا ، وبناء حياتنا الاستقلالية بناء يسير ومقتضيات العصر ، ومتطلبات الحاجيات الوطنية : بناء اقتصاد وطني ضخم ، بناء سياسة تحرر الفرد من عقده النفسية، وتعده لممارسة حقوقه عن جدارة واستحقاق وتفسح له المجال للعمل المثمر البناء ، بناء عقلية علمية حديثة تنسجم وطابع العصر ، بناء مجتمع ذي ذهنية متحررة ، عارف بحقوقه وواجباته ، بناء وطن يجد له مكانا فى عالم اليوم .

لذلك لا عجب اذا رأينا الثقافة هي الاخرى تمر بمرحلة البناء هذه ، كمظهر للوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فللمغرب ثقافته العريقة ، ومشاركته فى حقل الثقافة العربية ، ولكنها اصيبت بجمود ، ووقفت عن التطور ، اذ اصابها ما اصاب جميع نواحي الحياة المغربية من اقتصاد واجتماع وسياسة ، ولكنها اليوم تمر بمرحلة تأسيسية جديدة، وان كان ذلك يسير فى حركة بطيئة ومترددة . فأسس البحث الجامعي توضع لاول مرة عندنا بعد الاستقلال، بميلاد جامعة محمد الخامس ، وهي جامعة فتية ما زالت بحكم نشأتها لم تحقق الغرض من انشائها ، ولم يتح لها لنفس السبب ، أن تؤدي رسالتها الاجتماعية والوطنية والانسانية . ولابد ان يمر زمن ليس بالقصير ، قبل أن تستطيع اعطاء ثمارها المرجوة وان تنتج نوع المواطن الذي نرغب فى تكوينه ، بابعاده

الاجتماعية والقومية والوطنية والايديولوجية وغيرها. وما قدم من اطروحات في اطار هذه الجامعة لنيل بعض الدرجات الجامعية يطمئن الى ان اسس البحث العلمي قد بذرت نواتها ، الا انه لا يدل من جهة اخرى على ان تلك النواة قد اثمرت اقوى ما يمكن ان تهبه من ثمرات . وغير خاف ان اسس البحث العلمي لا يمكن ان ترتكز على دعائم قوية الا بعد زمن طويل ، تتحول اثناءها الى بناء شامخ للحياة الفكرية ، والى قابليات عقلية قادرة على التجاوب مع ثقافة العصر وافادتها والاستفادة منها . وجامعتنا واجهتها ظروف صعبة وهي في طور النشأة ، كالنقص في الكفاءات العلمية ، هذه الكفاءات التي هي بدورها ناتجة عن مجتمع متخلف ، وكذلك الحاجة الملحة الى الاطر الضرورية لملء الفراغ الموجود في مختلف المرافق الثقافية ، الامر الذي اقتضى بعض التساهلات في تقنين مستوى الامتحانات والبرامج ومطالب الدرس العلمي العميق .

ولسنا نقول جديدا اذا نحن قلنا ان بلادنا لم تعرف الحياة الجامعية بالمعنى الذي نتصرف اليه اليوم، قبل انشاء جامعة محمد الخامس ، ففي عهد الحماية كان التعليم يخدم مصالح الاجانب والوجود الاستعماري شكلا ومضمونا وهدفا ، وتعليمنا التقليدي كان يحال بينه وبين التطور ومسايرة اوضاع العصر ، ورغم جهاده لامداد الروح الوطنية بالوقود ، وتخريج زعماء الراي والسياسة ، وصيانته للشخصية الاسلامية ، والمقومات القومية من الانهيار ، فهو لم يستطع ان يرسي قواعد حياة جامعية ، بما تعني هذه الكلمة من تجديد المناهج والطرق ، واحداث ثورة في الكتب لتكون لها ابعادها المختلفة ، نتيجة للارهاب الفكري الذي كان مسلطا على الفكر المغربي ومؤسسات الثقافة المغربية كلها .

والحياة الجامعية هي عصب كل نهضة ثقافية، اذ هي بما ترسيه من مناهج الدراسة ، وما تضعه من قواعد التفكير العلمي الصحيح ، وما تكونه من رجال قادرين على البحث والابداع ، تعطي البيئة هيكلها الثقافي القوي ، وتزودها بالعناصر الحية الضرورية لتماسكها وانبعاثها . فخريجوا الجامعة المكونون تكوينا علميا متينا ، هم الذين يملأون المجال بدراساتهم وبحوثهم ، متسلحين بما اودعته الجامعة في عقولهم من حب الحقيقة ، والكلف بالبحث الشاق المضني ، والتماس المعرفة في جميع مصادرها ، وها نحن قد راينا ان جامعتنا ما زالت في طور طفولتها ، ولا تستطيع الآن ان تنهض بالعبء ، وهي في حاجة الى الكفاءات الممتازة ، والى التجربة الطويلة المدى ، لتستفيد من الاخطاء ، وتتلافى اوجه النقص .

فاذا نحن خرجنا من جو الجامعة الى المجال الثقافي العام ، نجد محاولة وضع الاسس في غير ما فن من فنون الثقافة ومجالاتها ، ضمن المرحلة التاسيسية التي نجتازها الآن ،في الاقتصاد والاجتماع والتعليم وغير ذلك . وهناك معالم بارزة تقف كشواهد على ما نقول . ففي حيز التاريخ الادبي ، نجد الاستاذ الكبير عبد الله كنون يضع الاساس الاول لتاريخ الادب المغربي ، بتاليفه لكتاب (النبوغ المغربي في الادب العربي) ، فكتابه هذا يعتبر عملا رائدا في هذا الباب، يذلل كثيرا من العقبات امام كل من سيتصدى لكتابة تاريخ لهذا الادب ، ولن يجرؤ احد على انكار فضل الكتاب عليه ، ففي تصدي للكتابة في نفس الموضوع. فبعد تاليف هذا الكتاب — ولاسيما في ثوبه الجديد — اصبحنا نقول ان لنا تاريخا ادبيا وفي اذهاننا صورة عن هذا الادب ان لم تكن دقيقة ولا واضحة بالقدر الكافي، فهي اقرب الى الوضوح منها الى الغموض ، وهذا ليس في حدا ذاته سهلا ولا هينا ، سيما وتاريخ الادب المغربي يكتب للمرة الاولى بشيء من التوسع ، وبكثير من الامانة العلمية .

وفي مجال تاريخ الحضارة المغربية نجد بحوث الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله تدخل في اطار المحاولات التاسيسية الاولى ، فكتابه عن الحضارة المغربية فريد من نوعه بالنسبة للثقافة المغربية ، فلم يسبق لاحد قبله من كتابنا المعاصرين ان كتب باللغة العربية عن الحضارة المغربية بطريقة منهجية سليمة ، في رصد المظاهر الحضارية لبلادنا ، مثلما كتب الباحث المطلع. فكتابه لبنة اخرى في اساس الثقافة المغربية الحديثة.

وفي مجال الرواية تقف رواية (دفنا الماضي) متميزة بين ما ننتجه من أدب في هذه الفترة . فلا اراها الا شبيهة برواية (زينب) لهيكل ، من حيث انها الميلاد الاول للرواية المغربية الصميمة ، كما كانت (زينب) الميلاد الاول للرواية المصرية الاصيلة . فقد كتب بعض الادباء المغاربة اقاصيص مغربية لها صبغتها المحلية ، الا انهم لم يطوروا فنهم القصصي ، ولم يستثمروا مواهبهم القصصية ، ليكونوا قادرين على ابداع عمل روائي ناضج ، الا ان الاستاذ غلاب استطاع ذلك ، مرورا من الاقصوصة الى الرواية .

واما في مجال ادب التراجم الذاتية الحديثة ، فالاستاذ عبد المجيد بن جلون يضع الاساس الاول لادب التراجم الذاتية في المغرب الحديث ، باصداره لكتاب (في الطفولة) بجزئيه . ولعل هذا الكتاب ان يكون شبيها بكتاب (الايام) لطه حسين ، من حيث انه جاء لبنة اولى في اساس فن ادبي عتيد . واعتقد ان مؤرخي الادب العربي سيكونون مضطرين منذ اليوم الى تخصيص صفحة لادب التراجم الذاتية في المغرب ، بعد صدور هذا الكتاب .

وما قلناه عن الفنين السابقين ، يمكن ان نقوله بالنسبة للبحوث الدينية التي أصدرها الاستاذ علال الفاسي ، ككتاب (مقاصد الشريعة الاسلامية) وكتاب (دفاع عن الشريعة) فهي بحوث رائدة ايضا بالنسبة للثقافة المغربية الحديثة ، جاءت لتضع اساسا للدرس الديني المتمكن العميق ، المساير لمناهج البحث الحديثة ، مع الاستيعاب والاحاطة والمناقشة العلمية التي تهدف الى الاقناع ، والاستاذ علال الفاسي يدخل في ضمن السلفيين المصلحين المغاربة ، من امثال الشيخ شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي ، مع استفادته من آخر تطورات المعرفة للسير في خطة الاصلاح الديني ومحاولة التوفيق بين الشريعة ومتطلبات العصر ، والثورة على الجمود والتقليد .

وفي مجال الفلسفة نجد واحدا يقف في الميدان ، هو الدكتور الحبابي ، يكتب وحده فصل الفلسفة هنا في المغرب ، الامر الذي جعل الباحثين في شؤون الفلسفة ومذاهبها في العالم العربي يعرجون على المغرب ، ليتحدثوا عن كتاب (من الكائن الى الشخص) وعن الشخصانية في الاسلام . والامل ان يزيد الاستاذ الحبابي بحوثه الفلسفية عمقا وشرحا وبيانا حتى تستحيل الى مدرسة يتكون بين جنباتها تلاميذ يتهياون للقيام بدورهم في تدعيم الدرس الفلسفي الحر العميق.

هذه هي المعالم البارزة للثقافة المغربية (الحديثة وهؤلاء هم اعلامها البارزون . وتوجد محاولات كثيرة متنوعة ، لمثقفين آخرين في هذا الفن أو ذاك من فنون الثقافة ، اذا كانت لا تعد من المعالم ، فهي تندرج في كليتها ، وهي مجموع لا ينشر على الناس من انتاج ثقافي مغربي في الادب والتاريخ والقصة وما هو من هذا القبيل . وهذا الانتاج في عمومه ما زال بسيطا ضيق الجوانب ، مضطرب الخطى ، مفتقرا الى عنصر الابداع غالبا .

اما اذا سألت : ماذا عندنا من الدراسات العلمية الرصينة ، في علوم الاجتماع والنفس والاقتصاد وغيرها ، والجواب سيكون ولا ريب ، لا شيء . ولكن (لا شيء) هذه نقولها واضعين نصب اعيننا تلك الظروف والامكانيات التي شرحتها من قبل .

ولكن هل كان في وسعنا ان نكون احسن مما نحن الآن من الوجهة الثقافية ؟ الم يكن لنا خيار في وضعنا الثقافي الراهن ؟ ام كان في امكاننا تطوير امكانياتنا والاستفادة منها بصورة تجعلنا غير ما نحن الآن ؟

اعتقد اننا مقصرون في هذا الصدد ، واننا لا نستحق تخلفنا الفكري بالصورة التي نعاني منها الآن. فمن الظلم ان ننتظر من الثقافة المغربية أن تكون متقدمة ناهضة والحال انها خاضعة للظروف القاسية التي سبق الحديث عنها ، ولكن من الانصاف ان نقول انا نستحق حاضرا ثقافيا أحسن من حاضرنا ، لو اننا عرفنا كيف نطور ونستثمر ما نملكه من امكانيات ، وها هنا لا نستطيع ابعاد المسؤولية عن انفسنا ، وان نزعم ان وضعنا الثقافي الحالي لم نكن نملك معه ارادة ولا تغييرا . فالحقيقة اننا كان في وسعنا تحقيق اهداف ثقافية تفوق التي حققناها حتى الآن ، لولا اننا مصابون بالكسل والتهاون وعدم الاحساس بالمسؤولية، وليغفر لي القارىء هذه الصراحة ، فانما هي الحقيقة ولا شيء غيرها .

ولنعد الى اساس المسألة : هناك اعتباران يحددان قدرة المثقف على القراءة والدرس . الاول مادي يتجلى في مدى القابلية الشرائية ، والثاني أدبي يتجلى في مدى القدرة العقلية على الفهم والاستيعاب. فاما القابلية الشرائية فالانصاف يقتضينا الاعتراف بان المثقف المغربي يتوفر على نسبة مئوية لا باس بها منها ، سيما بالنسبة للاساتذة والمعلمين وسائر الموظفين الاداريين الذين يملاون اجهزة الدولة ومرافقها العامة . فهؤلاء في استطاعة كل واحد منهم اشتراء ولو كتابين أو ثلاثة كتب في كل شهر ، مع عدم نسيان نفقات السكن والمعيشة والعلاج وما الى ذلك. بيد ان الملاحظ انهم لا يفعلون ، في الوقت الذي تحظى فيه ميادين التسلية بسخائهم . واما الاعتبار الثاني وهو مدى القدرة على الفهم والاستيعاب ، فلا يمكن أن يصد احدا عن القراءة والدرس لعدة اعتبارات ، منها ان القدرة على الفهم والاستيعاب تتوقف على استمرار عملية القراءة نفسها ، التي تتكون خلالها قدرة الانسان على تحصيل المعلومات ، ومحاكمة الآراء والنظريات ، فلو ظل الانسان ينتظر ان تكون

عنده القدرة على الفهم لكي يقرا ، لبقى حيث هو ، لان القدرة على الفهم ، هي في الحقيقة من نتائج القـــراءة وثمراتها . ومنها ان السوق يحتوي على انتاج يختلف في مستوياته ، وكل قارىء يجد ما يلائم مستـــــواه في التفكير والوعي . واذن فلا الاعتبار الاول ولا الثانـــي يمكن أن يصد المثقف المغربي عن القراءة بالدرجة التي توجد الآن .

هذا من حيث القراءة التي هي اساس في كـــل نهضة ثقافية ، فاذا نحن عرجنا على الانتاج الثقافي نفسه ، فاننا نجد المحاولات التي ظهرت لحد الآن ، لا تتكافؤ والفرص التي اتيحت لنا . فقد كان لنا ان ننتج اكثر مما انتجنا ، وان تكون مساهمتنا احسن مما هي في الوقت الراهن . ذلك اننا مازلنا نؤثر الموضوعات السهلة غالبا ، والمسائل المفروغ منها ، لنعيد القول فيها ثم نعيده ، على حين ان هناك موضوعات اولى من الاولى بالتقديم والاعتبار ، الا انها لا تحظى بعنايتنا كثيرا ، نظرا لما تتطلبه من جهد ومشقة في جمع مادتها ومعالجتها . وقل منا من يصبر على البحث العميـــق الذي يتطلب الانقطاع والعمل الدؤوب الطويل النفس. وهذا ناتج عن كوننا لا نفهم الكتابة على انها رسالة ، او قل ان اكثريتنا لا تفهم الكتابة على هذا الاســاس . نعم لا يقبل باية حال اعفاؤنا من اية مسؤولية ، والقاء المسؤولية كلها على الظروف وحدها ، لان ذلك يظهرنا بمظهر الهاربين من واجبنا ، المتحللين منه بضروب من التعلات والاعذار ، مع العلم بأن الفعل الارادي اذا احسن توجيهه ، يستطيع أن يخلق الفرص التي لم تكن موجودة من قبل ، وان يطور الامكانيات المتاحة ، وهذا ما لم نفعله حتى الآن . فلا يماثل الظروف المعاكسة في بشاعتها وضررها ، الا الانقياد لها دون اية مقاومة ، ودون بذل اي جهد من اجل فك الحصار المضـــروب حولنا من طرفها . واذا لم يكن في امكاننا صنع المعجزات ففي امكاننا على الاقل ان نحاول ونجتهد ونحمـــل انفسنا ضروب المشاق والتضحيات للاستفادة مـــن امكانيات الحاضر واستغلالها الى ابعد ما يمكـــن ان تسمح به من فرص .

ولتحديد موقعنا من الثقافة العربية المعاصرة ، ينبغي أن نجمع ما رسمناه من صورة للثقافة العربية عامة ، الى ما كوناه من صورة عن واقع الثقافـــــة المغربية ، كما ينبغي ان نعرف ان الثقافة العربية في هذا الوقت ، تتداخل فيها العصور ، فجزء منها يمثل الثقافة العربية التقليدية ، مع شيء يسير من التجديد الشكلي الذي فرضته متطلبات العصر ، وهذا الجزء نجد المسائل والقضايا تناقش فيه على نحو ما كانت تناقش عند القدماء او قريب منه ، ويطغى على هذا الجزء الفكر المحافظ الذي يشفق من تطورات العصر في جميع الميادين ، وينظر اليها بكثير من الحذر والاحتراس وجزء عصري حديث بكل ما في الكلمة من معنى ، وهو الذي يمثل الاتجاهات العلمية والادبية الحديثـــــة ، ويندفع نحوها بكل قواه ، ويتبنى نظرياتها ومبادئهـــا ويصبح داعية لها ، وبين هذين الجزئين او الاتجاهين، اتجاه وسط ، حاول التوفيق بين القديم والحديث ، آخذا من هذا وذاك بالنسبة التي تحافظ على الاصول، ولكنها لا تهمل آخر ما تمخض عنه الفكر الانساني من علوم وفنون . فأين نحن من هذه الاتجاهات الثلاثة ؟

نحن نقع خارج الثقافة الملحدة المعادية للديـــن الاسلامي خاصة والدين كله عامة ، والمناهضة لامجاد الامة العربية وحضارتها العريقة ، المنضوية تحت لواء الوجودية أو الماركسية الملحدة وغيرها من المذاهب والاتجاهات المخالفة لمقومات الانسان العربـــــي . وعندي اننا لم نقع داخل هذه الثقافة لعدة أسباب :

أولا : ضعف البحث العلمي عندنا . فمن الثابت ان البحث العلمي الدافع الى التساؤلات ، والمثير لكثير من الشكوك حول الامور اليقينية الاعتقادية ، من شأنه أن يزيغ طائفة من الباحثين عن مبادئها ومعتقداتها . وقد تجلى ذلك في شيوع الزندقة في العصر العباســـي ، بعدما تحققت الترجمة ، ولقح الفكر العربي بالثقافات الاجنبية ، بناء على ما حققه احمد امين في (ضحـــى الاسلام) .

والحقيقة ان البحث العلمي سلاح ذو حدين ، فهو يتخذ عند طائفة وسيلة للبرهنة العلمية على قـــوة الشرائع والعقائد واهليتها للبقاء ، في الوقت الـــذي يتخذ فيه عند طائفة اخرى وسيلة لهدم تلك الشرائع والعقائد نفسها .

ثانيا : كون بلدنا — المغرب — بقي لحد الآن في منجاة من ذلك الصراع العقائدي الذي مزق المجتمعات العربية في الشرق الاوسط ، وجعلها ميدانا للتناحـــر الطبقي ، والاقتتال المذهبي ، وما اعقب ذلك مـــــن الثورات والانقلابات ، كما جعلها مجالا فسيحا لصراع الكتل الشرقية والغربية . ورغم ما اعلنته البلاد العربية الشرقية في المؤتمرات المتعاقبة — على لسان حكوماتها — من انها غير منحازة ، وانها تنهج سياسة الحياد الايجابي ، فالواقع يخالف ذلك . وقد يكون توالـــي الاحداث ، والصراع ضد الصهيونية من الاسباب التي

اثرت في السلوك العربي ، وجعلته مخالفا للمبادئ المعلن عنها . وكان لابد لذلك الصراع من أن يكون له صدى بعيد في الفكر العربي والثقافة العربية ، وهذا من اسباب وجود الملحدين والمرتدين الى جانب القوميين المومنين باصول المجتمع العربي المسلم .

ثالثا : ان الحكومات العربية في اكثرية دول الشرق الاوسط ، تبدي بعض التسهيلات في شؤون الدين ، وتفسح المجال أمام العناصر الشيوعية ، لتاخذ بمقاليد صحافة الراي ، ولا تصادر او تعارض في نشر اي كتاب تشم منه رائحة الالحاد ، مما شجع على الجهر بما كان يخافت به من قبل ، وصارت كتب الالحاد والزندقة تنشر تحت سمع الدولة وبصرها فلا تحرك ساكنا ، بل انها بسكوتها تقيم الدليل على انها لا تعارض فيما ينشر على الناس من الحاد ، تحت اسم حرية الفكر ، والعدالة ، وحرية الصحافة والنشر وما الى ذلك . **على حين ان الدولة هنا في المغرب لا تتساهل في ذلك مطلقا ، ولا تسمح به ، لانها تقوم على أساس ديني ، وتجعل الدين من الاسس التي تقوم عليها الحياة الفكرية والاجتماعية .**

ثقافتنا اذن تقع خارج هذه الثقافة للاسباب المذكورة . فلم يبق الا اننا نقع ضمن الاتجاهين الآخرين: الاتجاه الثقافي المحافظ ، والاتجاه الثقافي الآخذ من القديم احسن ما فيه ، ومن الجديد احسن ما فيه . الا أن انتسابنا الى الاتجاه الاول أقوى من انتسابنا الى الاتجاه الثاني . فنحن اقرب الى المحافظة منا الى التجديد ، والى الاتباع منا الى الابداع . وآية ذلك ما يصدر في صحفنا ومجلاتنا من الوان الثقافة فجله يمثل سيرنا في هذا الاتجاه . وهذا يتفق وظروفنا وأمكانياتنا الى حد ما . فاذا كانت المحافظة الثقافية هي طابعنا بصفة عامة ، فذلك راجع الى كوننا نجد في هذه المحافظة راحة فكرية تجنبنا التعب الفكري وتدعنا في خمولنا اللذيذ ، نجتر اثناءه احلامنا ونستكين الى مناخنا العقلي الهادىء ، البعيد عن عواصف العلم وتقلبات الراي . فالتجديد في كل شيء يستلزم تغيير القديم ، وانهاء نواحيه غير المرغوب فيها ، والتي تستعصي على التطور . وهو علاوة على ذلك يزعزع كثيرا من الحيثيات والمراكز التي لا قدرة لها على التجاوب مع التجديد والسير في اتجاهه ، ولذلك نرى اصحاب تلك الحيثيات والمراكز يحاربون كل دعوة الى التجديد ، ويرمونها بشتى التهم ، ولو انهم آنسوا من انفسهم القدرة على التجديد ، واعتقدوا ان سيكون لهم مركز محترم في الحياة العقلية الجديدة لكانوا في طليعة دعاة التجديد . فالمسالة اذن لها علاقة بالمركز والمقام والحيثية الخاصة قبل كل شيء .

ونحن محافظون ايضا في الثقافة ، لان المثقف في بلادنا ليس له دور ايجابي في المجتمع ، ولا يملك قوة التغيير ، وانما يساير الراي العام ، ويخضع للتقاليد الاجتماعية خضوعا يكاد يكون تاما ، وعندما يكون دور المثقف داخل المجتمع مقصورا على تملق الجمهور ومسايرته فيما يجب وما يكره ، تكون المحافظة وكراهية التجديد الثقافي ضربة لازب ، متى كان المجتمع شديد المحافظة . اما اذا كان المثقف ذا رسالة تدفعه الى الاصلاح ، متحملا كل التضحيات ، فها هنا يكون الصراع بين المثقف والمجتمع ، او قل بين القديم والجديد ، الى أن يكتب النصر لهذا الاخير . ونحن محافظون ، لان النظام التعليمي الذي كان سائدا في بلادنا ايام الحماية ، لم يكن يهدف الى تكوين عقول تبحث عن الحقيقة ، وتتخذ موقفا شجاعا أمام مشاكل الحياة ، وانما كان يهدف الى تكوين عقلية مستسلمة خانعة ، ولا نذهب بعيدا اذا قلنا ان رواسب هذا التكوين ما زالت قابعة في أعماق عقولنا ونفوسنا . وسنوات الاستقلال القليلة الماضية ، غير كافية لاستئصال ما دأب الاستعمار على صنعه وتعميمه مدة نصف قرن تقريبا .

اضف الى ما تقدم عاملا له اثره في اتجاهنا الثقافي المحافظ ، وهو ان الصلة تكاد تكون منقطعة بين الثقافة العربية والثقافة الاجنبية في بلادنا . واذا كان هناك افراد معدودون يصلون بين ثقافة عربية اصيلة ، وثقافة أجنبية متينة وصلا محكما يصدرون عنه فيما ينتجون من أدب وعلم ، فان اغلبية مثقفينا اما ذوو ثقافة أجنبية ويجهلون الثقافة العربية جهلا يكاد يكون تاما ، واما العكس . ومن هنا بقيت الثقافة العربية في المغرب شبه محرومة من التلقح بلقاح الثقافات الاخرى ، فغلب عليها طابع المحافظة . والتجديد لا لا يتاتى الا بالتقاء العقليتين والاتجاهين والثقافتين ، ليراجع كل واحد اسس تكوينه الثقافي على ضوء هذا اللقاء .

تلك هي اسباب المحافظة الثقافية عندنا في نظري. ولنكون واضحين في استخدام الالفاظ ، اقول اني لا اقصد بالمحافظة الا معنى الجمود وسلوك الطرق القديمة في الدرس والبحث ، واجترار الكلام الذي سبق ان قيل وكتب الوف المرات ، والنظر الى الماضي دون المستقبل ، والحديث عن مشاكل العصر وقضايا الساعة بعقلية القرون الوسطى ، وتناول شتى

الموضوعات من الجانب الصوري العقلي فقط ، بعد افراغها من محتوياتها الحية النابضة ، والخوض في الجدل البيزنطي العقيم . اما ان اريد بالمحافظة معناها الحي المتمثل في الاخلاص للعقيدة ، والوفاء للاصول القومية ، والاعتزاز الواعي بالتراث ، فانا في زمرة المحافظين ، والمحافظة هنا هي الاصالة ، وهي القاعده التي تنهض عليها شخصية الامة .

ومن مظاهر المحافظة الثقافية في المغرب ، كوننا لا نمل من الكتابة في الموضوع الواحد بعقلية واحدة ومن زاوية واحدة . وقل أن نجد ذلك الكاتب الجريء الذي يحطم حصار التقليد المضروب حوله ، ليفتح نافذة جديدة على عالم جديد . ومنها اننا لحد الآن لم يبرز من بيننا من يدعو الى مذهب في الحياة ، او فلسفة في الكون ، او راي جديد في ادب او تاريخ او اي لون من الوان المعرفة على غرار مذاهب الراي التي عرف بها ادباء ومفكرون في نواحي اخرى . ونحن اذا استثنينا المذهب الفلسفي (الشخصانية في الاسلام) للدكتور الحبابي لا نجد شيئا من هذا القبيل . وحتى مذهب الشخصانية في الاسلام لم يتحدد بعد بالدرجة الكافية ، واعني بالتحديد ان يكون عند صاحبه منطلقا نحو دراسات اسلامية شاملة تجعل من النظرية بناء معماريا له هيكله وأبعاده ، الامر الذي من شأنه ان يكون منها محورا اساسيا لتفكير المفكر وعنوان جهاده العلمي وروح مواقفه الفكرية . ومنها ايضا نوع الكتب التي تستهلك في بلادنا اكثر من غيرها ، وهو نوع الكتب المثلة للثقافة المحافظة ، نظرا لكونه ينسجم مع عقلية اغلبيتنا واسلوبها في التفكير .

بقي ان نعرف اننا لا نمثل من هذه الثقافة المحافظة ارقى مستوياتها ونواحيها القوية ، وانما نمثل منها جوانب ومستويات ان لم تكن ضعيفة كلها ، فهي اقرب الى الضعف منها الى القوة . ولا نمثلها في جانبها الضخم البارز ، وانما نمثلها في جانبها الهزيل ، ولا نقع منها في المقدمة ، وانما نقع منها في المؤخرة ، ولا في موضع الرائد الهادي ، وانما في موضع التابع والمريد . فلهذه الثقافة اليوم مفسرون ومؤلفون ومؤرخون وخطباء وشعراء ، يملأون الدنيا بآثارهم ، ولها ايضا معاركها وخصوماتها ، ومواطن دفاعها ومواطن هجومها ، كما لها دعاتها المبثون هنا وهناك، ولكن ليس لنا من ذلك شيء .

اما الثقافة العربية المتطورة ، فلنا منها نصيب كما سبق . ولكنه اضعف من نصيبنا من الثقافة المحافظة . واعتمادنا في ذلك على قياس ما ينشر من احداها الى ما ينشر من الاخرى . فالانتاج المحافظ يطغى على الانتاج المتجدد ، سواء في المقالة أو البحث او القصيدة أو غيرها . وهو يكاد يغطي بيئتنا الثقافية كلها ، لولا ما يظهر بين حين وآخر من محاولات تهدف الى تطوير طرق البحث ، والخروج على المألوف ، والجنوح الى الابداع . وعندي ان مثل هذه المحاولات يعتبر دليلا على تطور في المفاهيم وأسلوب التفكير لدى بعض المثقفين المغاربة ، الا انهم يقفون في حذر وتوجس من الجديد وتردد أيضا ، ذلك لان عهدهم بالمحافظة قريب ، وما زالت آثاره عالقة بعقولهم ونفوسهم ، تمنعهم من الاقتحام ، والاندفاع نحو ميادين جديدة للتامل والتفكير . فهم يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى ، وهذا طبيعي بالنسبة لكل عقلية تاخذ شيئا فشيئا في الخروج من خمولها وكسلها ، حيث تجتمع فيها التناقضات . القديم يشدها اليه ، والجديد يشدها اليه ، وهي بينهما حائرة ما تفتأ مقلبة عينيها هنا وهناك ، باحثة عن الطريق . وضمن الوسط الثقافي الذي يمر بهذا التحول ، لا تعدم ان تجد بعض المتطلعين الذين نسفوا جميع الجسور التي تصلهم بتاريخ بلادهم وحضارتها وكذا عقيدتهم واصولهم القومية ، كرد فعل غير واعي ولا متبصر بما هو تجديد وتطور ، وما هو تخريب وهدم للشخصية القومية . وهؤلاء يراوحون بين السر والجهر بما في نفوسهم ، حسب المعارضة التي يلقونها من اوساطهم الاجتماعية قوة وضعفا .

ونحن لم نجدد كثيرا في أوضاعنا الثقافية وفي الوان نشاطنا الثقافي لعوامل لا تخفى على الباحث . منها اننا لم نشعر بعد بالحاجة الملحة الى التجديد ، أو قل ان الاكثرية منا لا تشعر بهذه الحاجة فلو انها احست بها ، واقتنعت بضرورتها ، وكانت شغلها الشاغل ، لبحثت عن طرق التجديد ، وخلقت له الفرص جهد ما تستطيع . وهذا أمر طبيعي . اذ التجديد هو مظهر لعدم الاكتفاء بالوضع الثقافي الراهن والتوق الى تغييره واصلاحه ، ومتى لم يكن هناك تجديد ، او سعي اليه ، فمعنى هذا ان الخيال اضعف من ان يتصور واقعا احسن ، وان ليس في الحياة العقلية قلق ولا تطلع ، وانما هي القناعة والرضى البليد عن النفس . كما اننا لم نجدد في الثقافة الا قليلا لافتقارنا الى الزعامة الادبية الرائدة ، التي تملك قوة التغيير ، بما تفتحه من آفاق جديدة للابداع، وما تسنه من طرق مبتكرة في البحث ، وما تنصبه امام المثقفين من قدوة حسنى يشدون اليها ، ويجاهدون

للتقرب منها والسير وراءها . والكل يعلم ما استطاعت الزعامات الادبية والعلمية ان تحدثه من ثورة فى مناهج الدرس ، وطرق الكتابة ، فى اوساط ثقافية اخرى كانت الى ظهور تلك الزعامات ، تعاني التخلف الفكري ، والجمود العقلي ، فأصبحت بفضلها تكتب صفحة جديدة من تاريخ تحولها الثقافي . والتجديد يتوقف على وجود العنصر البشري القادر عليه ، وهذا العنصر نادر فى حياتنا الثقافية ، لاننا فى الواقع بقايا تاريخ استعماري شوه عقليتنا ، ونال من استقلالنا الفكري، فما أحوجنا الآن الى اكتساب خصائل عقلية ونفسية تبث فينا السخط على واقعنا الثقافي وتدفعنا الى النهوض به .

واما مظاهر التجديد البسيطة الضيقة الحدود عندنا ، فيمكن التماسها فى تحرر عبارة بعض كتابنا من القوالب اللفظية المحفوظة ، وفى انبثاق اساليبهم من الذاتية بمميزاتها وخصائصها ، وفى تناولهم لموضوعات غير مألوفة بالنسبة لمناخنا الثقافي العام ، وفى ابداعهم لبعض الفنون الادبية التي ليست لها اصول ولا تقاليد عريقة فى وسطنا الثقافي .

واخيرا نجمل الحديث عن موضعنا من الثقافة العربية المعاصرة فى كوننا نمثل منها مرحلة تاريخية ولت ، من حيث اننا نحاول الآن وضع القواعد والاسس التي وضعت فى بلاد اخرى منذ وقت بعيد ، وفى كوننا نقع الى الجانب المحافظ من تلك الثقافة . وليس موضعنا من الثقافة المحافظة موضع قوة ، ولا موضع ريادة ، وانما هو موضع ضعف . ولا مجال فى بلادنا للثقافة الملحدة الناشئة عن الصراع المذهبي الذي تعرضت له البلاد العربية الشرقية فمزقها تمزيقا ونشر فيها الفوضى والاضطرابات . ومظاهر التجديد عندنا بسيطة وتدل على حيرة وتردد وعدم ثقة بالنفس. مع معرفة ان هذا الوضع الثقافي ناتج عن عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية شرحناها بما فيه بعض الكفاية . ومع العلم باننا لا نستحق هذا الوضع بكل نقائصه ، فمسؤوليتنا فى التقصير وعدم استقلال الامكانيات والفرص التي اتيحت لنا حتى الآن لا نستطيع الفرار منها .

فاس — عبد العلي الوزاني



تأملات في استعمال اللغة العربية ونحوها

للأستاذ : الراجي التهامي الهاشمي

اخذ علينا اخواننا المشارقة فى هذه السنين الاخيرة بعد ان من الله علينا بالاتصال معهم من جديد، اثر نعمة استرجاع سيادتنا « ان لنا من النحو اكثر مما لنا من اللغة » وهم يريدون ان يقولوا لنا اننا ضحينا بالاستعمال اليومي للغتنا فى سبيل الحفاظ على النحو واحترام قواعده ، والوقوف عند حدوده ، لا نتخطاها بوجه من الوجوه — فهل هذا عيب وجب ان نتفاداه ، او مأثرة حسنة لزم العناية بها والتمسك بمبادئها ؟ اقر لكم انني متردد فى جوابي ، كما قال الشاعر العربي بشار بن برد ، بين « لا ونعم » فالعناية بالنحو وقواعده امر ضروري لمن يريد ان يكون ناجحا فى استعمال لغته ، اذ اللغة واستعمالها آلة ، محركها النحو ، وما انتجت يوما آلة بلا محرك يحركها وبلا قوة تدفعها .

والغاية من الاستعمال امر ضروري ايضا لمن يريد ان يكون ناجحا فى النحو وقواعده . والذى يكتفي باتقان النحو لا يطبقه فى الاستعمال اليومي يكون كحمار حمل اسفارا لا يدري كنه الثقل الذى يحمله ، ولا يعرف الغاية التي يسير بهذا العبء نحوها .

ونحن مع ذلك نقر ، اننا هنا ، فى المغرب ، نهتم بالنحو وقواعده اهتماما لا يوجد فى بلد عربي آخر، وقد يكون صحيحا ان هذا الاهتمام البليغ بالنحو ، وهي آلة لاتقان اللغة العربية ليس الا ، قد شغلتنا ، فى كثير من الاحيان ، عن حسن استعمال اللغة العربية استعمالا واسعا عميقا دقيقا . والسبب فى ذلك وجيه ، ومع ذلك غاب امره عن اخواننا الشرقيين ، لقد غاب عنهم ان النحو العربي ، ان كان قد ولد هناك، فى مشرق رقعة امتنا ، فقد عشش وفرخ هنا فى الجناح الغربي من بلاد العروبة . ويكفي دليلا على ذلك ،ان كان هذا يحتاج الى دليل ، ان نذكر ان كتاب سيبويه ، قرآن النحو ، ان كان ولد فى البصرة ، فلم ينشأ ولم يترعرع ولم يبلغ الرشد الا على يد شراحه فى المغرب والاندلس ، وشروحه المخطوطة المبثوثة الآن فى مكتبات العالم لا تحصى كثرة ولا تقدر قيمتها بمقدار ، جلها مغربية . ويوجد عندنا فى خزانة المخطوطات بالرباط كتاب الاعلم الشنتمري الذى يخيل الى ان تحقيقه واخراجه للناس عموما ، وللشباب المغربي على الخصوص امر واجب يحتمه تطور ثقافة العصر .

وامر آخر اثر فى المغاربة فجعلهم يهتمون بالقواعد اكثر من اهتمامهم بالاستعمال ، اكتفاؤهم بهذه الشروح والملخصات والهوامش لمختلف مصنفات العصر الوسيط ، التى ان كنا لا زلنا نستحلي عذوبة اللغة التى كتبت بها فانها — وهذا امر غريب — لم تمكن من يتعاطاها من الانطلاق ، لانه كان فى كثير من الاحيان يحفظ الجملة الرنانة الجميلة ، لكنه كان لا يستعملها الا فى مكانها وفى وقتها المناسبين واني له ذلك ، واليك مثالا بسيطا كان يستعمله الطلبة فى

المعاهد الدينية ولا زالوا يستعملونه ، وهي قولة جليلة لاحد الائمة الاربعة ، قال هذا الامام : « الامر على الفور لا على التراخي » هذا كلام جميل ، بليغ ، ولكنهم كانوا يحفظونه للغاية التي وضع لها وهي القاعدة الفقهية وكفى ، اما ان يستخرجوا من ذلك هذه المقابلة بين ضدين : « فور » و « تراخي » ولماذا قالوا فورا وما هي المادة الاصلية للتراخي ، واما ان يحاولوا ان يركبوا على غراره جملا اخرى بجمالها ودقة معناها ، فهذا شيء كان وراء ظهورهم ، وفوق امكانياتهم المحدودة . لهذا ، ولغير هذا ، قيل عنا « ان لنا من النحو اكثر مما لنا من اللغة » .

* * *

شــيء

ان لفظة شيء مستعملة من طرف الجميع دون قصد في كثير من الاحيان . فقد يستعملها المتكلم ليتذكر باقي الكلام ، وقد يستعملها لانه يريد ان يكون غامضا في كلامه . وقد يستعملها حين يريد ان ياتي بنوع من التورية بسيط . وقد يطلقها على مسمى وهو يريد احتقاره ، كما قد يطلقها على مسمى وهو يريد تعظيمـــه .

فكلمة شيء كما يظهر لنا كلمة ذات بـال ، وان كانت تبدو مبتذلة لكثرة استعمالها ، حقيرة لان معناها في احيان كثيرة محدود ، بسيطة لانها تدل على شيء معقدة اذ انها تعني كل شيء ، مقدسة لانها تشير الى اقدس شيء في الدنيا .

لقد جمعت الاضداد ، وحوت العجائب ، فانت ان اردت ان تصغر امرا وتزدريه قلت : انا اكره هـذا الشيء ، وهذا المسمى الذي اطلقت عليه « شيئـا » تعرف اسمه ولكنه بهذا التلميح تبيـن بغضـك لـه وتترفع عن ذكر اسمه الحقيقي .

وانت ان اردت ان تعظم شيئا ، وتجله قلت هذا شيء جليل مع انك تعرف اسم هذا المسمـى ، لكنك ابيت الا ان تطلق عليه لفظـة « شيء » تعظيمـا لـه وتقـديـرا .

وقد تطلق لفظة الشيء علـى الحـق سبحانـه وتعالى ، بدليل وروده في القرآن الكريم ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «قل اي شيء اكبر شهادة، قل الله » فالله تبارك وتعالى شيء ، وهو اكبر شهادة يقدمها النبي العربي للمعاندين الطغـاة على صـدق رسالتـــه .

ولو لم تكن لفظة « شيء » بالشكل الذي شرحت اعلاه لما كتبت في الآية 23 من سورة الكهف كما يعرفها من درس القرآن واطلع على علومه . لقد كتبت هكذا لشايء في هذه الآية التي يقول فيها الحـق سبحانه وتعالى : « ولا تقولن لشايء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله واذكر ربـك اذا نسيت وقـل عسى ان يهدين ربي لاقرب من هذا رشدا » .

والملاحظة ان هذه اللفظة استرعت ايضا انتباه الفرنسيين في لغتهم . هي في هذه اللغة مؤنثة ، لكن الكاتب الفرنسي الفنـس دودي استعملها على صيغة المذكر واطلقها على تلميذ حقير منبوذ من طرف اصدقائه فشاع استعمالها على هذه الصفة في هذا المعنى .

ونصيحتنا ان يبتعد طلابنا عن كثرة استعمالها في كتاباتهم لانها تدل على كل شيء ، ولا تدلنا على اي شيء بتاتا . وهذا خلاف الضبط الـذي نسعـى اليه في كتاباتنا ومعاملاتنا في مغربنا العربي الحديث .

* * *

صفة مشبهة ام اسم فاعل :

الناس في استعمالها لا تفرق بين اسم فاعـل وصفة مشبهة للتقارب الموجود بينهما ، والنـاس في هذه المسائل المضبوطة لا يكترثون كثيرا ، فخلطـوا بينها ثم طال العهد بهذا التخليط فنسب التقصيـر للغة العربية لا لمستعمليها ، واللغة بريئة من ذلك بل مظلومة ، اعتدى عليها .

وقديما بدا الخلاف بين الناس حول هذا الامر، فقال ابن قتيبة في كتابه ادب الكاتب : « ويقال مـاء ملح ولا يقال مالح » فنفى رحمه الله مجيئـه صفـة مشبهة ولم يصلح خطا ولا لحنا ورأى ان يقتصر امره على اسم الفاعل ليـس غير . وعنـدي ان هذا نظـر ضيق ، وامر يصعب قبوله منه ، فلماذا لا ياتي مـن ملح اسم الفاعل كما اتت الصفة المشبهة مـا دام الاستعمال اليومي بين عباد الله يطلب منهـم ذلك . فيقال ماء مالح للماء الذي تطرا عليه هذه الصفة ولا تلازمه ، كالماء العذب يصب فيه الملح بمقدار ، ويمكن ان يؤول الماء المالح هكذا : الماء صاحب الملـح ، كما قالوا في تامر ، صاحب تمر . ولابن ، صاحب لبن ، ودارع صاحب دروع .

وهذه مائزة استقلت بها اللغة العربية ، ونحمد الله عليها ، فليس في غيرها من اللغات هذا الضبط

المحكم في الصفة ، واليك المقارنة ان كنت لا تصدق . فاللغة الفرنسية اذا وصفت الشيء بالضيق قالت ضيــــق « Etroit » مذكرا او مؤنثا او جمعا ، لا يهمنا ولكنها بصيغة واحدة سواء كانت الصفة اصلا ملازما لا يتغير ولا يتحول بتقلب الحدثان ، او طارئا حدثا لا يلبث ان يزول ان عاجلا او آجلا . لكن اللغة العربية تضع النقاط على الحروف ، لانها تكره الابهام والالتباس كرها لا يوصف فهي تميز بين الصفة الملازمة فتسميها ، صفة مشبهة ، وبين الصفة الطارئة ، فتسميها ، اسم فاعل .

فصفة الضيق ان كانت ملازمة للشيء قلنا فيه ضيق كالبيت الضيق وان كانت غير ملازمة كان يضيق صدر انسان لمسألة طارئة ثم لا يلبث ان يزول هذا الضيق من صدره بمجرد زوال مسببه ، قلنا في هذا الانسان صدره ضائق .

فالسامع العربي يعلم من هذا الاستعمال ان هذا الرجل انسان من عادته ان يكون واسع الصدر ولكن حالة طارئة جعلت صدره ضيقا ، في هذه الفترة من الزمن . اما ان قلت هذا رجل صدره ضيــق ، علم السامع انه بصدد رجل ضيق القلب ابدا .

ومن هنا اجوز استعمال انسان قالق وانسان قلق رجل مائت ورجل ميت وان كان لهذه الصفة دليلا آخر يحسن ان يعرفه القاريء الكريم ، غير اني افضل ان اترك الحديث عنه الى حلقة اخرى اتحدث فيها عن تاثير ديننا في اللغة العربية يوم يتيسر لي ذلك .

* * *

قال بعض المستشرقين غفر الله له ، وتبعه في ذلك خلق كبير من اولئك الذين يكرهون لغتنا منا ومن غيرنا ، عن علم او عن غير علم ، ان اهل اللغة العربية يقدمون القاعدة النحوية على الاستعمال ويخضعون هذا الاستعمال للقاعدة النحوية مضحين في ذلك بالمعنى في سبيل الاطار . وقالوا عن لغتنا انها نحـو وقواعد ليس الا . والذي يريد ان يتكلم بها عليه اولا ان يتقن هذا النحو الذي لا تقدر صعوبته بمقدار ، وهذا العدد الضخم من القواعد التي لا يحصرها العد ، ثم يبقى بعد ذلك شواذ وخلافات تضيع جهود الناس في معرفتها ، وعليه ثانيا ان يحفظ تراكيب وعبارات جامدة يحوك على منوالها ان هو اراد الكتابة ، ولن يستطيع ان يعبر عن خلجات نفسه ما دام اسيرا مكبلا في هذه العبارات المحجرة التي وعاها عن ظهر قلب ،

ولن ينفك منها ابد الآبدين ، حاول ما حاول ، وجاهد ما جاهد .

لكن هذا الكلام صادر عن الذين في قلوبهم مرض ، اولئك الذين اغتاظوا لما شاهدوا بأم عينهم هذه النهضة المباركة التي يقوم بها الآن الشباب الصالح الناهض من بلاد العروبة .

وسأقدم لك في هذه الحلقة مثالا حيا ، لا يستطيع ان ينازع فيه منازع على ان اللغة العربية خلافا لغيرها من اللغات الاخرى ، الحية منها والميتة ، ونصف الحية منها ونصف الميتة ، تضع القاعدة النحوية وراء ظهرها حين يكون الاستعمال سيد الموقف او حين تكون المعنى واضحة جلية ، لا يستدعي تطبيق القاعدة النحوية ، قل لي بربك انت الذي تعرف اللغة الفرنسية الا تقول « Une femme enceinte » فماذا فعلت في الصفة ؟ لقد انثتها ، وكان لابد ان تؤنثها ، وكل من ذكرها يكون ارتكب خطأ لا يغتفر لان هذه الصفة تعود على مؤنث ، ولكن الشيء الذي نسيه مقننو النحو الفرنسي ان صفة « Enceinte » لا يمكن ان تعود الا على مؤنث لان المذكر لا يلد ابدا .

اما اللغة العربية فقد تنبهت لذلك فهي تقول امرأة حامل بدون التاء الدالة على التانيث ، لان الرجل لا يشاركها في حملها للجنين ، وتقول : امرأة حائض فلا يخافون من الالتباس حين لا يطبقوا القاعدة في « حائض » لانهم لا يروا رجلا حائضا حتى يومهم هذا . ويقولون امرأة مرضع وامرأة عقرب ، وامرأة ملبن ، وامرأة متشذن ، وامرأة مطفل ، لانهم لم يروا هذا في الرجل ، وما اظن انه سيرى في يوم من الايام .

وجدير بالذكر ان اشير الى الميزة التي اضافوها هنا الى حسناتهم الكثيرة ذلك انهم يؤنثون هـذه الصفات الاخيرة حين يريدون الفعل ، لانه امر مشترك بين الرجل والمراة . فتامل هذا اعزك الله ، وقل الحق ، فالرجوع الى الحق اولى من التمادي في الباطل .

* * *

ان المثال الذي اتيت به في الحلقة السابقة لم يشف غليلي ، فقلت في نفسي لما قراته وقت كان يطالعه الناس . اذا كانت هذه الحجة التي اتيت بها لادافع عن فكرة لا تقدم دليلا قاطعا مسكتا على صلاحية وجهة نظري ، فكيف تريد ان تقنع الناس ، ومن حقهم الا يتسابوا بسهولة مع اول متقول يتقول عليهم ؟

اجعل نفسك مكانهم . اكنت تتبنى فكرة لمجرد هراء بسيط تسمعه للمرة الاولى ولا تؤيده الا حجة واحدة. كنت كلما اعدت هذا الكلام على نفسي أحسست بعدم رضاها ، ولهذا اردت ان اعيد الكرة مسلحا بحجج اخرى اعتقد انها متممة لما ورد في الحلقة السابقة فاقول :

لو كان العرب يقدمون النحو على الاستعمال لما قال القرآن « استحوذ عليهم الشيطان » فهذا خلاف واضح للقاعدة النحوية ولكنه موافق تمام الموافقة للاستعمال فقدموا الاستعمال واخروا القاعدة النحوية، وكم يعجبني تعليق العالم اللغوي العربي ابن جني حين يقول في كتابه الخصائص : « اذا تعارضا (ويعني السماع والقياس) نطق بالمسموع على ما جاء عليه ، ولم تقسه في غيره .. لانك انما تنطق بلغتهم ، وتحتذي في جميع ذلك على امثلتهم» . ولو كانوا اسيرى القواعد النحوية لما قالوا الحوكة والخونة والدول والخول بل لنطقوا بها الحالة والخانة والدال والخال .

ولو كانوا يضحون بالاستعمال في سبيل القاعدة النحوية لما قالوا الفتوى والبقوى والشروى بينما القاعدة تخالف ذلك .

ولو كان العرب يقدمون القواعد ولا يولون الاستعمال ادنى اهتمام ، لما قال احد النحاة هذه القاعدة التي صارت مثلا يحتذى وحكمة بليغة في هذا الباب قال :

« وان شذ الشيء في الاستعمال وقوى في القياس كان استعمال كما كثر استعماله او ولى ، وان لم يتته قياسه الى ما انتهى اليه استعماله .. الا انك اذا استعملت انت شيئا من ذلك فالوجه ان تحمله على ما كثر استعماله ، وهو اللغة الحجازية : الا ترى أن القرآن بها نزل ».

ابعد هذا يقال عن لغتنا انها تهمل الاستعمال وتعتني بالقواعد الجامدة مضحية بالمعاني في سبيل ذلك .

كلما ارجو ان يستيقظ شبابنا فيتبنى قضاياه ويرفع من شأنها . ولا يترك امرها الى الذين يكرهوننا ويبغضون لغتنا ويتمنون تقهقرها ، فعسى الله ان يأتي بهذه الفئة المخلصة تكرس جهدها لاعلاء لغتها وعنوان وجودها .

لقيني بعض اصدقائي من الذين يتتبعون هذه الحلقات المتسلسلة التي اذيعها في الناس فوضع علي سؤالا في الموضوع اقر انه احرجني . قال هذا الصديق الكريم في شيء من القساوة : « تعتقد ان العرب يقدمون الاستعمال على القواعد او على الاحرى، كما ادعيت يسوون بين الاستعمال والنحو ! لكن كيف تبرر هذا التحجر الموجود في الجملة العربية او على الاقل هذه الاسبقية التي يعطيها النحويون لبعض الكلمات في الجملة العربية . الا يجب في الجملة العربية ان يقدم الفعل على الفاعل والفاعل على المفعول، وهلم جرا » قلت في كلامك حق وهو في نفس الوقت حجة لي ضدك ، وسلاحا آخر امددتني به ، بارك الله لنا فيك . وفي كلامك باطل سادحضه بقوة ان شاء الله .

كثير من شبابنا المثقف ممن استمعوا الى بعض دروسي سواء في الثانويات او في كلية الآداب بفاس يعلمون انني كنت ابين لهم ان الجملة العربية الصحيحة البسيطة التي لا يمكن ان يطعن فيها طاعن هي التي تاتي على هذا الهيكل :

فعل رفع نصب جر « اكل الرجل الفقير الزاهد لحما طريا كثيرا صباح اليوم في كوخه الكائن بجانب المسجد الكبير » هذه هي الجملة التي كنت ادعو طلابي الى استعمالها والنسيج على منوالها. ولكنني كنت في نفس الوقت ابين لهم ان الخروج قليلا او كثيرا عن هذا النسج ، ان ادى الى جمال او تدعيم معاني طريفة او موسيقى رنانة او سبق استعماله من طرف العرب الذى نثق بعربيتهم فلا ضير في ذلك ، بل الخير كل الخير فيه ، وهذا هو الجانب الصحيح في كلامك . فقاطعني صديقي ــ غفر الله له ــ قائلا « الم يكن النحويون هم الواضعون الحقيقيون لهذه التراكيب ولهذا الاعرب المعقد » . قلت له : « اعلم ان من قوة احترامهم للاستعمال وتقديسهم له ، اعتقادهم ان ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب ، وكل ما قيس على الاقل استعمالا ، والاضعف قياسا لم يعد من كلام العرب بل عد خارجا عنه » فاعجبني من صديقي انه نقل هذا الكلام وصمم العزم على حفظه ونشره في الناس . الا بارك الله في مثل هؤلاء الاصدقاء يرون الحق حقا والباطل باطلا .

لم يتات لي ان اقول فى الحلقة السابقة لصديقي العزيز الجانب الفاسد فى ادعائه لانه قاطعني كما رايت، ثم انتقلنا بعد ذلك الى امر اعتقدنا انه اهم مما كنا فيه .

ولكن لن اترك الفرصة تمر ، دون ان ابين له ، ولو من بعيد ، خطا رايه كما كان يراه .

الجملة العربية يا صديقي لا تحتم تقديم الفعل على الفاعل والمجرور كما فهمت من كلامك السابق .. « الا يجب .. الى آخره .» ولا يمكنك ان تلزم الناس بذلك وان تطلب منهم ان يكونوا ابنياء وهم مقيدين . ولا يمكن ، بحال من الاحوال ، ان يكون هناك بيان وطلاقة وجمال وموسيقى اذا اقتصر العرب على الجملة المحبوكة على نسج واحد رتيب ممل . هناك المقام الذى يطلب تقديم الاسم على الفعل ، وهناك المقام الذى يطلب تقديم المنصوب على المرفوع بل المجرور على المرفوع .

والقرآن الكريم ، وهو الكتاب العربي الاصيل الذى لم يوضع مثله قديما ولا حديثا ولن يوضع مثله فيما يستقبل من الازمنة وسيظل فريد نوعه ، وحيد نسجه الى ان يبدل الله الارض ومن عليها استعمل تراكيب خرجت من التركيب المذكور . قال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . فالعلماء وهو مرفوع لانه فاعل اتى فى آخر الجملة بعد النصب والجر . وقال تعالى فى سورة البقرة: « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن » فقدم على المنصوب على المرفوع . وامثال هذا فى القرآن الكريم كثير لا يحصى.

واللغة العربية التى تعتمد حركات الاعراب لا تابه لذلك ما دمت بالحركة الموجودة فى آخر الكلمة تعرف وظيفتها .

وهذه مزية اخرى من مزايا اللغة العربية احب ان اسكت عنها مخافة ان يظن انني نصبت نفسي مادحا لها .

* * *

كم سمعنا ان الناس لا يتعلمون اللغة العربية بسهولة لان اوزانها صعبة ، معقدة يختلط بعضها ببعض . وكم من مرات اجبت هؤلاء ان وجود هذه الاوزان فى اللغة العربية يسهل امرها لا يعقده ويجعلها فى متناول الجميع لا صعبة المراس كما يدعي الكثير .

انا لا زلت اذكر السنة الاولى التى بدات اتعلم فيها اللغة الفرنسية ، كان ذلك فى قريتي التى تبعد عن مدينة صفرو بحوالى 3 كيلومترات ، وكان معلمي انا واترابي فرنسيا لا يعرف كلمة واحدة باللغة العربية ولا بغيرها ، يقدس الفرنسية ويحتقر ما عداها ، وكان متشبثا بطرق التعليم المباشر ، بمعنى انه كان يعلم اللغة الفرنسية باللغة الفرنسية ، لا يريد ان يستعين على ذلك حتى بالاشارة، وكنا صغارا لا يتعدى اكبرنا سن السابعة من عمره ، ولكنا كنا نعي ما نتعلم، فبقدر ما كان متحجرا ، معقدا فى موقفه ، بقدر ما كنا متعقلين مرنين ، وكان يحلو لنا ونحن صغارا ان نقارن بين ما نتعلم من هذه اللغة الجديدة بما نعرفه فى لغتنا .

ولا زلت اذكر اننا يوم تعلمنا ـ بشق الانفس طبعا ـ الفعل الفرنسي « Ouvrir » وصرفناه فى الافراد بعد ان عانينا من شدة صعوبة النطق به ، ولما خرجنا من قاعدة الدرس طلب طفل لصديق له Donne-moi l'ouvrir وكان يقصد اعطني المفتاح ، فلم نر فى هذا خطأ ، بل استحسناه ظنا منا ان آلة الفتح لابد وان تكون من مادة الفعل لاننا كعرب لم يخطر ببالنا ان تكون الآلة التى نفتح بها غير مستقلة من الفتح .

ولا تسال عن استغرابنا لما قدم لنا ذلك الفرنسي المفتاح واطلق عليه كلمة جديدة لا تحتوي على حرف واحد من فعل فتح ، وبدانا من جديد نبذل مجهودا آخر للنطق بالكلمة الجديدة ، ولو كنا بصدد تعلم اللغة العربية لكنا فى غنى عن كل هذا وفقدنا كل امل فى اننا يوما من الايام يمكن ان نستنبط شيئا صحيحا فى هذه اللغة الجديدة معتمدين على العقل السليم كما نفعل فى لهجتنا .

اما عن كتابة هذه الكلمة فحدث عن البحر ولا حرج ، فاكتبها ان شئت بفاء زائدة فى الاخير وان شئت عوض الفاء ب :

اما فى اللغة العربية فالصيغة تكفيك مشقة الحفظ والبحث والنطق وتسهل عليك الامور اذا تعلمت الفعل فقد تعلمت الآلة ايضا ، فآلة الفتح المفتاح ، وآلة الطرق مطرقة وآلة النشر المنشار ، وهكذا دواليك جهد يسير واستنباط وعقل ودراية كثيرة .

اكدير ـ الراجي التهامي الهاشمي

زيارة الوفد المغربي للاتحاد السوفياتي

بخاري

للاستاذ محمد بنعبد الله

- 5 -

قضينا يوما كاملا بمدينة سمرقند ، ونحن نتجول مغتبطين فى احيائها الفسيحة الجميلة ، ومآثرها الخالدة ، ومتاجرها البسيطة فى مظهرها الشرقي القديم ، ومعالمها الحافلة بالامجاد ، والتى افضنا الكلام عنها فى حلقة سابقة .

ومدينة سمرقند تمتاز الى جانب هذا بلياليها الهادئة الساحرة ، ونجومها المترجرجة فى اديم السماء ، وهوائها الرطب العليل ، واضوائها الساجية التى تضفي على المدينة الوديعة طابعا شرقيا خالصا ، يبعث فى النفس شتى الشجون والفتون ..

وان شوارعها الجميلة لتكتظ مساء بجموع من الشباب المتوثب الذى يفيض حيوية ، ويتدفق نشاطا، فلا تشعر ، لفرط اعتنائه بالغريب ، الا وهو يقدم اليك باقة من الورود والرياحين ، وعلى فمه طيف ابتسامة رقيقة عذبة تنفرج بها شفتاه ... ثم يتابع خطاه الوئيدة فى هدوء واستحياء .

❊ ❊ ❊

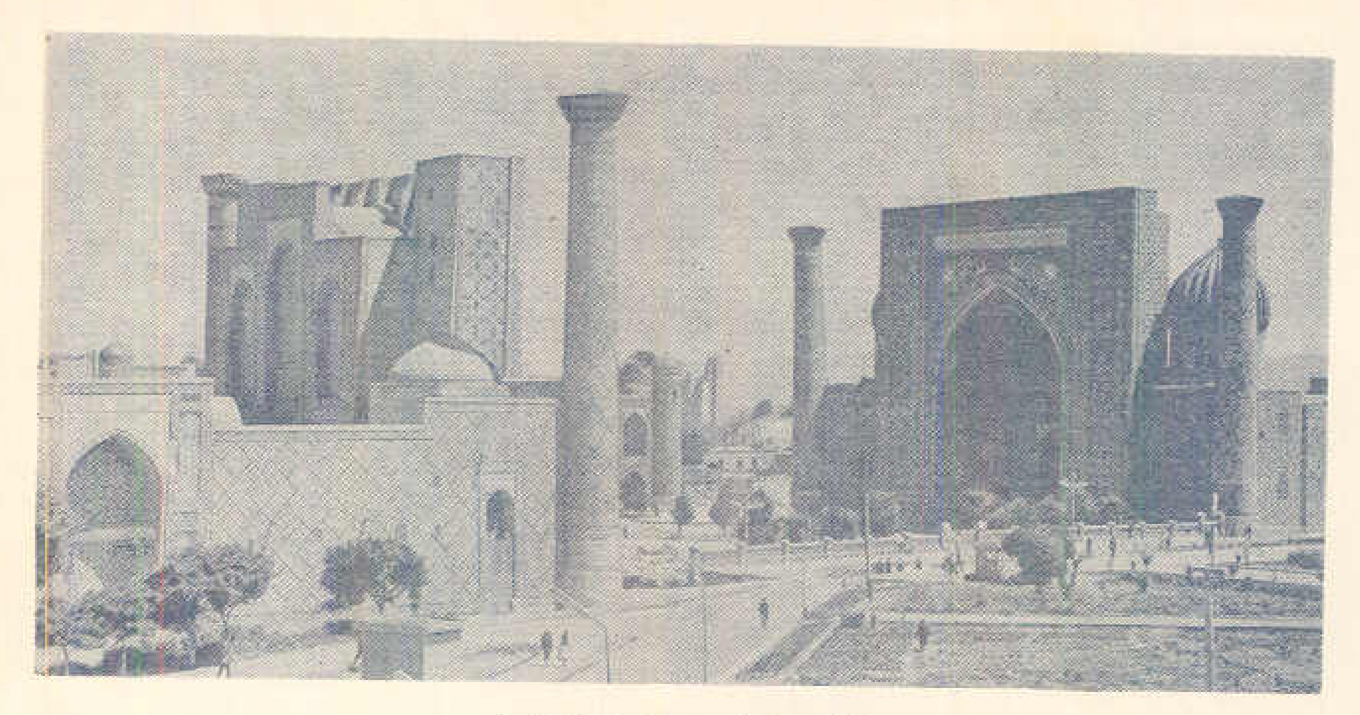
وفى يوم الاربعاء 29 – 5 – 1968 ، وبعد ان برزت الغزالة من خدرها ، واشرقت على العالم بنور ربها ، غادرنا هذه المدينة ، شاكرين اهلها شكرا غير ممنون ، الى مدينة بخارى الواقعة بجمهورية عزبكستان المعاصرة والتى كانت تعتبر قبل اليوم احدى مراكز الثقافة الاسلامية الكبرى ، ومعقلا حصينا من معاقل الاشعاع الاسلامي فى التركستان ...

وقد اتخذنا سبيلنا اليها طائرة ذات محرك واحد طوت بنا مسافة 340 كلم فى نحو ساعة كاملة ، مع العلم ان وسائل النقل فى الاتحاد السوفياتي عموما ، تتم غالبا بواسطة الطائرات نظرا للابعاد الفاصلة بين الجمهوريات وحواضرها وبواديها ومدنها ، فاي مسافر يود ان يتجه الى بلد ما فما عليه الا ان يقصد اقرب مطار اليه ، ويحتجز تذكرته ، وكانه يركب حافلة عادية كما هو الحال عندنا ...

❊ ❊ ❊

كنا نتخيل ، قبل أن نزور مدينة بخارى ، اننا سنغشى مدينة حافلة بالنشاط ، زاخرة بالحركة والحيوية ، مليئة بما رسمته مخيلتنا من تحف واعلاق ، عامرة بالمدارس والمعاهد التى جعلت من مدينة بخارى ايام عزها ومجدها مركز اشعاع روحي وعلمي فى قلب ءاسيا الوسطى لكننا ، وقد وصلناها، وجدنا نفسنا فى غير ما كنا نتخيله ، فهي مدينة مجهدة متعبة تجتر ذكرياتها التى طواها الزمن او كاد، وتنوء بأعباء السنين ، وعليها غبرة ترهقها قترة !! فانشدت فى سري قول الشيخ يوسف النبهاني :

ويممت دار الملك احسب انها
الى اليوم، لم تبرح الى المجد سلما
فالفيتها قد اقفرت من كرامها
ولم يبق فيها المجد الا توهما
فالى الله عاقبة الامور !!!



من آثار مدينـة سمرقـنـد العتيقـة ...



المدخـل الرئيسـي الى مدينـة بخـارى

استقبلنا شيوخها الفضلاء، وعليتها النبلاء، مرحبين بسلامة القدوم، واخذونا الى نزل جميل تم فيه لقاء حار، بين مسلمين شطت بهم الدار، وجمعتهم عناية الاقدار، حول اكرم مزار.

وان يوما واحدا يقضيه المرء الغريب في بلد ما، لا يعطيه الصورة الكاملة للبلد الذي يريد زيارته، ولكننا في الحقيقة، وبالرغم عن كل ذلك، فقد استطعنا ان نلتقط صورة حية عن اخواننا المسلمين بهذه المدينة حيث جسنا خلال ديارها، ووقفنا على رسومها، وخبرنا معالمها، واتصلنا بطلبتها في مدرستهم الدينية التي تحمل اسم الشيخ عبد الله اليمني الملقب بمير عرب والذي كان يتمتع في القرن السادس عشر بنفوذ كبير، وهي تقع بمحاذاة مسجد كلان الذي يحدث في النفس تاثيرا فنيا رائعا ...

وسكان هذه المدينة الذين استطعنا ان نتصل بهم تبدو عليهم مظاهر الفاقة والفقر، ولكنهم بأنفتهم وشهامتهم طووا صدورهم على التقوى، حتى يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف، مع ان مدينتهم وهي تعتبر من اكبر المدن الغنية، الحافلة بالمعادن والكنوز، لا يظهر على اهلها ومواطنيها ما يظهر على واقع مدينة تتمتع بخيراتها ومقدراتها، من امارات الغنى والاكتفاء، وهذا يذكرنا بقول شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله:

ايشتكي الفقر غادينا ورائحنا ؟
ونحن نمشي على ارض من الذهب!

ان مدينة بخارى لهي اليوم في الاتحاد السوفياتي من اغنى المناطق في العالم التي تنتج البترول وتتدفق من باطن ارضها ثروات وغنى، فقد قالت وكالة انباء نوفوستي السوفياتية: ان آسيا الوسطى السوفياتية تنتج الآن من المنتجات اكثر مما كانت تنتجه روسيا ما قبل ثورة اكتوبر، وقد مد الاتحاد السوفياتي في بخارى اعظم خط لانابيب البترول في العالم، هو خط بخارى ـ اورال، الذي يأخذ طوله نحو الفين من الكيلومترات ليمد روسيا بما تحتاجه من الغاز ...!

واشد ما لقيت من الم الجوى
قرب الحبيب وما اليه وصول

كالعيس في الصحراء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

* * *

فماذا عند التاريخ الامين من اخبار هذه المدينة ؟

ومتى عرفت الاسلام ؟ وما هو دورها في التاريخ ؟

وهل بقي للعرب وجود بها ؟

وهل ما زالوا محتفظين بلغتهم ؟

وما علاقتها بالمغرب ؟

* * *

في خلافة معاوية بن ابي سفيان الاموي توجه عبيد الله بن زياد الى خراسان وهو ابن خمس وعشرين عاما، فعبر النهر في نحو اربعة وعشرين الفا حتى ادرك بيكند، فتصدت له خاتون بخارى التي افضى اليها الحكم، بعد ما استصرخت الترك، لكن المسلمين هزموهم، فولوهم الادبار، فطلبت الخاتون، تحت ضغط الغلبة والسلطان، الصلح، وعاود المسلمون دخول بخارى وفتحوا، في طريقهم، رامدين وبيكند.

ثم ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خلفا لعبيد الله بن زياد، فعاود عبور النهر بعد ان نقضت خاتون بخارى الصلح، وجمعت من الصغد والترك واهل كش ونسف نحوا من مائة وعشرين الفا، لكن هذه الجموع الحاشدة قد دحرها العرب، وهزموهم هزيمة منكرة، مما اضطر الخاتون الى طلب الصلح مرة اخرى، بل ان التاريخ يحدثنا بأنها سارت في ركاب سعيد بن عثمان، وهو يقاتل اهل سمرقند حتى طلبوا الصلح، كما عاونته في فتح ترمذ ... ثم عزل معاوية سعيدا بن عثمان، وولى مكانه عبد الرحمان بن زياد الى ان آلت الخلافة الى يزيد، فانه ولي خراسان سلما بن زياد (62 — 64) الذي كان يعد من اول العرب مقاومة لطبيعة الاقليم الجامحة، الحافلة بالعقبات الطبيعية، والممرات الوعرة الجبلية التي يسهل للعدو الصمود عندها، والدفاع عنها، بالاضافة الى الجو القارس البرد، الشديد الزمهرير الذي لم يالفه العرب من قبل.

وقبل سلم بن زياد كان العرب ينظمون المسالح السريعة، والمراكز الستراتيجية، والغارات الخاطفة حينا، فاذا اقبل الشتاء ببرده النافح، وجوه القاسي آوى العرب الى حصونهم المنيعة في خراسان حتى يكون العام الذي يليه، لكن سلما، كما قدمنا، كان اول القواد قضاء للشتاء عبر النهر، وهكذا ذلل العرب كل عقبة كانت تعترضهم، وبدا المجاهدون العرب

يقهرون الطبيعة ، ويخضدون شوكتها، ويالفون هـذه الاجواء .

وقد قام سلم بن زياد في فتوحه بمنجزات كثيرة ، وفتوحات حاسمة ، فقد صالح اهل خوارزم على اربعمائة الف، واستعاد سمرقند بعد ان كانت قد خرجت من طاعة المسلمين ، واوقع الهزيمة بجموع الصغد .!

ونلاحظ ان القواد الامويين بداوا يشركون اهل البلاد المفتوحة ، ولو كانوا على غير الاسلام في جيش الغزو ، وقد اشتركت قوات كبيرة منهم في جيش قتيبة، ووفد اليه المطوعة من بخارى وغيرها من بلدان ما وراء النهر ، كما ان القوات العربية استطاعت، بدهائها وسياستها ، ان توقع الفرقة ، وتحدث الشتات بين الامارات التركية ، فدب النزاع بين امارتي فرغانة وخوارزم حيث افاد العرب من هذا الانقسام الى حد بعيد .

وقد امر قتيبة اهل بخارى ونسف ، في معارك سنة 95 ، بان يمدوه بعشرين الفا من المقاتلة ، وبهذا كان العرب الفاتحون لبلدان ما وراء النهر يتناولون هذه الامارات كلا على حدة ..

واستطاع قتيبة في سنة 87 الى سنة 90 ان يقتحم اقليم بخارى الذى كان لسقوطه اثر بالغ في البلاد كلها فقد ابرز مدى قوة العرب ، وشدة شكيمتهم، وتمرسهم بالحرب في هذه المرحلة الجديدة، فسارع ملك سمرقند بالاتصال مع قتيبة لوضع شروط للصلح ، وتجديد المعاهدة القديمة التى كانت قد عقدت ، كما قدمنا ، مع سلم بن زياد . وقد امر قتيبة ببناء المساجد في بخارى وسمرقند وغيرها من البلاد ، وانزل العرب في قلعة بخارى كما انزلهم في سمرقند ، وانشا في بخارى جامعا معروفا باسم جامع قتيبة ، وكان يمنح عطاء قدره درهمان لكل مصل جديد ، وكان يرسل الفقهاء الى البيوت لتعليم شعائر الدين ، وقد اجاز ترجمة القرءان الى اللغة الفارسية ، ولم تكن المساجد في عهده دورا للعبادة فحسب ، وانما كانت مدارس للثقافة الاسلامية ، واتبع ذلك بتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى كبخارى وسمرقند ، وتتابعت هذه الجهود في عهد عمر بن عبد العزيز الذى اسقط الجزية عمن اسلم ، وامر عماله بالدعوة الى الاسلام ، واستمرت هذه الجهود بعد عمر خاصة في عهد الوالي اشرس بن عبد الله السلمي (108 ــ 110 هـ) اذ كان اول من انشا الربط والخوانق والمدارس ، وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية في البلاد ، فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند ..

يقول البلاذري : « ودعا هشام اهل ما وراء النهر الى الاسلام ، وامر بطرح الجزية عمن اسلم ، فسارعوا الى الاسلام ، واتكسر الخراج »

وهكذا تدافع الآلاف من الناس الى اعتناق الاسلام ، وتعلم اللغة العربية افواجا ، افرادا وازواجا ..

ويقول الطبري : « ان ثمانين الفا من غير المسلمين اعتنقوا الاسلام في عهد نصر بن سيار الذى تغلب على جميع الانقسامات الداخلية ، ووضع حدا لما عاناه المسلمون من مشاكل الجزية والخراج ، بل ذهب نصر في تسامحه الى ابعد مدى ، فعفا عمن ارتد عن الاسلام ، واعفاهم من متاخرات الجزية والخراج ، واستعاد اسرى المسلمين ، واقر الامن على الحدود ..

* * *

وقد افاد العباسيون من الجهود التى بذلها الامويون لنشر الاسلام ، وبث دعوته السامية ، واستطاع دعاتهم ان يجتذبوا جماهير المسلمين هناك لمبادىء الدعوة القائمة على العدل والاحسان والاصلاح والقسطاس المستقيم ..

واسهم ابو مسلم في قمع الحركات الايرانية المناوئة للاسلام ليتوطد نفوذه ، وتعلو كلمته ، فقضى على ثورة قام بها الكهنة المجوس ، وكان اهل بخارى من انصاره الجدد عدته في قمع الثورات العربية التى اشتعلت هناك عام 133 هـ .

وان الانشقاق العلوي لقي قبولا في منطقة بخارى حيث قامت ثورة شريك بن صالح تنادى باحقية العلويين ، وقد تجمع حوله نحو ثلاثين الفا من بخارى وحدها ، بل امتدت هذه الحركة الى خوارزم الى ان تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة ، واستعادة نفوذهم .

وفي عهد المهدي اندلعت ثورة يوسف مولى ثقيف الخارجي في بخارى سنة 160 هـ ، وكان يوسف يمد سلطانه الى مرو والطالقان والجوزان ، ثم اشتعلت ثورة اخرى في عهد المامون ، هي ثورة يوسف حفيد

منصور بن عبد الله ، وانتشرت فتن الخوارج في سجستان ، التي ظلت بؤرة للثورات حتى في عهد الطاهريين والسامانيين .

ويرجع الفضل الكبير الى العباسيين الذين مكنوا لهذه الحركة الاسلامية العميقة من ان تمضي في سبيل نجاحها ليكتسب اقليم ما وراء النهر في مستهل القرن الثالث طابعا اسلاميا واضحا صريحا .

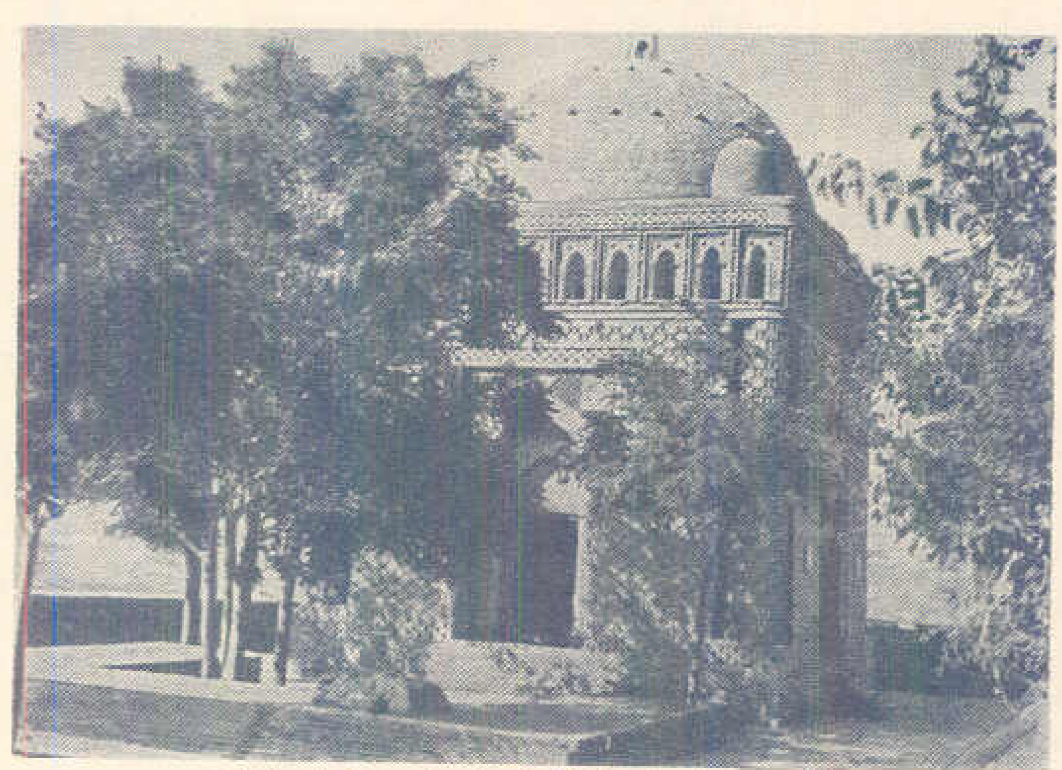
والحق أن العباسيين كان لهم دور بارز في انتشار الاسلام والثقافة العربية في بلاد ما وراء النهر .

وقد تبع انتشار الاسلام سير الثقافة في طريقها المرسوم ، فلم تعد ثقافة الوافدين من العرب ، وانما توطنت بين اهل البلاد الذين بداوا بعد تعلم اللغة العربية يضيفون الكثير الى الانتاج الاسلامي ..

واذا كانت مدارس ما وراء النهر قد ازدهرت في عهد الطاهريين والسامانيين حينما برزت بخارى وسمرقند كمراكز للعلم والثقافة ، فليس من شك في ان الخطوات الاولى التي ادت الى هذا التطور قد تمت في القرن الثاني والثالث ، فلم يكن ذلك الانبعاث نتيجة انتفاضة طارئة ، او طفرة مفاجاة ، بل كان نتاج تطور طبيعي تعاقب اجيالا ، وثمار بذور زكية غرستها ايد كثيرة مومنة مخلصة ، ثم سهرت على رعايتها وتعهدها بالري والسقيا حتى اتت اكلا شهيا ..

وقد انفق مسلموا ما وراء النهر جهودا كبرى بذلها ابناء هذه البلاد في نشر العلم والثقافة الاسلامية، ويكفي ان نشير الى ان عطاء هذه المدن كان من الوفرة والغزارة ما حفل به التاريخ الاسلامي لهذه البلدان ، فبخارى انجبت اعظم محدث في الاسلام ، وصاحب اصح الكتب بعد كتاب الله تعالى وهو الامام محمد ابن اسماعيل البخاري الجعفي المتوفى عام 256 هـ . ونيسابور انجبت مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، وترمذ اعطتنا ابا عيسى الترمذي ، وسجستان اعطتنا ابا داود صاحب السنن ، ونسا انجبت النسائي صاحب السنن ايضا ، وقزوين اعطتنا ابن ماجه ، كما جادت بلاد ما وراء النهر بالامام الكبير محمد بن اسماعيل القفال صاحب محاسن الشريعة . وولده ابي القاسم الشاسي صاحب التهذيب ، ونظام الدين الشاسي ، وابن الهيثم ابن سعيد الشاسي صاحب المسند في مجلدين والمشهور بمحدث ماوراء النهر، وجار الله الزمخشري، ويوسف السكاكي، وعبدالقاهر الجرجاني، وسعد الدين التفتازني، والعلامة السيد الشريف الجرجاني، وشمس الدين السرخسي صاحب المبسوط، وعلي بن ابي بكر المرغيناني صاحب الهداية ، وعبد الله بن احمد النسفي صاحب التفسير ، وابي منصور الماتريدي امام اهل السنة ، وابي بكر الخوارزمي الكاتب الاديب ، والشطرنجي الصولي الاديب المعروف وابي النصر الفارابي المعلم الثاني ، وابي زيد البلخي ، وبني موسى ابن شاكر، وابي الريحان البيروني الذي علم المسلمين فلسفة الهند وعلومها ، والجوهري الذي اهدى الى الامة العربية معجمه اللغوي ، كما ان بخارى ، وبصفة خاصة ، ينسب اليها خلق كثير من ائمة المسلمين في فنون شتى ، كابي زكرياء عبد الرحيم بن احمد بن نصر التميمي البخاري الحافظ المتوفى عام 461 هـ كما انجبت الشيخ الرئيس ابا علي ابن سينا حكيم الاسلام البخاري المتوفى عام 428، وابا عبد الله الناتلي ، واسماعيل الزاهد استاذي الشيخ الرئيس ، ومحمد بن سلام البيكندي ، ومحمد بن يوسف ، وعبد الله بن محمد المسندي ، وهارون بن الاشعث وهم من اسانيد الامام البخاري. وطاهر ابن احمد بن عبد الرشيد بن الحسين افتخار الدين البخاري ، الفقيه الذي يعد من كبار الاحناف ، وصاحب « خلاصة الفتاوي » و « الواقعات » و « النصاب » توفي عام 542 ، وعبد العزيز بن احمد ابن محمد علاء الدين البخاري ، الفقيه الحنفي الذي كان من علماء الاصول ، وله تصانيف منها ، « شرح اصول البزدوي » في مجلدين و « شرح المنتخب الحسامي » ، ومحمد بن احمد بن محمد بن خير الله البخاري من اعلم اهل الشام في عصره بالحديث ، اصله من مدينة بخارى سكن نابلس بفلسطين وتوفي فيها بالطاعون ، له « القول الجلي » في ترجمة ابن تيمية ، ومحمد صالح الرضوي نسبا ، السمرقندي اصلا ومولدا ، البخاري طلبا للعلم وشهرة ، المدني مسكنا ومدفنا المتوفى بها عام 1263 ، وهو علامة كبير ، زار المغرب اواسط القرن الثالث عشر ، وترجمته في فهرس الفهارس ، ومحمد بهاء الدين النقشبندي الذي كان رئيس طريقة لها عدد غفير من الاتباع في تركيا ، وامتدت حتى بلغت اندونيسيا ، والف « كتاب الحياة » و « دليل العشاق » وقد كان له كثير من الاتباع والمريدين ، ولد في بخارى ، وقضى فيها معظم سني حياته .. الى غيرهم من الاعلام ..

* * *



بناية ضريح اسماعيل الساماني فى مدينة بخارى
وتسمى ببدرة الشرق لكونها غاية فى الابداع المعماري



بعض اعضاء الوفد المغربي لدى خروجه من بناية ضريح اسماعيل الساماني

وقد بدات مدارس بخارى ترسخ قدمها فى الانتاج ، وتذيع شهرتها فى الآفاق عندما قامت الدولة الطاهرية فى القرن الثالث الهجري والتى قامت بدور حاسم كانت له ابلغ النتائج ، فقد امنوا الحركة الاسلامية عن طريق الحكم المستقر الذى اقاموه، وانصرفوا الى الاصلاحات الداخلية بصورة لم تكن معهودة من قبل ، وقد ادت الحياة الاقتصادية المستقرة من ناحية ، وتشجيع الطاهريين من ناحية اخرى الى تشجيع الحركة العلمية والفكرية والادبية ..

وقد كان الطاهريون انفسهم على درجة كبيرة من الثقافة الرفيعة، حيث عرف عبد الله بقرض الشعر، وكان ابن اخيه منصور بن طلحة يؤلف الكتب ، حتى اصبحت ما وراء النهر فى عهد الطاهريين بلدا اسلاميا تؤوي كثيرا من المجاهدين الاوفياء الذين يفدون اليها للمشاركة فى جهاد الاتراك الشرقيين وحماية دار الاسلام .

* * *

لقد استقر نفوذ الدولة السامانية فى تركستان وخراسان ، واصبحت من اعظم الدول نظاما ، واكثرها استقرارا ، واوفرها ثروة فى القرن الرابع الهجري ، وكان دورها فى الاحياء الفارسي اوضح الادوار ، فانطلقت من قصور امرائهم اعذب القصائد ، وحج اليهم كبار الشعراء ، وحفل عهدهم بحركة ادبية عظيمة ، سواء باللغة العربية التى افاض فى الحديث عنها ابو منصور الثعالبي والمقدسي ، او باللغة الفارسية التى افاض فى شرحها المؤرخ اللامع الاستاذ محمد عوفي ، بل ان ظهور الفارسية الحديثة انما يرجع الفضل فيه الى السامانيين ، فقد بعثوا اللغة الجديدة مكتوبة بقلم عربي ، واستخدموها لغة لبلاطهم وحكومتهم ، بل نجد بعض اهل الفتيا فى بلاطهم يفتي بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية ..

وان هذا الانتشار العلمي الشامل ليس انتشارا للعقيدة الاسلامية فحسب، وليس مجرد صراع بين الاسلام وبين الديانات الاخرى، وانما هو انتشار ثقافي قبل كل شيء انتشار للغة العربية وثقافتها ذات الطابع الديني المعروف ..

لقد كان من اولى ثمرات الاستقلال الساماني فيما وراء النهر تمكن الحركة الاستقلالية من البلاد ، وانتصارها انتصارا لا تقهر من بعده ، وتمكن الثقافة العربية من البلاد ، وصيرورة الاقليم مركز اشعاع ثقافي اسلامي عظيم امتد اثره شرقا حتى الصين ، وشمالا حتى كاشغر ، وغربا حتى حوض الفولجا .

قال الثعالبي : كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع افراد الزمان ، ومطلع نجوم ادباء الارض، وموسم فضلاء الدهر » .

ويجمع مؤرخو هذه الفترة على ان الحركة الفكرية ، والنهضة الاسلامية الكبرى انبعثت من مدارس ما وراء النهر ، ولاسيما فى بخارى ، ويجب التنبيه ان مستوى الرخاء ومظاهر الثروة وتشجيع العلماء ورجال الفكر ساعد على تشجيع الحركة العلمية ونموها . وقد ساهم السامانيون فى هذا البعث بتشجيعهم الحركة العلمية وتقديرهم لرجال العلم ، وقد عمل اسماعيل بن احمد الساماني ، الذى وزر له الرئيس ابن سينا ، على توطيد ملكه وسلطانه فى بخارى بمعونة الفقهاء ، بل انه اعفاهم من تقبيل الارض بين يديه ، وكان يختار نخبة من فقهاء الحنفية ورجال العلم فى بخارى لاخذ رأيهم فى المسائل الهامة .

وقد زرنا اثناء اقامتنا بمدينة بخارى ضريحه الذى يعتبر من اروع الامثلة على فن المعمار الذى يمزج تقاليد البناء القديمة بالمنجزات الحديثة ، كما انه يعتبر حقا بمجموعة صفاته التصميمية الفنية من فرائد البناء ، انه عبارة عن بناية صغيرة ذات قبة تتصل بقسم اساسي مكعب على اساس بنائي جديد هو طبل مثمن الاضلاع .

ويرى المؤرخون فى الدور الذى قام به السامانيون فى هذا الصدد امتدادا للمحاولات السامانية القديمة . ويعترف المؤرخ بارتولد بذلك النفوذ العظيم للمدارس الثقافية فى عصر السامانيين بقوله : « وتدل الوثائق التى بين ايدينا على ان المدارس التى قامت بخراسان وما وراء النهر فى القرن العاشر الميلادي لعبت الدور الاهم فى نشر الاسلام ، وانه اذا كانت الحركة الاسلامية قد احرزت نجاحا خارج حدود ما وراء النهر، فان الفضل فى ذلك يرجع الى مدارس ما وراء النهر . »

ولا ننسى هنا ان نذكر بان السامانيين قاموا بدور خالد عظيم ، هو كسبهم عالم الاتراك الشرقيين للحضارة الاسلامية ، هؤلاء الاتراك الذين سيصبحون، فيما بعد ، مادة للاسلام ، وقوة للحضارة الاسلامية ،

والوثائق تظهر الجهود الكبيرة التي قامت بها مدارس ما وراء النهر خصوصا بخارى وسمرقند ، والتى نشطت الى ابعد الحدود فى القرن الرابع الهجري ، عصر الدعوة الشاملة الى الاسلام بين الترك .

ولا بأس من ان نشير الى الجهود التى بذلت فى هذا السبيل، وقام بها رجال عظام كالجهود التى بذلها الفقيه ابو الحسن محمد بن سعيد الكلماتي الذى غادر نيسابور سنة 340 هـ وقضى وقتا لا بأس به بمدينة بخارى ، ثم رحل الى ديار الاتراك الشرقيين ودخل فى خدمة كبير خاناتهم ، وكذلك جهود الفقيه ابي الحسن سعيد بن حاتم الذى رحل الى ديار هؤلاء الترك ، ولقي حتفه هناك ، وقد حفلت هذه الفترة بالمآت من امثال هؤلاء الدعاة .

* * *

وقد اضطلع القره خانيون الذين كانت لهم امارات فى تركستان ، بدور عظيم قاموا به فى تاريخ انتشار الاسلام فى آسيا الوسطى ، وهم من الاتراك الشرقيين فى تركستان . . .

ويحيط الغموض بالقره خانيين بأصلهم ، وكيفية اسلامهم ، ومتى تم اعتناقهم الاسلام على وجه التحديد ؟!

غير ان الذى لا جدال فيه هو انهم لم يغفلوا دورهم كمبشرين بالاسلام ، وذادة عن تراثه ، وحماة عن كيانه ، كما انهم لم يفتهم ان يسهموا بنصيب كبير من الجهاد فى اقصى الشرق ، وبفضل نشاطهم اعتنق اتراك القرغيز الاسلام ، وكانت اعدادهم تربو على عشرة آلاف خيمة ، وكانوا فى الصيف يقيمون قرب بلاد البلغار، وفى الشتاء يقيمون قرب بلاساغون . .

وكان لاسلامهم وفتحهم لبلاد ما وراء النهر نتائج هامة فى تاريخ الحضارة الاسلامية، ويكفي انهم نبذوا الابجدية الايغورية القديمة واتخذوا الابجدية العربية ، وعملوا على توغل الحضارة العربية حتى حدود الصين . . .

وبالرغم من ان الترك القدماء القره خانيين اسقطوا سلطة السامانيين فى نهاية القرن العاشر، فان البلاد لم تتوقف عن التطور الاقتصادي والحضاري ، وقد انتهت فى القرنين الحادي عشر والثاني عشر عملية تشكيل المدن على الشكل الذى جرى فى القرنين التاسع والعاشر ، وسخ التخطيط الجديد ببناء المنشآت الضخمة فى مراكز المدينة الرئيسية ، وقد ظلت مدينة بخارى عاصمة فى عهدهم الى حين . .

ووقعت بخارى فى يد جنكيزخان عام 616 هـ ثم فى قبضة تيمورلنك عام 772 هـ وبقيت فى حكم ذريته ، ثم استولى عليها الاوزبك (عام 904 هـ 1498 م) بقيادة شيباني خان ، وفى عام (1153 هـ 1740 م خضعت لنادر شاه .

وقد وصف الرحالة المغربي ابو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة فى كتابه « تحفة النظار فى غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار » مدينة بخارى التى زارها فوجدها قد خربتها ، كما يقول ، جيوش جنكيزخان التتري الذى غزا تلك البلاد قبل دخول ابن بطوطة اليها ؛ وكانت مدينة كبيرة ، فوجد رحالتنا مساجدها ومدارسها واسواقها خرابا الا قليلا منها ، ووجد اهلها اذلاء ، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ، ودعوى الباطل ، وانكار الحق ، وليس بها الآن من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به »

هكذا يصف ابن بطوطة المغربي مدينة الامام البخاري ، ويقصد ابن بطوطة بوصف اهلها «بالتعصب ودعوى الباطل ، وانكار الحق » انهم كانوا من غلاة الشيعة . .

وقد ذكر ابن بطوطة انه زار مسجد الامام البخاري ، وقرا مكتوبا عليه : « هذا قبر محمد بن اسماعيل البخاري وقرا مكتوبا عليه : « هذا قبر محمد بن اسماعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا ، وكذلك على قبور علماء بخارى اسماؤهم واسماء تصانيفهم .

والصواب خلاف ما ذكره ابن بطوطة ، فقبر الامام البخاري قرب مدينة سمرقند ، وليس ببخارى ، ولعله سبق قلم ، او سهو الم .

* * *

وقد ادى ركود طرق القوافل القديمة الى انخفاض مستوى آسيا الوسطى الاقتصادي ، فاضمحلت المدن ، واقشعرت البلاد ، وهزلت مدينة بخارى ، وصوح نبتها ، وشاعت فيها الفتنة ، فاصبحت نهبا لرؤساء القبائل ومشائخ الدين بينما كان الشعب يتردى فى هاوية الفقر والافلاس ، واصبح الحكم فى عهد آخر دولة قبل

الاحتلال الروسي حكما جائرا اقطاعيا متعسفا متعنتا ، يتمثل فى جماعة من الانتهازيين المتمولين الذين لا وكد لهم الا استغلال الشعب ، وابتزاز امواله ، واذلاله واخضاعه والتمتع بالملذات والشهوات ، وبذلك قلت الصلات مع البلدان الخارجية ، وزالت دولة آسيا الوسطى الموحدة من الوجود ، فتكونت فى القرن الثامن عشر ثلاث دول مستقلة هي : بخارى – خيوه – خوقند .

وكانت مدينة بخارى التى ظلت مركز الدين الاسلامي فى آسيا الوسطى ماضية فى تشييد المساجد والمدارس غير ان فن المعمار فى دولة بخارى فى القرن التاسع عشر كان على مستوى ادنى من اعمال البناء فى خيوه من حيث الصفات الفنية والاحجام . . .

وهكذا عاقت مشاحنات الاقطاعيين تطور حياة البلاد الاقتصادية والثقافية ، وسهل على رجال البدو القيام بهجمات على البلاد وتخريبها . .

* * *

وقد اتصل تاريخ بخارى فى العصور الحديثة بالتغلغل الروسي منذ عهد الامبراطورة كاترين الثانية ، وبعد احتلال انجلترا للهند ، وتقدمها لغزو البلاد المجاورة ، وخاصة افغانستان .

وفى عام 1854 فشل قيصر نيقولا الاول فى الاستيلاء عليها حيث وجهت روسيا وفدا عسكريا للتفاوض فى تنمية العلاقات الاقتصادية واقامة مندوب تجاري روسي فى بخارى ، ثم تقدمت لاحتلال تركستان ، وتم لها ما ارادت بعد اربع سنوات ، واحتلت بعض الاراضي التى كانت تحت نفوذ الامير مظفر الدين ثم الامير عبد الاحد ، ومير عالم الذى هرب الى افغانستان عند قيام الثورة الروسية .

ولم تمر برهة وجيزة حتى اسبح عدد الروسيين كما ذكرت ذلك السيدة هيلين كاريير دانكوس Hélène Carrière d'Encausse فى كتابها «الاصلاح والثورة عند مسلمي الامبراطورية الروسية» Réforme et Révolution chez les Musulmans de l'empire russe (1) يبلغون 50 000 بالاضافة الى 8 000 جندي

* * *

لم تخلد مدينة بخارى الى الراحة والهدوء بعد الاحتلال الاجنبي ، ولم تستكن للعبودية ، ولم ترضخ للذل والهوان ، وهي تملك رصيدا من تاريخ حافل بالامجاد والبطولات ، والمواقف الحاسمة ، فلقد كانت تتسقط اخبار المسلمين ، وتتبع عن كثب ما كان يجتاح العالم الاسلامي من يقظة وانبعاث ، ويهب عليه من تيارات تحررية وفكرية تشمل سائر ميادين الفكر والسياسة ، ولاسيما ما قام به المسلمون فى بلاد الهند والعراق ومصر وليبيا والمغرب ، فقام ابو نصر الخرساوي ، وتلميذه المرغاني ووضعا برنامجا شاملا يعمل على نهضة البلاد وتقدمها، ويعيد مجدها التليد ، فاستجاب السكان ، وتكونت البذرة الاولى للنهوض بالبلاد ، والتحرر من الجمود والجحود الذى ران على العلماء المتزمتين ، والسيطرة الاجنبية والعمل على فهم الاسلام على وجهه الصحيح .

وهكذا وقعت المحاولات الاولى لجمع كلمة المسلمين فى روسيا ، فقام بعض الدعاة بالتبشير لهذه الحركة فى كافة المقاطعات الاسلامية ، الواقعة تحت السيطرة الروسية ، وكان من ابرزهم القاضي عبد الرشيد ابراجيموف من تلامذة غاسبرينسكي ، وعقد ثلاث مؤتمرات ما بين 1904 – 1906 صادقت على تاسيس ماادعته : « اتفاق مسلمي روسيا » للوصول الى الاصلاحات التى كانت تطالب بها الحركات السياسية اذ ذاك فى روسيا نفسها ، وقد شملت لائحة التوصيات :

1) توحيد جميع مسلمي روسيا

2) المساواة فى الحقوق بين الشعب الروسي والشعوب الاسلامية

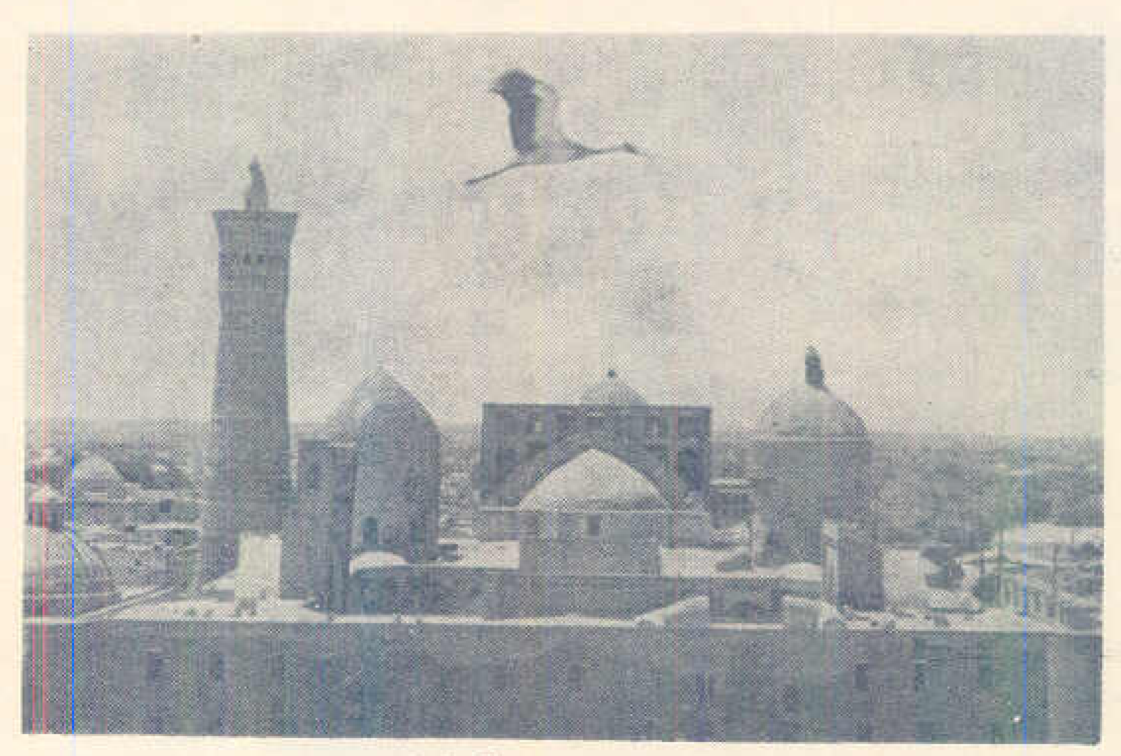
3) تاسيس ملكية دستورية

4) حرية التعليم الاسلامي والصحافة والنشر وتاسيس مراكز ثقافية

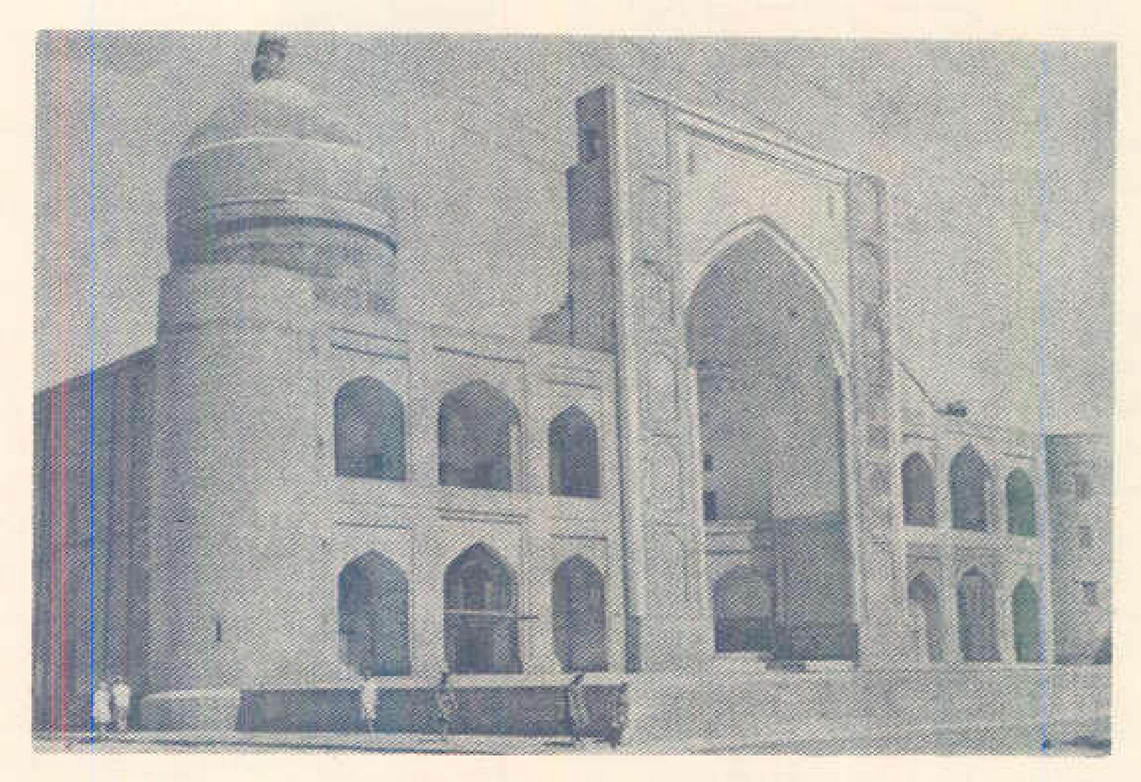
5) احترام الملكية الفردية للاراضي ، ونبذ نزع الملكية .

---

(1) كتاب ذو اهمية خاصة من ناحية التدقيق التاريخي ، ومؤلفته تكاد تكون متخصصة فى الشؤون السوفياتية ، وقد قدمها الكاتب الشهير ماكسيم رودينسون الذى اصدر عدة ابحاث عن الاسلام ، وقد ترجم بعض فصوله الاستاذ السيد قاسم الزهيري فى مجلة « الايمان » الغراء .



منظر عام لمدينة بخارى



مدرسة « مير عرب » فى بخارى

وقد لقيت حركة التجديد فى انشاء مدارس عصرية فى مدينة بخارى من لدن المتزمتين ، والرجعيين ، ومشايخ الطرق والدين كل عنت وارهاق ، فقد صرحوا بان الدعوة الجديدة مخالفة للشريعة والدين ، وفى سنة 1909 اخذ انصار الاصلاح والتجديد يقتفون اثر ((**تركيا الفتاه**)) فى نشاطهم ، وكانت هذه الحركة الاصلاحية مرتبطة بحركة التجديد فى تركيا حيث ان بعض رجال الاصلاح فى بخارى كانوا اعضاء فى تركيا الفتاة ، فتاسست الجمعيات السرية ، وجعل الناس بيوتهم قبلة واقاموا الصلاة ، واصدروا صحفا تعبر عما يعتمل فى نفس الشعب وضمير الجماعة ، كما عملوا على انشاء مسارح محلية تبصر الشعب بواقع المصير المر ، لكن ما فتيء ان ازداد الفساد ، وكثر الشر عن انيابه ،



عبد الاحد بهادر
آخر امراء بخارى
قبل ضم الروس لها

واستشرى الظلم والبغي والعدوان بانتشار الرشوة ، واذلال الشعب ، وسد آفاق التقدم فى وجهه ... وقد تقدمت بخارى فى ميدان الوعي واليقظة تقدما شاسعا فى ظرف خمسة عشر عاما ، واصبحت اكثر قابلية للتطور ، واستجابة للتجديد بعد جمود استنامت اليه قرونا ، ولا شك ان هناك عوامل كثيرة تضافرت للوصول الى هذه النتيجة منها :

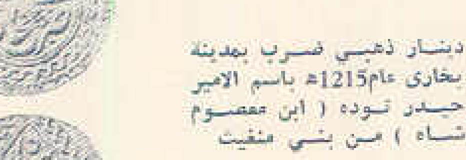
1) انهزام روسيا امام اليابان ، وما ترتب عنه من وعي وسط الشعوب المغلوبة المنهوبة ، المضغوطة المكظومة .

2) الانقلاب فى تركيا وايران

3) نجاح الافكار التحررية فى روسيا نفسها

4) ما كان يجري من كفاح فى البلاد المستبعدة. ولما وقعت الثورة الروسية، وحصل الانقلاب المعروف، وامسك السيد لينين بزام الحكم اعلن فى برنامجه توصية صادق عليها مؤتمره السابع ، جاء فيها :





دينار ذهبي ضرب بمدينة بخارى عام1215هـ باسم الامير حيدر توده (ابن معصوم شاه) من بني منغيث

يجب ان يعترف لكل الامم التى تتالف منها روسيا حق الانفصال عنها بكل حرية لتصبح دولا مستقلة ، ان انكار هذا الحق ، وعدم اتخاذ التدابير لضمان تطبيقه عمليا يعادل سياسة الغزو والالحاق »

انتعشت النفوس بعد يأس ، وانفتحت باب الامل بعد قنوط ، وانفرج الكرب الذى امسى فيه المسلمون اعواما وسنينا . لكنه لما استدف الامر للاتحاد فى التركستان قاموا بغزو الامارة 1918 ، وقدموا انذارا للامير حليم خان ، وفى 25 مارس 1918 امضيت معاهدة الصلح اعترف فيها باستقلال بخارى من المسؤولين الروسيين .

وفى سنة 1921 حل القائد الوزير التركي انور باشا ببخارى ، وقاد منها حرب العصابات مدة ثمانية اشهر ضد الروس ، وجعلها عاصمة لدولته الاسلامية المستقلة لحين استشهاده فى حربه مع البلشفيك عام 1922 .

ومن المعلوم ان انور باشا تولى وزارة الحربية التركية ابان الحرب العظمى ، وعرف بميوله الالمانية ، وقاد الجيش التركي فى جبهة القوقاز ، وبانهيار الجبهة البلغارية ، والتماس السلطان وحيد الدين الهدنة من الحلفاء ، فر انور الى القرم ، ومن ثم الى برلين ، ثم انتقل الى موسكو ، وناصر الحكومة البلشفية ، واشترك فى مؤتمر باكو عاصمة اذربيجان ، وطالب باستقلال الولايات الاسلامية الروسية ، فلما نكث الروس بوعدهم انقلب عليهم ، وارتحل سرا الى تركستان ، وكان من شأنه ما كان ...

* * *

تلك هي مدينة بخارى كما عرفها التاريخ ، لقد كتبت مجدها بدماء ابنائها ، وكافحت قرونا طوالا فى



الوفد المغربي بمدينة « مير عرب »

سبيل استقلالها ، وانجبت من العلماء الافذاذ ما هو مسجل في سطور التاريخ ، وان معالمها الماثلة اليوم لتشهد على همم ملوكها ، فالبناء اذا تقادم عهده اضحى يدل على عظيم الشأن ، ولقد زرنا مسجد كلان ومئذنته الشاهقة المعروفة التي شيدت في القرن السادس عشر والتي يرتفع برجها فوق بنايات المدينة كلها، ولقد اندهشنا لروعة بناء هذا المسجد العظيم الذي امتاز بصومعة عظيمة لا يرتفع فيها صوت المؤذن اليوم ملعلعا بالتكبير نظرا للحرية الدينية !!! ، اما صحونه ورحابه فقد اصبحت مخبا للاسرة وغيرها من الاثاث القديم مما يؤثر تاثيرا بالغا ان كان في القلب اسلام وايمان ...

وقد زرنا « حوض لب » وهو عبارة عن خزان ومجموعة من البنايات الاثرية وهو اكبر احواض الماء الكبيرة في بخارى طوله 45،5 مترا وعرضه 36 مترا ، واطلق اسمه على مجموعة المنشآت الواقعة قرب هذا الحوض من ثلاث جهات .

وقبل ان نؤدي صلاة الظهر بجامع خواجه زين الدين الذي يعتبر من منشآت القرن السادس عشر وبه تزيين رائع في داخله ، توجهنا الى المدرسة الدينية التي يتلقى فيها البخاريون دروسا دينية تشمل اللغة العربية وموادها ، وقواعد الدين ، ومدة الدراسة بها خمس سنوات وهي تؤهل للالتحاق باحدى الكليات الدينية كالقرويين والازهر ، وقد تخرج منها طلبة اصبحوا اليوم من اساتيذها المحترمين ...

وفي المساء قمنا بزيارة للقصر الصيفي لامير بخارى السابق وهو قصر عادي جدا بالنسبة للقصور التي رايناها في الاتحاد السوفياتي .

وعندما اذنت الشمس بالمغيب قفلنا راجعين الى المطار ، فاقلتنا طائرة صغيرة للعودة مرة ثانية الى مدينة طشقند حيث ستجرى حفلة كبرى على شرف الوفد تتبادل فيها الخطب والهدايا ...

* * *

وبعد :

فهل بقي للعرب وجود في آسيا الوسطى او اثارة من علم ان كان لهم بقاء ؟

واذا ثبت وجودهم اليوم فهل بقوا محتفظين بلغتهم العربية التي فتحوا بها بلاد ما وراء النهر ، ام انقرضت واستعيض عنها بلهجات محلية ولغات اخرى ؟...

لقد نقل بعض الرواة الذين زاروا امارة بخارى اخبارا مفصلة نوعا ما، عن عرب آسيا الوسطى فكانت تعطي معلومات عن عددهم ولهجاتهم ، كما انه وردت معلومات عن العرب البدو ، منذ القرن الخامس عشر في وثائق مختلفة لامراء بخارى، كما كان عرب بخارى يؤلفون وحدات ادارية يقوم على رأسها امراء الالف ..

فهل كان هؤلاء العرب يتحدثون باللغة العربية ؟ ام كانوا يتخذون اللهجات المحلية طريقا للتعبير ، وهل احتفظوا باللغة العربية ؟ لقد ثبت على اثر تنقيب خاص ، ان في آسيا الوسطى اليوم لهجتين عربيتين مستقلتين : لهجة بخارى ، ولهجة قشقاداريا ولقد تحدثوا بان الفرق كبير بينهما الى حد ان عرب بخارى ، وعرب قشقاداريا ، لا يفهم بعضهم بعضا ، فهم يؤثرون التخاطب فيما بينهم باللغتين ، الاوزبكية او الطاجيكية . ولغة عرب آسيا تشبه تاريخيا شبها قويا اللهجة العراقية كما تشبه نوعا ما لهجة بدو القسم الاوسط من الجزيرة العربية ، ويثبت ذلك سواء من المعطيات المتعلقة بعلم اللغة او المصادر التاريخية .

وقد أعد الاتحاد السوفياتي اخيرا نشر مصنف في اربع مجلدات عن لغة عرب آسيا الوسطى تضمن المجلد الاول الذي صدر ، نصوصا من لهجة بخارى مع ترجمتها الى الروسية ، واحتوى المجلد الثاني نصوصا من لهجة قشقاداريا مع ترجمتها الى الروسية ، وكان المجلد الثالث قاموسا للهجتين ، اما المجلد الرابع فتضمن التحليل القراماطيقي للهجتين العربيتين في آسيا الوسطى ، ولقد قال الاكاديمي ا. كراتشكوفسكي المستعرب الروسي الشهير عن هاتين اللهجتين اللتين يشكل اكتشافهما ودرساهما صفحة مجيدة في تاريخ الدراسات العربية المعاصرة واشياء جديدة كثيرة في كنز العلوم العالمي .

* * *

العلاقة بين بخارى والمغرب :

يرتبط المغرب بروابط روحية ومادية تمتد جذورها في دنيا الماضي سنختصرها فيما يلي :

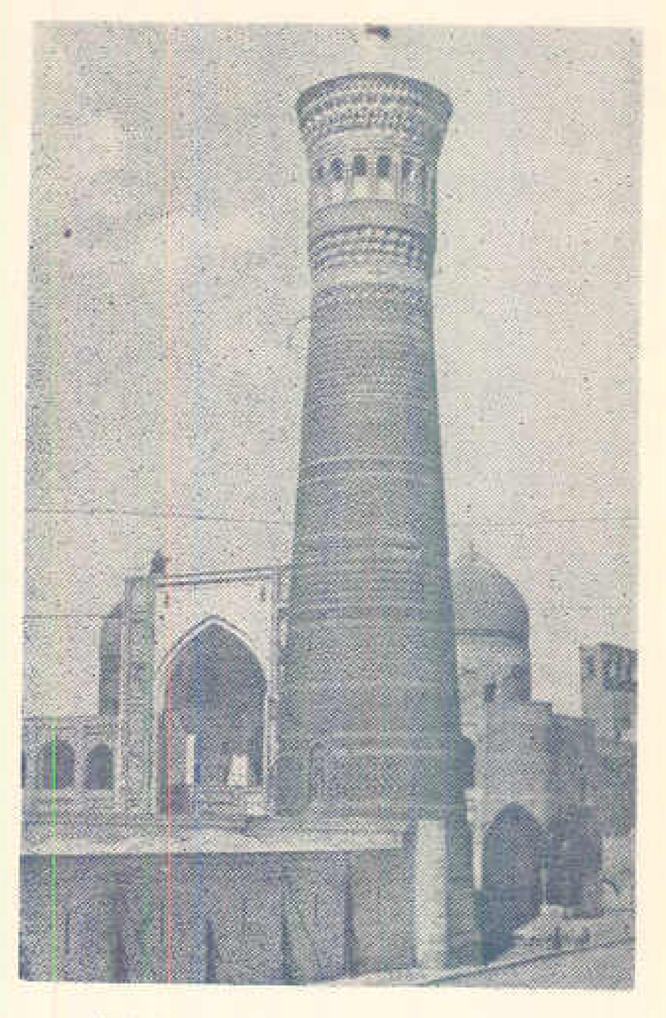
1) فقد زارها الرحالة المغربي ابو عبد الله محمد ابن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة بعد القسطنطينة وبلاد القرم واقليم الفولجا وخوارزم حيث اعطاها وصفا يدل على ملاحظة دقيقة ، وذاكرة واعية ، وامانة فى الوصف والعرض ، كما وصف خواتينها وامراءها وصفا دقيقا لا يدرك كنهه ودقته الا من وقف على معالم تلك الديار ..

2) لفرط اعتناء المغاربة بالامام البخاري ، وتقديرهم لبلده وعلمه كان لهم جيش فى دولة المولى اسماعيل العلوي هو جيش عبيد البخاري الذين جمعهم المولى اسماعيل من بقايا العبيد الذين اتى بهم المنصور السعدي اذ بلغ عددهم فى ايامه 150 الف نفر .. ولما ظفر بهم المولى اسماعيل جمع اعيانهم ، واحضر نسخة من صحيح الامام البخاري ، وقال لهم

« انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرعه المجموع فى هذا الكتاب ، فكل ما امر به نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه ، وعليه نقاتل ، فعاهدوه على ذلك ، وامر بالاحتفاظ بتلك النسخة من صحيح الامام البخاري رضي الله عنه ، وحملها حال ركوبهم وتقديمها امامهم فى حروبهم .

3) جرت عادة ملوكنا العلويين انه اذا دخل شهر رجب وشعبان ورمضان فانهم يقبلون على دراسة صحيح الامام البخاري فى مجالس حافلة بالعلم والادب ويختمونه عدة ختمات فى مهرجانات دينية تعبق بحديث الرسول عليه السلام وتتضوع بشمائله النبوية .

4) هناك قصائد مغربية خالدة لا تحصى ، تفيض علما ، وتتقد حماسة ، قيلت بمناسبة ختم صحيح البخاري كالقصيدة الخالدة الرائعة التى انشدها الشاعر الفحل الاستاذ السيد محمد الجزولي الرباطي لما ختم شيخ الاسلام ابو شعيب الدكالي كتاب الصحيح ، وكالقصيدة الفريدة التى انشدها شاعر



مادنة مسجد « كالان » فى مدينة بخارى

الحمراء الاستاذ المرحوم محمد بن ابراهيم لما ختم الاستاذ السيد عبد الرحمن ابن ابي شعيب الدكالي صحيح الامام البخاري بمدينة مراكش والتى يقول فى مطلعها :

الماري فى علمه الماري ؟؟

وله يشهد الامام البخاري ..

وهي طويلة جدا ..

زيارة الوفد لوزير خارجية أوزبكستان :

ـ يتبع ـ

الرباط ـ محمد بنعبد الله



« 2 »

الجلاهق ، معرب كله ، بالكاف الفارسية ، وهو الطين المدور الذي يرمى به عن القوس ، لعبة للصبيان.

الجلبان ، معرب جلبان ، بالتخفيف ، وهو معروف .

الجلسان ، معرب كلشان ، بالكاف الفارسية ، قال الاعشى :

بالجلسان وطيب أردانه
بالون يضرب لي يكر الاصبعا

الجلنار ، معرب كلنار ، بالكاف الفارسية ،

وهو مركب من كل ، ورد ، ونار ، رمان ، يعني زهر الرمان .

الجلوز ، معرب جلفوزه ، وهو حب الصنوبر.
الجنك ، معرب جنك ، بالكاف الفارسية ، والجيم كذلك ، وهي آلة من آلات الطرب ، ومعناه في الاصل برتن

الجوالق ، معرب كواله او كوال ، بالكاف الفارسية ، او جوال ، بالجيم الفارسية كذلك .

الجناح ، معرب كناه ، بالكاف الفارسية، « لا جناح عليكم » .

الجوالق ، معرب جوال ، بالجيم الفارسية ، وهو الفارسية ، وهو بضم الجيم ، كما في اخترى كبير التركي ، ومعناه العدل من شعر او صوف .

الجورب ، معرب كورب . قال رجل من بني تميم لعمر بن عبيد الله بن معمر :

ابذ برملة نبذ الجورق الخلق
وعش بعيشة عيشا غير ذي رنق

الجوز ، معرب كوز ، بالكاف الفارسية ، ومنبته بلاد فارس .

الجوزينج ، وجوزينق ، معرب كوزينه ، بالكاف الفارسية ، وهو من الحلاوات المعمولة من الجوز .

الجوسق ، معرب كوجك ، بالجيم الفارسية ، اي صغير في معناه الاصلي الفارسي ، والمراد به القصر والحصن ، قال النعمان ، وهو رجل من بني عدي بن كعب ، وكان عمر قد استعمله على ميسان :

فمن مبلغ الحسناء ان خليلها
بميسان يسقى في قلال وحنتم
اذا شئت غنتني دهاقين قرية
وصناجة تجذو على كل منسم
اذا كنت ندماني فبالاكبر اسقني
ولا تسقني بالاصغر المتثلم
لعل امير المومنين يسوءه
تنادمنا في الجوسق المتهدم

الجوقة : معرب ، وهي الجماعة . .

الجوهر ، معرب كوهر ، بالكاف الفارسية ،

الجوذر ، وهو ولد البقرة ، معرب كوذر ، قال عدي بن زيد :

ترق الطرف بعين جوذر
احول المقلة مكحول النظر

الحب ، وهو ما يجعل فيه الماء ، معرب خنب او خم .

الحبارى ، معرب ابره ، طائر .

الحرباء ، معرب خرباك اي حافظ الشمس .

الحام خام ، بمعنى الفج .

الخربز ، وهو البطيخ ، معرب خربزه .

الرج ، معرب خوره ، وهي المزادة التي توضع على الدابة .

الخورديق ، معرب خورده ، وهو طعام شبيه بالحساء ، قال الراجز :

قالت سليمى اشتر لي دقيقا
وهات برا نتخذ خرديقا

الخراطين ، خراتين ، وهو دود يتكون في الطين .

الخرم ، بمعنى ناعم ، قالوا عيش خرم ، وهو فارسي هكذا بمعنى الطيبة والفرح ، قال ابو نخيلة :

قاظت من الخرم بقيظ خرم

الخريطة ، معرب خريطه ، بمعنى الكيس .

الخورنق ، معرب خورنكاه ، بالكاف الفارسية ، اي موضع الشراب في اصل معناه ، وعرف عند العرب علما على بنية بناها النعمان ، عدي بن زيد يذكره في شعره بقوله :

وتبين رب الخورنق اذ اشرف يوما وللهدى تفكير

الخز ، معرب خز ، بمعنى الحرير والثوب المنسوج منه .

الخزرانق ، معرب خزرانه ، وهو ضرب من الثياب ابيض .

الخسرواني ، منسوب الى عظماء الاكاسرة، قال الفرزدق :

لبس الفرند الخسرواني فوقه
مشاعر من خز العراق المفوف

الخشكنان ، معرب خونان ، ويعمل من دقيق الحنطة يعجن بشيرج ويبسط ويملأ بالسكر واللوز او الفستق وماء الورد ، قال الراجز :

يا حبذا الكعك بلحم مثرود
وخشكنان وسويق مقنود

الخلنج ، معرب خلنك ، بالكاف الفارسية ، واصل معناه المتنوع الالوان ، وهو شجر تتخذ من خشبه الاواني ، قال ابن قيس الرقيات :

ملك يطعم الطعام ويسقي
لبن البخت في قصاع الخلنج

التخمين ، اشتق من كيان ، بالكاف الفارسية، وهو الظن فيها .

الخنجر ، معرب خون كر ، بالكاف الفارسية ، وهو مركب من جون ، دم ، وكر علامة اتصاف بالفاعلية، المعنى في الجميع سيل الدم .

الخندق ، معرب كنده ، اي محفور ، قال كعب بن مالك الانصاري :

فليات ماسدة تسن سيوفها
بين المذاذ وبين جزع الخندق

الخوذة ، معرب خوده ، وهي بيضة الحديد.

الخوان ، معرب خوان ، بفتح الخاء المفخم مع حذف الوار ذكرا ، مع تقدم ، وخاؤه تكسر وتضم زيادة على اللغة السابقة في الهمزة والخوانجان .

الخيار ، معرب خيار .

الخير ، بمعنى الفضل والكرم ، كما ذكره ابو عبيدة ، وهو بكسر الخاء .

الخور ، بمعنى الخليج من البحر .

الدستاران ، بمعنى الاجرة المعطاة قبل العمل .

الداموق ، يقال وصفا لليوم اذا كان ذا عكة وحر ، معرب دمه كر ، اي ياخذ النفس ، او دمكاه ، ومعناه الاتون وكور الحداد ، والكاف فارسية فيها .

الدانق ، معرب دانه ، بمعنى حبة ، وقد وردت الكلمة في قصة الحجاج مع جد الاصمعي ، فقال بعدما ذكرناه ، واجريت عليك في كل يوم دانقين .

الدبج النقش مأخوذ من الديباج ، معرب ديبه كما ياتي

الدخدار ، معرب تخت دار ، بمعنى الثوب الجديد ، الذي يصونه التخت ، قال :

تلـــوح المشرفيــــة فـــي ذراه
ويجلو صـفـح دخـدار قشـيـب

الدراينة ، جمع دربان الفارسية ، وهو البواب ، قــال المثقف العبـــدي :

كدكـــان الدرابنــــة المطيـــن

الدراصينـــي ، معرب دار صيني وهو شجـــر صينـــي .

الـــدرف ، بمعنى الراية فارسية معربه درفش، وبمعنـــى التلألـــؤ كذلك .

الـدركون ، يقال للورك من البغال عند اهـــل مكـــة ، وهو معرب دركون .

الدرهـره ، وصفا للسكين فى حديث ، وهـــي المعوجـة الراس ، معرب داره ـ وهو فى الاصل ماض ـ بزيادة حروف من جنسه ، والعرب تفعل نحوه ، كمـا هو فى السختيت ومقمجـــر الآتيين :

الدرويش ، معرب دريبش بالبـاء الفارسيـــة ، واصله قدم الثياب كناية عن الاحتياج والسؤال .

الدست ، للصحراء ، معرب دشت ، قال الاعشى:
قد عرفت فارس وحمير والأعراب بالدست ايكم نزلا

وقد يقال بالشين ، قال الراجـز :

ســـود نعـــاج كنعـــاج الدشت

الدستبند ، معرب دست بند ، يريد بها رقـص المجوس ، وقد اخذ بعضهم يد بعض .

الدستور ، معرب دستور ، وهو فى اصله مركب من دست ، يد ، وور ، صاحب ، فهو القانون الـــذي يرجع اليه عند تناول القضايا فيمدنا بالحكم فيها .

الدستينج ، معرب دستينه ، وهـــو السوار ، المعـــروف باليارق ، كما سياتي .

الدلـــق ، دلـه ، وهو دويبة كالسمور .

الدهانـــج ، وهو البعير الفالج ، ذو السنامين ، معرب دوهـان ، دوه ، جمل ، ويبدو ان علامة الجمع فيه لكونه ذا سنامين ، فهي للتعميم .

الدهقـــان ، معرب دهقان ، وهو التاجـــر او القـوي على التصرف مـــع حــدة .

الدهليز ، معرب دهليز ، وهو ما بين الدار وبابها

الديابـوذ ، معرب دوابوذ اي ثـوب ينسج على نيرين ، يقال له الديابوذ ، قال :

كانهـــا وابن ايـــام تربيــــه
من قرة العيـــن مجتابا ديابوذ

الدولاب ، معرب دولاب ، وهو فى اصله من اللغة مؤلف من دو ، اثنين ، ولاب ، شفـة .

الديباج ، معرب ديبا ، وقيل انه فى اصله مركب من ديو + باف ، اي نسيج الجان .

الديدبان ، معرب ديدبان ، بمعنـــى الطليعـــة والربيئـــة .

الديوان ، اصله اللغوي ، ديبان او ديوان ، بنطق الباء والواو بمعنى الشياطين ، (وقد تقـدم أمـره فى المقدمـــة)

الذماء ، معرب دمار ، اي بقيـة النفـس ، كمـا يطلق هذا على جذر الشجر .

رزتاق ورزداق ورستاق ، معرب رسته ، وهـو سطر مستقيم ، او ممدود ، كما فى ادب الكاتب .

الرستاق ، معرب روستا ، بمعنى القرى .

الرمق ، معرب رمه ، ويطلق هــذا على نفايـــة ونسالة الصوف مثلا .

الرهـامج ، معرب راه نامـه ، وهو فى الاصـــل مركب من الطريق والاسم ، ومعناه دليل .

الرهوج ، معرب رهوار ، او رهوه ، وهو المشي السهل ، قال العجاج :

مياحة تميـــح مشيا رهوجـــا

الروزنق ، وهي الكوة او الخرق فى اعلى السقف، ويقال للكوة النافذة الروزن ، معرب روازن .

الروشن ، معرب روش بمعنى الضوء .

الزربية ، معرب زيرباى ، بالباء الفارسية ، مؤلفة من زير ، تحت وبا ، قدم .

الزرجون ، معرب رزگون ، بالكاف الفارسيـــة ، اي لون الذهب ، وهو اسم للخمر ، كما فى ادب الكاتب

قال أبو دهبل الجمحي :
وقباب قد اشجـــرت وبيـــوت
نطقـت بالريحـــان والزرجـــون

الزردمة والزردبة ، بمعنى عصر الحلق ، معرب زردمه ، اى اخذ بنفسه ، او زيردمه ، اى تحت النفس، أو زادمـــــــه .

الزركيش ، معرب زركش ، وهو فى اصله من فقه اللغة ، مركب من زر ، ذهب ، وكش ، سحب ، تركيب الاسم مع المادة الاصلية .

زرياب ، مركب من زر ، ذهب ، وياب الوجود ، يعني واجد الذهب ، فهو مركب من اسم ومادة اصلية كذلك اسما لطائر .

الزمردة ، وصف للمراة التي تشبه الرجال ، معرب زنمرده ، وقد عربت قريبة من هذا ، زنمردة ، قال ابو الغطمس الحنفي :

منيت بزنمردة كالعصا
الص واخبث من كندش

الزنجار ، معرب زنكار ، بالكاف الفارسية ، وهو نوع من السمك .

الزنجير ، زنكير ، بالكاف الفارسية ، السلسلة .

الزنديل ، انثى الفيلة ، معرب زن بيل ، بالباء الفارسية ، ويقال ان رنديل ، معناه الفيل الضخم ، فيكون مركب زنده بيل .

الزنديق ، معرب زنده كرد ، او زنده كر ، بالكاف الفارسية فيهما ، او زنده كيش (انظر فخر الاسلام) .

الزنفليجة ، معرب زن باله ، بالباء الفارسية ، ولهذا تكتب مرة بالفاء واخرى بالباء ، وهي الوعاء ، ويقال لها ايضا الزنفليجة والزنفالجة وقد تكسر الزاى والفاء معا ، وقد تكسر اللام معهما ، ويظهر انها المعروفة بالزنبيل ، قالوا انها شبيه بالكنف وهو وعاء ادة الراعي او وعاء اسقاط التاجر .

الزور بمعنى القوة ، معرب زور ، ومنه شهادة الزور ، لان صاحبها يقويها ويشددها ، وقد يكون هذا ــ كما قال ابو عبيدة ــ وفاقا بين اللغتين .

الزئبق والزاووق ، معرب زيوه ، بالزاى الفارسية كماض معجم ساق الترك .

الزيج ، معرب زينك بالكاف الفارسية ، بمعنى الجدول الذي يستدل به على حركات الكواكب .

ساباط ، معرب بلاس آباد ، ومنه المثل افرغ من حجام ساباط ، كما فى القاموس .

الساذج ، معرب ساده ، بمعنى البسيط غير المحكم ، كقولهم حجة ساذجة اى غير بالغة .

السبنجونة ، فروة من الثعالب ، فهي فى لونها معربة عن آسمان كون ، كما فى القاموس ، او آسمان جون ، كما فى اللسان ، والواقع انهما واحد ، فالكاف والجيم ، يراد بكل منهما G الغير المكسورة ومعناه فى اصل اللغة ، لون السماء ، او سماوي اللون .

السبيج ، معرب شبي ، وهي برد يشق فيلبس بلا كمين ولا جيب ، وفى حديث قيلة : انها حملت بنت اختها وعليها سبيج من صوف ، ويظهر انه كان اسود فنسب الى الليل او انه كان يلبس ليلا ، ويعرف بالبقيرة ، قال العجاج : كالحبشي التف او تسبجا .

الستوق ، معرب ستو ، قالوا درهم ستوق للرديء من الدراهيم .

السجل ، معرب سه + كل ، اى ثلاث ختوم ، حيث ان الختم كان بالطين،كل، بكسر الكاف الفارسية، وقيل انه حبشي وقيل غير ذلك ، السجيل ، معرب سنك + كل ، صخر وطين .

السخت ، قالوا غزل سخت اى صلب ، فهو قوي كما تدل عليه الكلمة فى الفارسية ، وقالوا سختيت اى شديد صلب ، فاصل هذا سخت كذلك .

السدر ، معرب سه + در ، ثلاثة ابواب ، وهي لعبة يقامر بها ، عن ابي رشدين : رايت ابا هريرة يلعب بالسدر .

السدير ، معرب سه + دلي ، ثلاث قباب مداخلة، وهو موضع معروف بالحيرة ، وتبهنا عليه لما فيه من الاشتقاق ، قال المتخل اليشكري :

ولقد شربت من المدا
مة بالصغير وبالكبير
فاذا انتشيت فانني
رب الخورنق والسدير

السرادق ، معرب سرادار ، او سردار ، وهو الدهليز او ما احاط بالبناء وما مد فوق صحن الدار او كل بيت من كرسف ، قال الفرزدق :

تمنيتهم حتى اذا ما لقيتهم
تركت لهم قبل الضراب السرادقا

السراب ، معرب سيرآب .

السربال ، معرب سربال ، وفى الاصل مركب من سر ، أصل ، وبال ، قامة ، فهو لباس طويل (فوق القامة)

السرج ، معرب سرك .

السرقين ، معرب سركين بالكاف الفارسية ، وهو الزبل .

السرداب ، مؤلف من سرد ، بارد + آب ، ماء وهو بناء تحت الارض للصيف ، فلعل التسمية نظر فيها لكون الماء يكون باردا في المكان السرسام ، مركب من سر ، راس ، وساد علة .

السرق ، معرب سره ، اي جيد وهو ، كما في أدب الكاتب الحرير ، قال الزقيان :

والبيض في ايمانهم تالق
وذبل فيها شبا مذلق
يطير فوق رؤسهن السرق

السرموجة ، معرب سرموزه ، وهو الخف .

القفتجة ، معرب سفته ، حوالة .

السفط ، معرب سبد ، بالباء الفارسية ، بمعنى القفة ، ويقال سبده ايضا .

سلفاة ، معرب سولا باى ، او سوله باى ، بالباء الفارسية ، واصل معناها اجل في الثقب ، لان لرجلها ثقبة من جسدها تدخل فيه .

السلجم ، معرب سلكم ، بالكاف الفارسية ، وهو اللفت .

السمرج ، معرب سه مره ، وهو استخراج الخراج (في ثلاث مرات) ، كما قيل في قول العجاج :

يوم خراج تخرج السمرجا

السكاف ، معرف من كفش خف ، فحصل فيه تعريب قلب وابدال .

السنجة ، بمعنى الميزان ، معرب سنجه .

السودانق او الشوذانق وهو طائر او صقر ، مزب سادانه او سودانه .

الشاروق ، معرب جاروف ، ويقال له الصاروج وهو النورة ، اى حجر الكلس يخلط بالزرنيخ .

الشاهدانج ، والشهدانج ، معرب شامدانه ، وهو التنوم او حب القنب ، وسمى ايضا شاه دانق ، وهو واحد لقاعدة ابدال الهاء ج اق .

الشاهترج ، معرب شاه تره .

الشبارق ، معرب يشباره ، بالباءين الفارسيتين ، وهو كعك يصنع من الدقيق والعسل والزيت او الزبد .

الشص ، معرب شست .

الشوال ، معرب جوال ، بالجيم الفارسية .

الشوذر ، معرب جاذر ، بالجيم الفارسية ، وهو الملحفة ، قال الراجز :

عجيز لطعاء دردبيس
اتتك في شوذرها تميس
احسن منها منظر ابليس

ويطاق على كل ستر ، كما يطاق على الخيمة .

الشيذنوق ، هو الشوذنيق او الشوذانق السالف الذكر ، بمعنى الشاهين .

الصاروج ، والشاروق ، معرب سارو .

الصرد ، معرب سرد ، وهو البرد ، ويقال له الصرم

(ابو) صفرة ، قالوا ان والد المهلب كان فارسيا من اهل خارك ، فقطع الى عمان ، وكان يقال له بسخره ، فعرب بأبي صفرة ، كذا ذكر في معجم البلدان ، نقلا عن ابي عبيدة ، زاد فقال ، وكان بها حائكا ، ثم قدم البصرة فكان بها سائسا لعثمان بن ابي العاص الثقفي ، فلما هاجرت الازد الى البصرة كان معهم في الحروب فوجدوه نجدا في الحروب فاستلاطوه ، وكان ممن استلاطت العرب كثير ، قال الفرزدق :

وكائن لابن صفرة من نسيب
ترى بلبانه اثر الزيار
بخارك لم يقد فرسا ولكن
يقود السفن بالمرس المغار
صراريون ينضح في لحاهم
نفى الماء من خشب وقار
ولو رد ابن صفرة حيث ضمت
عليه الفاق ارض ابي صفار

وقال الراجز في المهلب : كرنبوا ودنلبا وحيث شئتم فاذهبوا قد أمر المهلب ،

ولهذا فيكون نسبة المهلب الى اليمن او الى عرب قحطان ، ومنهم الازد ، بالولاء حيث استلاطوه ، اى الحقوه بهم ، فكان لذريته شأن عظيم في المشرق والمغرب قلما وجدناه لغيرهم من القواد والولاة العظام ، وقد علل المرحوم استاذنا احمد امين اقدام المبرد على تاليف كتابه العظيم (الكامل) بأن هذا اليمني اراد ان يشيد بقومه اليمن حيث كان منهم المهلب كاسر الخوارج وبذلك اصبح المولى ، يلتمس فيه أصحاب الولاء مفخرتهم القومية ورفع شأنهم أمام منافسيهم من المضرية .

الملك ، معرب جك ، بالجيم الفارسية ، وهو الذي يكتب للعهدة .

الصلجة ، والصولجان ، هي العصا المعطوف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب ، جوكان بالجيم الفارسية .

الصنج ، ذو الاوتار مما اختصت به العجم ، معرب جنك ، بالجيم والكاف الفارسيتين ، قال :

قل لسوار اذا ما جئته وابن علاثه
زاد في الصنج عبيد الله اوتارا ثلاثه

الصندل ، معرب جندال ، بالجيم الفارسية .

الصهارج والصهريج ، اخذا من سارو ، لانه يطلى بـه . قال هميان :

فصبحت جابية صهارجا
تخاله جلد السماء خارجا

الصيوان ، هو في اصله مركب من سايه ، ظل ، وبان .

الطابق ، معرب تابه ، بمعنى مقلاة .

الطارم ، معرب تارم .

طازجة ، معرب تازة ، بمعنى الطرية والتقية الخالصة

الطاق ، بمعنى قبو وقبة وقوس وقنطرة ، معرب تاق ، ومنه طاقچة المعربة بالطاقة اى النافذة .

الطالسان ، معرب تالسان ، وهو ثيب يلبس على الكتف ، او كساء اخضر مدور لا اسفل له ، لحمته من صوف .

الطرة لكتاب ، معرب طفرة ، الطبرزن ، معرب تبرزد ، وهو نعت لسكر ، كانه نحت من نواحيه بفاس، تبر ، ومن التمر كان نخلته ضربت بفاس .

الطرز بالتحريك النبت الصيفي ، معرب ترز .

الطراز ، معرب ترا ، من ترازيدن ــ تراز ، قال حسان :

بيض الوجوه كريمة احسابهم
شم الانوف من الطراز الاول

الطرخان ، معرب ترخان ، وهو زعيم القوم المعفى من الضرائب .

الطست ، معرب تشت وهو اناء من نحاس ، ويقال له الطشت ، فيكون اقرب الى أصله .

الطسوج ، معرب تسو ، كما فى معجم اختري كبير .

الطغراء ، والطرة ، معرب طغره .

الطنبور ، معرب دنب بره ، شبهت الآلة بالية الحمل لشكلها ، والطنبار لغة فيه .

الطيلسان ، هو الطالسان السالف الذكر ، انشد ثعلب :

كلهم مبتكر لشانه
كاعم لحيته بطيلسانه
وآخر يزف في اعوانه
مثل زفيف الهيق في جفانه
فان تلقاك بقيروانه
او خفت بعض الجور من سلطانه
فاسجد لقرد السوء في زمانه

العراق ، معرب ايران شهر ، كما قال الاصمعي وغيره .

العرعر، وهو شجر السرو، معرب كما في القاموس

العسكر ، معرب لشكر .

العنبر ، معرب انبر .

الغلط ، معرب غلت ، من غلتيدن ــ غلت ، وهو التدحرج ، ويستعمله العرب في التدحرج المعنوي ، ولا وجود له في النصوص القديمة العربية .

الفاداش ، معرب باداش ، بالباء الفارسية ،بمعنى الاصحاب ، قال عدى بن زيد :

وغصن على الحيقار وسط جنوده
وبيتن في فاداشه رب مارد

الفالونج ، معرب بالوده ، بالباء الفارسية ، نوع من الحلواء ، وكذا الفالوذق .

الفدان ، معرب فدان .

الفرانق ، والبرانق ، حيوان يصيح بين يدي الاسد ، كانه ينذر ، وهو معروف بروانه بالباء الفارسية واصله هندي .

الفرجون ، معرب فرجون .

الفرزان والفرزلين ، وهو فى الشطرنج ما يلي البياذقة .

الفرسخ ، معرب فرسنك ، بالكاف الفارسية ، وهو مسافة من الارض معلومة باميالها ، وحدد بمسير ساعة على الخيل .

الفرمان ، معرب فرمان .

الفرند ، معرب برند ، بالباء الفارسية ، وهو جوهر السيف ووشيه، أو ماض قاطع ، كما في القاموس من بريدية .

فرهادجرد ، معرب فرهادكرد ، كما في القاموس

الفسفسة ، معرب اسبست ، واصل الباء والفاء فيهما الباء الفارسية ، وهي من رطب القت .

الفنج ، معرب فنك ، وهي دابة يفترى جلدها .

الفنجانة ، معرب بنكان ، بالكاف الفارسي والباء كذلك او بالكاف العربية .

الفنزج ، والفنزجة ، معرب فنجكان ، بالكاف الفارسية ، وهي لعبة ، وقيل هي بنجكان كما في ادب الكاتب ، بالباء الفارسية ، او انها بنجه كذلك .

قال العجاج :

بربض الارطى وحقف اعوجا
عكف النبيط يلعبون الفنزجا

الفنك ، جنس من الفراء معروف ، كما قال الجواليقي ، وقد تقدم انه حيوان يلبس فراؤه ،

قال الشاعر :

كأنما لبست او البست فنكا
فقلصت من حواشيه عن السوق

الفولاذ ، معرب بولاذ بالباء الفارسية ، وهو مصاص الحديد المنقى ، ويقال له الفالوذ .

الفول ، قيل ان اصل نباته بلاد فارس ، وقيل افريقية ، والغالب فيه تعريبه عن الفارسية .

الفوة ، معرب بويه ومنه الثوب المفوه ، المصبوغ بها ، كما في اخترى كبير .

الفهرسة ، معرب فهرست ، بمعنى جدول مواد الكتاب ودليل ما يتضمنه .

الفيج ، معرب بهك ، بالباء الفارسية ، وهو رسول السلطان على رجليه .

الفيرزان ، معرب بيروزه ، بالباء الفارسية ، وهو من الاحجار الكريمة ، كما في معجم « اخترى » التركي وغيره .

القرطق ، معرب كرته ، وهو شبيه بالقباء ، دعا ابو الفرات الحسن ، فلما وضع الطعام جاء الفلام وعليه قرطق أبيض فقال اخذت زى العجم ، ذكر هذا الجواليقي في معربه .

قبان ، معرب كبان ، وهو القسطاس الذي يوزن به ، أو هو ميزان للاحمال الثقيلة خاصة .

القبج ، وهو الحجل ، معرب كبك .

القردمانية ، سلاح كان يدخر ، معرب كردماند ، قال لبيد :

فخمة دفراء توتي العرى
قردمانيا وتركا كالبصل

القسي ، معرب قاش او قاشي .

القصعة ، معرب كاسه .

القفدان ، معرب كفدان ، كف ، كحل ، دان ، تدل على الظرفية ، وهي خريطة العطار ، قال الراجز :

في جونة كقفدان العطار

القفش ، معرب كفج او كفش ، وهو الخف المقطوع الذي لم يحكم عمله ، يروى أن عيسى لم يخلف غير قفشين ومخذفة .

القفشليل ، معرب كفجلاز ، وهو المعرقة ، كما في ادب الكاتب .

القفل ، معرب كوفل .

القمقم ، وهو المنضحة ، معرب كم كم .

القمنجر ، وهو القواس ، معرب كمانكر ، بالكاف الفارسية ، كمان ، قوس ، كر ، وصف للفاعل ، كما هي في خون كر ، قال الراجز :

وقد اقلتنا المطايا الضمر
مثل القسي عاجها القمنجر

القرارة ، معرب كاماره ، وهي الخشبة يعلق عليها القصاب اللحم .

القنب ، معرب كنب ، واصل نباته بلاد الفرس او الهند .

القنقن ، والقناقن ، المهندس الذي يعرف الماء تحت الارض ، مشتق من الفارسية ، كن كن ، اى احفر احفر .

القند ، معرب كند وهو قصب السكر ، وقد اشتق منه ، فقال الشاعر :

يا حبذا الكعك بلحم مثرود
وخشكنان بسويق مقنود

القندفير ، معرب كنده بير ، بالباء الفارسية ، وصفا للعجوز والشيخ ، وهو القندفيل ، معرب كنده بيل كذلك تشبيها بالفيل ، وهو وصف ايضا للجمل الضخم الراس ، وحكي عن سيبويه ، قندويل .

قهرمان ، معرب قرمان ، وهو مرادف لبهلوان ، في اصله ، وكلاهما بمعنى بطل (بالباء الفارسية في بهلوان) .

القهز ، معرب كهزانه ، وهي ثياب بيض يخلطها حرير ، وقيل هي القز بعينه ، قال ذو الرمة :

من الزرق او صقع كان رؤوسها
من القهز والقوهي بيض المقانع

القهندز ، معرب كهن دز ، وهو القلعة القديمة ، وقيل انه معرب كوه انداز ، لانه لا يوجد في كلامهم دال ثم زاى بلا فاصلة .

القوش ، بمعنى الصغير ، معرب كوجك قال رؤبه :

في جسم شخت المنكبين قوش

القيروان ، معرب كروان ، بالواو الفارسية قال امرؤ القيس :

وغارة ذات قيروان
كان اسرابها الرعال

الكاغد ، معرب كاغد ، بمعنى الورق والصفحة .

الكدية بمعنى التسول ، مشتقة من كدا ، بالكاف الفارسية ، وهو المتسول .

الكرباس من الثياب ، معرب كرباس ، وهو من القطن الابيض .

الكربج والكربق ، للحانوت ، معرب كربه ، قال الشاعر :

لا غرث ما دام في السوق كربج
وما دام في رجل لحيدان اصبع

الكرج ، لعبة يلعب بها ، معرب كره ، قال جرير :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة
عليه وشاحا كرج وجلاجله

الكرد ، وهو العنق ، معرب كردن ، بالكاف الفارسية ، قال الفرزدق :

وكنا اذا القيسي نب عتوده
ضربناه دون الانثيين على الكرد

قال ابن قتيبة الانثيان الاذنان .

الكرز البازي يقال للرجل الحاذق ، معرب كره ، قال الراجز :

لما راتني راضيا بالاهماد
لا اتنحى قاعدا في القعاد
كالكرز المربوط بين الاوتاد

الكسب والكسبج ، معرب كشب او كسبه ، بالباء الفارسية ، وهو عصارة الدهن .

الكشمش ، معرب قشمش ، وهو ضرب من العنب الصغير لا عجم له ، قال ابو الغطمس الحنفي :

كان الثآليل في وجهها
اذا سفرت بدد الكشمش

الكعك ، معرب كاك .

الكميت ، معرب كمخت ، وهو في اصله مختلط ، حيث فيه السواد والحمرة .

الكنز ، معرب كنج ، بالكاف الفارسية او كنز بالزاي الفارسية ايضا .

الكهرباء ، مركب من كاه بالكاف الفارسية ، تبن وربا ، جذب وخطف ، مادة اصلية من ربودن ــ رباى واطلاق الحديث ملحوظ فيه هذا ، حيث ان المراد به خواص الاجسام التي اذا حكت جذبت الاجسام الخفيفة وبعثت الضوء مثلا .

لكوتي ، وهو القصير ، معرب كوته او كوتاه .

الكوخ ، معرب كوخ .

الكوز ، معرب كوزه .

الكوس ، وهو الطبل ، معرب كوست او كوج ، بالجيم الفارسية ، كما في اخترى كبير .

الكوسج والكوسق ، وهو النقص بالاسنان ، معرب كوسه .

الكيلجة ، والكيلكة والكيلقة والقيلقة ، معرب كيلة

اللازورد ، معرب لاجورد او لازورد ، بالزاي الفارسية ، وهو الحجر الكريم الازرق اللون .

اللجام ، معرب لكام ، بالكاف الفارسية .

اللعل ، معرب لال ، وهو الحجر الكريم الاحمر .

اللك ، وهو الصمغ الاحمر المعروف ، معرب لك .

اللوزينج ، معرب لوزينه ، وهو نوع من الحلواء شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز .

الليمون ، معرب ليمو ، واصله هندي .

الماخور ، معرب ماي‌خور ، اي مشرب الخمر ، كناية عن دوم الدعارة .

المارستان ، معرب فيمار ستان ، بيمار ، المريض وهو فى اصله مركب من ، بى ، بدون ، ومار × عقل ، فهو أحمق .

المالج ، معرب ماله ، بمعنى الميسعة والمملط .

المهرقان ، معرب ماي‌رويان ، الوجوه السمكية ، او ماه رويان ، الوجوه القمرية ، وهو اوجه ، اسم بلد (الجميلات) ؟

المج ، حب كالعدس الا انه اشد استدارة منه ، معرب ماش ، ويقال له المجاج ايضا .

المجوس ، معرب منج كوش ، بالكاف الفارسية ، وقيل غير ذلك .

المرتج ، معرب مرده ، ويقال له المرتك ، وفسح بانه المرد ارسلنك ، وهذا منه ما يعمل من الرصاص ومنه ما يعمل من الفضة ، ومنه ما لونه احمر ، وهو صقيل ، ويقال له الذهبي ، وهو دواء يجفف كما تجفف الادوية المعدنية والحجرية .

المردقوش والمرزجوش ، معرب مرده كوش او مرزن كوش ، بالكاف الفارسية ، معناه فى الاصل (اللغوي) ميت الاذن ، وفى الثاني اذن الفار ، وهذا اولى وهو معروف ، قال ابن مقبل :

يعلون بالمردقوش الورد ضاحية
على سعابيب ماء الضالة اللجن

المرزبان ، وهو الرئيس من الفرس ، معرب مرزبان ، وهو فى الاصل مركب من مرز ، تخم ، وبان ، الحافظ ، فهو حافظ التخوم .

المستقة ، فرو طويل الاكمام ، معرب مشته ، قال الشاعر :

اذا لبست مساتقها غني
فياويح المساتق ما لقينا

المسك ، معرب مشك ، بالكاف الفارسية .

الملاب ، معرب ملاب ، وهو كل عطر مائع ، وقد يطلق على الزعفران ، قال :

تطلى وهي سيئة المعرى
بصن الوبر تحسبه ملابا

المنجنيق ، معرب من جه ، بالجيم الفارسية ، نيك ، اى ما اجودني ، فى اصل اللغة ، وهو آلة ترمى بها الحجارة ، وقيل انه معرب ، منك جنك نيك ، بالكاف الفارسية فى جنك ، اى اسلوب حربي جيد ، وقيل هو معرب منجك نيك ، اى الاتفاع الجيد ، والاقرب الثاني المهر ، بمعنى الخاتم معرب مهر .

المهرجان ، وهو شهر فى الاعتدال الخريفي ، معرب ماهر كان ، بالكاف الفارسية .

المهرق ، معرب مهره ، وهي فى الاصل خرق كانت تصقل ويكتب فيها قبل ان تصنع القراطيس ، وقالوا ان اصل مهره خرزة ، وان المهرق معرب مهره كرده ، اي مصقول بالخرز ، قال الشاعر : كما تقادم عهد المهرق البالي .

المهرقان ، معرب ماهي رويان ، بمعنى الوجوه السمكية او ماه رويان اى الوجوه القمرية ، وهو اسم موضع .

المانيذ ، وهو البقية ، معرب مانيده ، وجمعت بالموانيذ ، قال الفرزدق :

خراج موانيذ عليهم كثيرة
تشد لها ايديهم بالعواتق
فمانيذ الخراج والجزية بقيتها

الموبذان ، بمعنى كاهن المجوس او الحكيم ، معرب

الموزج ، معرب موزه ، وهو الخف .

الموم ، معرب موم ، بمعنى البرسام السالف الذكر .

الميدان ، معرب ماى دان ، فى الاصل .

الميزاب ، معرب ماز آب او ميز آب ، وهو مسيل الماء ، فالكلمة فى اصلها مركبة من البول والماء او من المادة الاصلية ، من ميختن ميز ، واسم ، بمعنى الخلط والماء ، وهذا ما اراه فى اصل الكلمة ، والمستعمل فى مكة هو مصب ماء المطر .

النارجيل ، معرب ناكيل ، بالكاف الفارسية ، وهو الجوز الهندي

النافجة ، معرب نافه ، وهي سرة غزال المسك

الناى نرم ، من الملاهي ، معرب ناى نرم ، قال الاعشى :

والناى نرم وبربــط ذي بحــة
والصنج يبكي شجوه أن يوضعــا

النرجس ، معرب نركس بالكاف الفارسيــه .
النرجة ، وهي الخشبة التي تكرب بها الارض وتقلب للحرث ، والنورج وهي سكة الحرث ، ويقال لها النه حر

النمرق ، معرب نرم ، وهو الجيد ، او نرمه .

النشق ، وهو الخدم والحشم .

النشاز ، معرب ناساز ، اى غير لائق .

النشا ، معرب نشاسته ، وهو المادة البيضــاء المستخرجة من نقيع الارز .

النشادر ، معرب نوشادر .

النوروز ، معرب نوروز ، اى اليوم الجديد ، وهو اول يوم من السنة ، يراد به يوم فرح وتنزه ، ويقال له النيروز كذلك قال جرير :

عجبت لفخر التغلبــي وتغلــب
تؤدى جزى النيروز خضعا رقابها

النفير ، معرب نبور ، بالبــاء الفارسيــة ، وهــو النافور الذي ينفخ فيه ، ولعلــه هو المعرب ، بإبــدال الباء الفارسية فاقا بدل الفاء السابقة .

النيرج والنورج ، وبالزاى ، السريعة العاصفــة او حديدة يداس بها الطعام او الداهية المنكرة او جهاز المرأة ، معرب نيره .

النموذج ، معرب نموده ، من نمودن ــ نمــاى .

النيزق والنيزك ، وهو الرمح القصير ، معــرب نيزه ، قال الشاعر :

فيامن لقلــب مستهــام كأنــه
من الوجد شكته صدور النيازك

النيل ، معرب نيل ، ازرق .

النيلوفر ، معرب نيلوبر ، بالباء الفارسية .
النيم ، وهو الفرو القصير الى الصدر ، معــرب نيم ، وهو في اصله النصف اى للفرو ، قال الشاعر :

ليئس الفحل ليلــة اشعرتــه
عبــاءتهـــا مرقعــة بنيـــم

ويقال له نيمه ، بهاء التخصيص في الفارسية .

الهاون ، معرب هاون ، بفتح الواو .

الهميان ، معرب هميان ، وهو الكيس الذي تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

الهنداز ، معرب ندازه .

الهندام ، معرب اندام .

الون ، والونج ، معرب ونه ، وهو الصنــج الذي يضرب بالاصابع على أوتاره ، قال الاعشى :

بالجلســان وطيــب اردانــه
بالون يضــرب لي يكر الاصبعــا

اليارج ، وهو من حلى اليدين ، واليارق كذلك ، معرب ياره ، وهو السوار .

الياسمين والياسمون ، معرب ياسمين بسكــون السيـــن .

اليرندج ،الارندج ، معرب رنده ، وهو جلد أسود

اليلمق ، وهو القباء ، معرب يلمه ، قال ذو الرمة:

كأنــه متقبــي يلمق عجــزب

هذه امثلة من معربات الفارسية ، وقــد تركنــا العشرات منها ، لاننا لم نعثر على اصولهــا ،وان كنــا نحس من اجراسها بانها فارسية ونص من قبلنــا على كونها كذلك ، او لان اصولها قد ذكرت لنا ولكننا لــم نطمئن الى اشتقاقها من الفارسية ، او لكونها تنافس بغيرها من اللغات ، التي لا نحسنها مثل السنسكريتية واليونانية والفنيقية ، وغيرها من اللغات القديمة بمــا فيها المصرية والحبشية والبربرية ، وان كان لا يــزال بعضها يعيش معنا ، مثل «القيطون» ، فقد اختلف فيه، أفارسي أم مصري أم بربري ، ومع هذا فلا نبت فيــه بكلمة نعتقدها ، والاعتقاد هذا هو رائدنا فيما قلنا هنا، أو قلنا ونقوله ــ ان شاء الله ــ .

تطوان : محمد بن تاويت



1 ـ بدأ بعض كتاب المغرب ـ عفا الله عنهم ـ يصفون العهد العثماني بالبلاد المغربية بالاستعمار التركي كما يصف كتاب المشرق العربي هذا العهد .

وهذا الوصف الذى انتقلت عدواه الى اقلام بعض كتابنا المغاربة هو الذى دفعنا الى الاثبات فى هذه المجلة الزاهرة بالبراهين والادلة ان « الحكم » التركي بالبلاد العربية ليس استعمارا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

2 ـ قيام الدولة العثمانية :

وعندما قامت الدولة العثمانية يقول الكاتب المصري محمد جلال كشك ـ الذى كان شيوعيا وترك الحزب الشيوعي سنة 1951 بعد ان عرف اسراره وغوامضه ـ فى كتاب القيم « القومية والغزو الفكري » كان الخطر ماحقا هذه المرة .. الابادة الشاملة التى جربت مع العرب فى الاندلس ثم مع السكان الاصليين فى العالم الجديد والتى ظلت آثارها حتى القرن التاسع عشر فى محاولة ابادة الجزائريين او ازالة عروبتهم وابادة الافريقيين وفى التصريحات المحمومة من رواد القومية فى اوربا التى تتحدث عن طرد سكان شمالي افريقيا جنوبا الى ما وراء الصحراء .. واخيرا الابادة الاجرامية لسكان فلسطين .. ان الحضارة الغربية تقوم على الابادة الشاملة فهل كان العنصر العربي وسعه ان يواجه هذا الخطر وان يصده ويقهره ثم يواصل نموه الحضاري ؟ الجواب لم يصدر يوم سقوط الغوري فى مرج دابق .. بل يوم خلع صلاح الدين الايوبي الخليفة الفاطمي العاضد آخر خلفاء الفاطميين .. وهو على فراش الموت وتولى البطل الكردي حماية الاسلام .. مستعينا بمماليكه التركمان .. واستطاعت شجرة الدر ومماليكها ان تنقذ مصر من الاحتلال الفرنسي .. اذ انقذونا من احتلال لويس التاسع قبل احتلال الجزائر بستة قرون .. فانقذت اسلامنا وعروبتنا .. ثم قهر قطز المغول وانقذ الثقافة العربية من خطر مهول واخيرا استاصل الظاهر بيبرس الوجود الصليبي فى المشرق العربي .. ثم جاء الشراكسة .. حتى كان الغوري .. فليس العثمانيون هم الذين انتزعوا السلطة من العرب ولا هم الذين دفعوا بهم الى خليقة الاحداث .. فقد قال التاريخ كلمته قبل ظهور العثمانيين بعدة قرون .. كذلك ليس العثمانيون هم المسؤولين عن تخلف الحضارة الاسلامية .. فقد كانت شمس حضارتنا تميل الى المغيب قبل ظهورهم ، سنة الله فى الارض .. دار الزمن دورته .. كانت شمس حضارتنا توشك على المغيب فى رحلة نحو فجر جديد » .

3 ـ كيف كانت النظرة لابن عثمان ؟

« بعض الدراسات اللا دينية تزعم (1) : اننا قبلنا الحكم التركي بسبب العصبية الدينية واننا

(1) القومية والغزو الفكري لمحمد جلال كشك .

غورنا باسم الاسلام فتخلينا عن استقلالنا وقوميتنا.. وبالتالي يخرجون من ذلك بتحذير من تأشير العصبية الدينية الضارة .. مع انه حتى ولو صح هذا التفسير عما مضى فليس ثمة خطر مماثل الآن .

ولكن هل قامت الدولة العثمانية حقا بسبب العصبية الدينية ؟.. لقد بدا ظهور العثمانيين بحربهم ضد الروم وسجلوا انتصارات حاسمة على المسيحية المعادية فى اوربا .. فى وقت كان الضغط المسيحي فيه يشتد على الوجود الاسلامي فى غرب البحر الابيض .. ثم فقد هزت انتصارات ابن عثمان قلوب المسلمين بحصولها على الحصن المنيع الذى استعصى ثمانية قرون .. القسطنطينية !

وكان ابن عثمان ذكيا يفهم نفسية العالم الاسلامي الذى يواجهه .. كان يعمد الى غزوه فكريا قبل الغزو العسكري ومن هنا كان حرصه على ابلاغ السلطان «المفزوع» فى القاهرة بأنباء انتصاراته على الفرنجة .. اولا بأول واجبار هذا السلطان باسم الاخوة الاسلامية على دق «الكوسات ونصب الرايات» احتفالا بانتصارات خصمه ..

4 ـ دخول العرب فى الدولة العثمانية (2).

نعم كان دخول العرب فى الدولة العثمانية فى النصف الاول من القرن السادس عشر ضرورة تاريخية .. حتمت انتقال السلطة فى الوطن الاسلامي وخاصة فى آسيا العربية وشمال افريقيا الى اكبر قوة عسكرية من ابناء الاسلام لصد خطر الافناء الصليبي الذى صاحب نهضة الافرنج واكتشاف راس الرجاء الصالح وبداية عصر الكشف والنهب الاستعماري .

يقول الاستاذ الحصري (3) : ان استيلاء العثمانيين على البلاد العربية لم يكلفهم حروبا كثيرة لانه لم يستلزم محاربة سكان البلاد . انما استلزم الدول المسيطرة عليها فقط ..» .

ودخل امراء لبنان وشريف مكة تحت الحكم العثماني باختيارهم اما دخول الجزائر تحت هذا الحكم فقد تم بدون حرب بل بمحض ارادة حاكمها: « خير الدين » المعروف ببارباروس .

5 ـ اهل جاوة والهند والمغاربة واتراك ما بين النهرين والدولة العثمانية

ويرى الاستاذ محمد جميل بيهم (4) : « ان خلفاء السلطان سليم لو آثروا خطته الاسيوية الاسلامية على التوسع فى اوربا لكان مصيرهم غير هذا المصير ولاسيما لو قرنوا الفتح بالتجدد . لقد كانت الطريق الاسيوية معبدة لفتوحاتهم اكثر من الطريق الاوربية .. فكم حاول اهل جاوة اقناع آل عثمان من اجل استلام زمام امورهم، وكم اعرب اهل الهند عن رغباتهم من اجل الانضمام الى دولة الخلافة وكم تنادى المغاربة من مراكش والجزائر وتونس لتوثيق عرى الحكم بينهم وبين امير المؤمنين .. وكم تمنى اتراك ما بين النهرين الى حدود الصين لو تتاح لهم الفرصة كيما يتصلوا بابناء عمومتهم الذين كانوا يرفعون رؤوس قومهم » .

6 ـ ليس العثمانيون هم المسؤولين عن تاخر العرب :

يقول المرحوم احمد امين فى كتابه : « يوم الاسلام » ان العرب راوا ان الاتراك وحكمهم هو سبب تاخرهم وعدم نهوضهم فتخلوا عنهم فكان هذا الانشقاق كارثة على الجامعة الاسلامية كلها . ومن ذلك الحين لم تصف نفوس العرب ولا نفوس الاتراك الى اليوم وظلت هناك كتلتان : كتلة عربية وكتلة تركية على غير وئام وانسجام ... ولما زار الرحالة الفرنسي فولنيه مصر فى اواخر القرن الثامن عشر قال فى وصفها : « ان الجهل فيها عام **مثل سائر تركيا** وهو يتناول كل الطبقات . ويتجلى فى كل العوامل الادبية والطبيعية والفنية ». ويقول عن سوريا : « ان الجهل سائد فيها **كسائر تركيا** وليس فى العرب من الاتراك الان علماء فى الرياضيات او الفلك او الموسيقى » .

---

(2) المصدر السابق

(3) البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري

(4) فلسفة الحكم العثماني لمحمد جميل بيهم

7 ـ الترك يؤخرون سقوط العالم العربي في قبضة الاستعمار :

التركي ابن الاناضول (5) مسلم صادق يلتزم الدين عن ايمان عميق .. غذاه وجوده الدائم فى جبهة القتال ضد اعداء الاسلام طوال اربعة قرون تلقى فيها عن الامة الاسلامية ضربات متصلبة من دول اوربا مجتمعة من بريطانيا الى روسيا . ومن النمسا الى البرتغال .. ضربات اوربا الاستعمارية المتفوقة التى استخدمت ضده كل الاساليب من التآمر والنصيحة المسمومة الى تدبير الفتن وتكوين الاحزاب وشراء الذمم والغزو المسلح الصريح .. وقد استطاع الترك ان يصدوا الخطر عن العالم العربي واخروا احتلاله ما بين ثلاثة واربعة قرون (الجزائر 1830 . وليبيا 1911 . وتونس 1880 . والمشرق العربي 1916) ولهم بذلك فى ذمة الاسلام والمسلمين دين لا ينقض » .

8 ـ الحكم التركي ليس استعمارا :

الاستعمار كثيرا ما يبيد الشعوب فقد اباد الاستعمار الهنود الحمر فى امريكا واباد الاسبان والبرتغاليون المسلمين من الاندلس خلال ثماني سنوات بعد ان عاشت الاندلس مسلمة ثمانية قرون

« ويكفي الاتراك فخرا انهم بقوا على جميع الاقليات فى ظل تسامح ديني وجنسي نادر بينما حرمت الشعوب المسلمة فى روسيا القيصرية من كافة الحقوق بحيث استحال ان تنجو بداخلها اي حركة مقاومة جدية .. وما من باحث شريف يجرؤ على القول بان حكم روسيا القيصرية لشعوب مستعمرات كان افضل من حكم تركيا لدول البلقان ولكن التسامح الاسلامي والايمان بالمساواة هو الذى مكن القوميات البلقانية من النمو والتطور الى حد امتشاق السلاح والانفصال بمعونة الكنيسة الروسية وجيوش واموال القيصر .. بينما استطاع الاستبداد الروسي ان يقصم ظهر الولايات الاسلامية ويمتص منها كل حيوية وهي اعرق ثقافة واكثر تحضرا من شعوب البلقان ».

واذ كان الحكم التركي للبلقان وصل الى هذا التسامح فما بالك بالحكم التركي بالبلاد العربية التى يدين اهلها بالاسلام الذى هو دين الاتراك الحاكمين فيها . وهل يجرؤ باحث شريف على القول بان حكم المرابطين والموحدين والمرينيين البربر بالاندلس العربية استعمار لان المسلم لا يستعمر اخاه المسلم مهما طال حكمه وقد اخر هذا الحكم سقوط الاندلس فى قبضة الاسبان طيلة اربعة قرون .

9 ـ الاستعمار ظاهرة اوربية :

يقول الاستاذ غي دوبوشير فى كتابه : « تشريح جثة الاستعمار » ان اية دراسة لتاريخ الاستعمار ولو كانت سطحية تضطرنا الى التسليم بان اوربا على طول القرون هي القارة الوحيدة التى افرزت هذا الشكل من اشكال التوسع ».

10 ـ السلطان عبد الحميد خان يرفض اقامة وطن قومي لليهود :

« فى زمان هذا السلطان العثماني استأذن بالدخول عليه احد قادة التنظيم الصهيوني المدعو « قره صو » وقال له : ان الدولة بحاجة الى معونة ونحن على استعداد لمدكم بالاموال التى تحتاجون اليها بشرط ان تمنحوا اليهود حقا باقامة وطن قومي لهم فى فلسطين فما كان من عبد الحميد هذا الا ان قال: « من ادخل علي هذا الخنزير » وطرده من بلاده واصدر اوامره بمنع هجرة اليهود الى فلسطين . فما كان من هذا القائد الصهيوني الا ان سافر الى ايطاليا ومن هناك ابرق الى عبد الحميد .. ان هذا الرفض سيكلفك ملكك وفعلا كان ذلك »

11 ـ تعاون المسلمين والهندوس فى الهند فى حركة الخلافة :

لما تمت الهزيمة للاتراك فى سنة 1918 يقول الاستاذ ابو الحسين علي الحسني الندوي فى كتابه : « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الاقطار الاسلامية » واستولى الانجليز على الاستانة وتوزع الحلفاء ممتلكات الدولة العثمانية انفجر بركان الثورة فى الهند وتعاون المسلمون والهندوس فى حركة الخلافة بشكل عام وكان غاندي ـ الزعيم الهندي الشهير ـ فى جبهة القيادة مع زملائه محمد علي شوكت وابي الكلام آزاد واقترحوا سنة 1920 م مقاطعة البضائع الاجنبية .. وتلت هذه الحركة

(5) «الوعي الاسلامي» العدد السابع، السنة الاولى، نوبر 1965

التى كان طابعها دينيا الحركة الوطنية الهندية العامة التى ترمي الى تحرير البلاد وطرد الاستعمار واقامة الحكم الذاتي ..»

12 ـ العلاقات بين الدولة المغربية والدولة العثمانية :

تقول السيدة فاطمة التهامي الغربي فى مقال كتبته فى مجلة اللقاء العدد الحادي عشر مارس 1969: «ان مسعودة المزديكية بعد ان عاشت مدة من الزمن فى الجزائر بعد نفيها مع ولدها احمد المنصور ذهبت الى القسطنطينية واتصلت بالسلطان العثماني سليم وبالصدر الاعظم ووزراء البلاط واستطاعت بحنكتها ودهائها ان تجتلب التأييد لابنها ولاخيه وبفضلها استطاع عبد المالك واحمد المنصور ان يتبوآ كرسي الملك فى المغرب » .

ويقول الاستاذ عبد الله الجراري فى جريدة الانباء العدد الخاص بعيد العرش : « ان المولى محمد ابن عبد الله المعتصم بالله العلوي كانت له صداقة متينة مع الدولة التركية حتى انه كان يدعو يوم الجمعة لسلطانها مصطفى الثالث ولاخيه بعده عبد الحميد الاول ـ وكان دائما يقدم لهما الهدايا النفيسة والمال الكثير لحد صارت معه تركيا والمغرب كالدولة الواحدة فهو ذا نجدة ارسل سنة 1784 م اربعة ملايين ذهبا او ستة للاستانة تقوية لهم وخوفا عليهم من جيرانهم » .

وجاء فى جريدة العلم العدد 6860 تاريخ 4 ـ 3 ـ 1969 :

« ترجع العلاقات بين المغرب وتركيا الى عهود قديمة خاصة قبل العهد الاستعماري بالمغرب . ورغم احتفاظ المغرب باستقلاله عن الخلافة العثمانية فقد احتفظ البلدان باطيب العلاقات وتم بينهما تعاون مصدره الاخوة الاسلامية التى تجمعهما خصوصا فى الحروب التى خاضتها تركيا الاسلامية ضد الزحف القيصري الروسي ».

ونشرت مجلة دعوة الحق فى عددها الخاص بعيد العرش مارس 1969 نسخة من ظهير المولى محمد بن عبد الله فى شان تاييد العثمانيين فى حروبهم والدعاء لهم بالنصر على الدول الثلاث التى اعلنت الحرب عليهم ..

وبعد .. فان القول بأن العهد العثماني بالبلاد العربية استعمار تركي وان الاتراك هم سبب تأخر العرب وعدم نهوضهم قول مردود حيث اثبتنا هنا بالبراهين والادلة القاطعة على ان « الحكم » التركي فى هذه البلاد ليس بظاهرة استعمارية، لان الاستعمار ظاهرة اوربية محضة وان الترك وحكمهم ليس هو سبب تاخر العرب وعدم نهوضهم ، لان الترك انفسهم كانوا متاخرين فى العلوم والفنون ، اللهم الا فنون الحرب التى توفقوا بها على العرب وان بلاد الهند واندونيسيا والصين واليابان التى لم تخضع للحكم التركي قط كانت حتى مطلع القرن العشرين هي ايضا متاخرة ولا دخل للترك العثمانيين فى ذلك التاخر .

فعسى ان يكف بعض كتابنا المغاربة عن وصف الحكم العثماني بالبلاد العربية بالاستعمار التركي لما قدمنا هنا من براهين ساطعة وحجج دامغة بفساد القول بالاستعمار التركي

ولا شك انهم فاعلون ان شاء الله

الرباط ـ عبد القادر القادري

ديوان المجلة



هيكل المجد يا منار العلاء ... فى عصور مضت وعصر الفضاء
لم تزل موئل البطولة تلقى ... فى حماك المنيع خير مباء
يا رفيقي ! بلغت سفحا فاطرق ... فى خشوع ، وحيه بانحناء
واخلع النعل فالمكان جليل ... كم جثا المجد فوق هذا الفناء
ولكم طاطا الزمان به الرا ... س وابدى به اكيد الولاء
واتى يسمع الاوامر حكما ... مبرم العقد من صروف القضاء
فمضى يبلغ الانام صداها ... فيقولون ما لنا من نجاء
قد سمعنا وقد اطعنا خضوعا ... لقضاء من هيكل العلياء
يا رفيقي ارى المحاريب تبدو ... فاحترس والتزم شعار الحياء
واحذر اللغو فالجلال رهيب ... لا تفه هاهنا باي هراء
هذه رعشة المهابة تسري ... فى عروقي فاهتز منها ردائي
واقشعر الاهاب مني ، فمهلا ... ريثما استعيد بعض المضاء

* * *

يا رفيقي اصخ ، فهذا نشيد ... طرق الاذن ساحر الاصداء
يترامى للسمع من كل صوب ... رائع اللحن باهر الالقاء
كتراتيل راهبات حسان ... هاتفات بمستحر الدعاء
فاستمع واتئد فاني محس ... منه والله نشوة الصهباء
وشعورا سما بروحي بعيدا ... فى علاء من سالف وضاء

فتذكرت موكب المجد قدما … وصفوفا من قادة عظماء
يوم مروا بهيكل المجد سيلا … من كماة وعلية حكماء
هبطوا هذه الرحاب طويلا … فسقوا ارضها بعطر الاباء
فانتشق مسكهم فما زال يذكو … نشره بين هذه الارجاء
هذه في الصخور آثار خيل … طبعتها سنابك بجلاء
فلكم باكروا بها الصبح صبحا … ولكم راوحوه عند المساء
فاستمع في الفضاء منهم ضجيجا … من صليل الحديد والضوضاء
وصهيل الخيول بين الروابي … واذان الصلاة فوق السماء
كبروا للصلاة صوتا قويا … ثم طاروا على جناح الصفاء
هالة النور تحتويهم جميعا … فيغيبون في رفيف البهاء
غمستهم يد الجلالة في النو … ر واضفت عليه ستر الرضاء
فاذا سلموا على الارض عادوا … بنفوس كانفس الانبياء
من وراء الغيوب جاءوا بسلم … وامان ورحمة وضياء
هكذا شانهم مدى الدهر حتى … لكاني بهم بسفح الوراء
فهم الخالدون بين البرايا … كيف تطوي الشهيد كف الفناء ؟
عاود السمع من جديد ضجيج … يتعالى كانهم بازائي
وتراءت لهم فساطيط بيض … من حرير ورفرف لألاء
من نسيج الجنان حاكته حور … في قصور لها حسان وضاء
وتسامى بها ملائك نور … نحو اكناف القبة الزرقاء
وقناديلها يواقيت زرق … لم تعبها ضرورة الاطفاء
وعبير البخور يعبق منها … ذكي العرف طيلة الآناء
ارايت المباخر الزهر لاحت … وبها عنبر غريب الذكاء ؟
وبها العود من منابت في الخلـ … ـد ومسك من ترب ذاك الوطاء
اي سحر ارى ، واي نشيد … تسمع الاذن في رحاب العراء ؟
يا رفيقي استمع تراتيل ورد … تتعالى بهذه الانحاء
هلل الله اولا ثم ثنى … بتسابيح حمده والثناء
وصلاة على النبي وذكر … من كتاب مجود الاملاء
اترى القوم قد تحفوا بذكرى … مجدوها باقدس الاشياء ؟
ابذكرى ميلاد خير البرايا … رحبوا ، ام بليلة الاسراء ؟؟
ام بايامنا جميعا ؟ ومنها … خير فخر للامة الشماء

خلف السابقون منها برودا ... لبنيهم ، من اشرف الازياء
نسجوها بدار « لدريق » نصرا ... يوم فتح ويوم « ارك » اللقاء
وبـ « زلاقة » الجلالق يوما ... حين صدوا جحافل الاعداء
وعلى شاطيء « المخازن » خطوا ... آية الدهر في سجل السناء
محققوا حملة الفرنج عليهم ... فأروهم عواقب السفهاء
فكأني ارى جحافل قومي ... وارى الفاتحين تحت اللواء
واراهم بهيكل المجد جمعا ... رتلوا فيه آية الشهداء
ثم هبوا من هذه الارض للفتـ ... ـح ونشر الهدى ومحو الشقاء

* * *

يا رفيقي لقد اطلت ولكن ... بهرتني مفاخر الآباء
قد بلغنا ، فهذه عتبات ... فاجث مثلي بمدخل الاصفياء
وتمسح معي بخير بلاط ... وضع الخد في مكان الحذاء
وتراجع معي سريعا فاني ... خائف ان اصاب بالاغماء
انت في هيكل رهيب عظيم ... به ارواح صفوة الكبراء
فالثم الصخر ثم عجل نزولا ... نحو سفح يرف بالافياء

* * *

يا رفيقي رايت مجدا عظيما ... وسمعت العجيب بالاصغاء
فتمتع بمنظر جبلي ... راق حسنا ورق طيب هواء
قمم عممت بثلج ، واخرى ... بصخور بديعة الارواء
وبريق للثلج يسبي ويعشي ... قلب صب دنا ومقلة راء
فمن الشمس فوقه بسمات ... تتوالى ومنه دمع بكاء
سال من تلكم القلال نميرا ... بث في الارض يمن كل نماء
وجرت منه في السفوح سواق ... وقف الارز حولها في انطواء
قد تلوت عليه قيدا فأبدى ... ذلة المستغيث بالايماء
وتعالى للطير فيه نشيد ... ابدي الاصباح والامساء
جعل الارز والصنوبر دارا ... وله مسرح بها للغناء
ردد الغاب منه لحنا طروبا ... وصلاة بريئة من رياء
مجدت خالق الحياة بصدق ... مفعم بالحنين والايحاء
عرق الغاب في بعيد مداها ... وتغشته رهبة العقلاء

فترى الايك مطرقا فى خشوع ... باديا فى ضراعة الأحياء
ولاغصانه انتفاض ورجف ... كارتعاش يدب فى الاعضاء
هاهنا موسم الطبيعة فاشهد ... سحرها ، واتخذه خير عزاء
واملا العين من مباهج طود ... نافس الدهر فى مجال البقاء
يتحداه شامخا فى هجير ... من مصيف ، وزمهرير الشتاء
رابضا يرمق القرون بهزء ... ما شكا قط مسة الاعياء
لم تململه محنة او صروف ... تتوالى بهذه الغبراء
فكانى به سمير الليالي ... او حديث الاموات للاحياء
او دليل يدل ركبا يوافي ... بعد ركب يغيب خلف العماء
او عظيم يستعرض الدهر جيلا ... بعد جيل وما وهى من ثواء
تلتقي حوله المواكب اما ... بسلام بروق او هيجاء
لم يخالجه من تطاول عهد ... ملل او يصبه اي استياء
رمقته النجوم فى كل عصر ... هيكلا صامدا بغير انتهاء
يتراءى لها على الارض جرما ... لامع المرتقى بثلج وماء
فتساءلت عنه فى كل حين ... فلقد شاقهن بالاغراء

* * *

ايها الرابض المقيم الا تنـ ... ـصح جيلا بهمسة او نداء ؟
سار فى اثر من مضوا فوق شوك ... وورود وشدة ورخاء
تارة فى طريق يسر وطورا ... فوق صخر المفازة الكاداء
وستطويه بعد حين حياة ... طوت السابقين بعد اعتلاء
وستبقى على الجميع شهيدا ... وسجلا لاروع الانباء
فلكم فيك من بليغ عظات ... صارخات باللهجة الخرساء
هي صمت يفوق افصح نطق ... وبيان يضيق بالبلغاء
يا رفيق القرون يا هيكل المجـ ... ـد الرفيع العماد والابهاء
يا مهب الهداة من كل جيل ... ومنار الطريق للنبهاء
يا ممر المواكب الغر جيلا ... بعد جيل ومهبط السعداء
يا ربى انبتت طلائع شعب ... ورعيلا من قدوة صلحاء
وبناة بنوا حضارة عصر ... نعتت بالحضارة الغراء
ورعاة مجاهدين بحق ... من ملوك وقادة اتقياء
واسود الحروب فى كل جيل ... واباة الهوان اهل الفداء

صارعوا غاصب السيادة حتى ... طهروا ارضهم من الدخلاء
انت فى امة تراك شعارا ... وطنيا تجله بازدهاء
هي فى مغرب قصي ولكن ... انت فيها مشارق الاضواء
لم تزل تشغل الحياة وتعلي ... كل يوم من صرح هذا البناء
اقسمت ان تعيش فى كل يوم ... حرة فوق ارضها الفيحاء
ولها من تراث ماض مجيد ... ما يقوي عزائم الابناء
ولها حاضر يشده عزم ... بوثيق من همة ورجاء
انت ارويتها زلالا واروتـ ... ـك دماء فتم عقد الاخاء
نحتت من صخورك الصم حتى ... اشبهت منك قسوة الصفواء
تتحدى امجادها قسوة الدهـ ... ـر وتوهي مكايد الاعداء
حبرت موكب الزمان اعتزازا ... وتحلت بحلية الكرماء
دهرها بالعطور والنور يزهى ... من نبوغ وفطنة وارتقاء
موكب سارت العدالة فيه ... والمعالي بالعفة ووفاء
يهتدي بالكتاب نورا ويمشي ... فى ضياء الشريعة البيضاء
تتدلى عليه من دوحة الفـ ... ـن غصون زهت بكل رواء
ربط الشرق بالمغارب حتى ... جمل البحر واحة الصحراء
وطوى الدهر يسحب الذيل فخرا ... بمعال يصونها باحتفاء

* * *

هذه ارضنا عبير وتبر ... وهواء يفوق كل دواء
هي فى هذه البسيطة يمن ... وجنان بهيجة الاجواء
تغزل الشمس فى ثراها خيوطا ... من لجين يشاب بالسيراء
ويحوك الربيع فيها بساطا ... سندسيا يرش بالانداء
قمم كللت بثلج ، وسهل ... كله سنبل كريم العطاء
ومراع تفيض نسلا وضرعا ... وحقول تموج بالنعماء
وبحار مديدة من شمال ... وغروب ، وانهر من ثراء
وجبال بغابها تتغطى ... ومروج الخمائل الخضراء
ورمال كانها التبر لونا ... وحرير فى لينها والنقاء
بارك الله ارضنا وسقاها ... ووقاها من احنة الاشقياء
كل شبر بها عزيز ، فافدي ... وطني من غوائل الارزاء
وحمى الله ارضنا وحباها ... فوق ما تقتنيه من آلاء

هذه ارضنا وانت عليها ... حارس لم ينم وليس بناني
لم تزل فوقها عظيما مهيبا ... ورفيقا من اخلص الرفقاء
تلهم المجد عزة وفنونا ... وتغذي قرائح الشعراء
وتروي ترابنا بغرات ... قد جرى في عروقه كالشفاء
انت في ارضنا بشائر خير ... قد تفشت دخائل الاحشاء
انت فيها لسان مجد قديم ... قد تغنى باخلد الاسماء
انت فيها مرآة شعب عظيم ... عكست عيشه بكل اجتلاء
انت فيها امين سر ونجوى ... لم يخن قط واجب الامناء

* * *

ايها الشامخ الصمود تفضل ... فتقبل قلائد الاطراء
قد دعاك الانام بالاطلس الحـ ... ـر ولو انصفوا دعوك دعائي
فانا قلت هيكل المجد ابقي ... نشر ذكر المفاخر الزهراء
واذا ما رضيت كنت خديما ... سادنا في رحابك الفيحاء
لم اجد انهرا من العطر تهدى ... فرفعت القصيد في الاهداء
وبحار القريض اعلى واغلى ... من عطور تجف بعد الطلاء
والمعاني كنوز باقيات ... لا كنوز البيضاء والصفراء
ما انا غير شاعر يتغنى ... بعلاك العظيمة العصماء
لم يجد مثلها لشعب قريب ... او بعيد فصاغها كالحداء
علها تشحذ العزائم من ركـ ... ـب فيمضي على الصراط السواء

الرباط — المدني الحمراوي



متع الحياة كثيرة ... كل النفوس لها تميل
ويزينها مثوى الريا ... ض اذا الرفيق بها خليل
واذا بدت لك جولة ... فاقصد ليفران الجميل
يفران جنة مغربي ... وطن الامازيغ الاثيل
ادواحه وزهوره ... بأريجها تشفي العليل
وقبابه العلياء تنـ ... ـبيء زورها في كل جيل
ان الامازيغ انتقوا ... مصطاف ذا الجبل الجليل
ليكون افضل مخبر ... بخصال من ضاف النزيل
مذ ايدوا ادريس فى ... نشر الهدى فى ذا القبيل
حملوا اللواء ووطدوا ... الاسلام فى قطر نبيل
فالمغرب الاقصى بهم ... قد صار طالعة الرعيل

* * *

وجمال يفران احـ ... ـق بان يشد له الرحيل
ووديانه من فضة ... ذوب اللجين السلسبيل
متشابة بيضاء مثـ ... ـل جواهر العقد المثيل
تبدو وشاحا جائلا ... يمتد ما طال السبيل

فوق الربى طورا وطو را فى المروج لها مسيل
او فى التلال صفائحا تبدو فتجري للهجيل (1)

* * *

يا حبذا لو تجمع الـوديان فى سد حقيل
فتعود منه فوائد بالنور والخير الجزيل
يزهو به غرس الحمى ويزين منظره الجميل
بالشمس والجو البد يع يطيب للمرء المقيل
حيث الطيور بصوتها تشدو على الدوح الظليل
والثلج فوق رؤوسه تاج من الدر الصقيل
مصطافه لا يبتغى من زاره به من بديل
لكن اعمالا قضت بوداعه نحو الرحيل
فنجيب حتما مرتجيـن العود فى ابهى اصيل

الرباط ــ محمد الطنجي

---

(1) الهجيل المطمئن من الارض





أذان الفجر

للشاعر: محمد الوزير

هتف الليل يا بلال ونور … هاتها يا بلال « الله اكبر »

وارحنا بها ، فقد غلق الليـ … ـل علينا احلامه وتحجر

كلما مس صوتك الغض قلبي … اهرق النور في دموعي وفجر

وشفى غلة المتشوق الى اللـ … ـه فدوى اعماقه وتطهر

تنهل النور مقلتاه وتهـ … ـديه خطاه الى النداء المنور

ذوبته محبة النور في النور … وناداه الله ان يتحرر

يا نداء السماء ما اجوع الرو … ح وما انهل الدعاء واغزر

كل قلب قيثارة تتلقى … جدة النبض فيه او تتخير

وجفون النجوم تفضي عن اللـ … ـيل وتمضي في عرسها تتبختر

عالم الارض والسماء وما بينـ … ـهما رضوان من الله اكبر

ويفيء السنا الى ظلماتي … وتهيم المنى الوضاء وتسهر

غير اني اراه رؤيا ربيع … دائم ينبت الشعور الاخضر

يزحم النور والعبير شعوري … وتبر النجوم حقلي وتسهر

ويمور الحنين بين ضلوعي … وتذوب الاحزان فيها وتصهر

سبح القلب للذي عاش فيه … وجرى فوقه الندى وتحرر

يا الهي ويا اله الضحايا … يا رضا كل ما قضاه وقدر

اي حب مطهر لم يجمده … وريد .. ولم يقيده ابهر !

اي نعمى اسمى من الحب … والرحمة والعدل في ضمير مطهر

اوجز الله طاقة العمر فيه   وقضى ان ننسى وان نتذكر
وسرت فى جوانح الكون بشرى   وقطوف من السماء وكوثر
يا الهي نامت رقاب الضحايا   لمطايا خيالنا المستعمر
جاعت السوق واستكان الاذ   لاء لاوهام مذهب يتضور
آتهم منك رحمة وسلاما   وا اجر العبد .. والذى لا يؤجر
وامسح الدمع عن خدود اليتامى   وتباريح لاجيء فى المهجر
وارحم الناس من جهنم ناس   تتلظى فى جنبهم وتسجر
رب عبد فى السوق اغلى من السا   دة لكن لا يشترى ويسعر
كفر الاقوى بالسلام وبالانـ   ـصف واستغنى عنهما واستأثر
امة الفاتحين ذلت وهانت   واستكانت لمن طغى وتجبر
ويقولون : نحن اذناب اور   وبا ونعل لدى الحفاة ومعبر
ما بنا حاجة الى العيش لولا   اننا نغزو الاهل او نستعمر
والذى ينصب المشانق للشـ   ـمس يولي على الدجى ويؤمر
والذى يدعو الكفر للفجر يدعى   مدلجا .. فى ضلالة .. ويكفر
امة الفاتحين قومي فقد آن   لنا ان نحيا وان نتذكر
خطوة يا تقدميون للتاريخ   لا لنكفيء ولا نتعثر
لم لا نهتدي الى قوة الرو   ح وحق للاقوياء مقرر
افلت الفجر من يدينا !! اما مئذ   نة تعلو فى السماء ومنبر
كل شيء ـ غير الحقيقة ـ ماذو   ن له ان يشاع فيهم وينشر
ويرش السراب فى كل واد   ويهش الضياء عن كل مجهر
غير ان الضياء ما زال يخفي   كالأرقاء فى الضباب ويجهر
كالماجين .. ثروة من نجوم   وخيوط للنور لا تتعثر
آثروا الله بالنداء وبالحمد على   قيد صاغر .. يتكبر ...
ايضيعون والحياة اذان   ونداء الى الوجود الاكبر !؟
ايذلون والأذان فلاح   وانتصار على الظلام مظفر
ايموتون والمآذن والايمان   والنور جنة لا تقبر
والتحيات الطيبات من اللـ   ـه زكيات .. والسلام معطر
امة الفاتحين .. لا .. لا تموتي   آن ان يعلو الأذان ويظهر
لا تنامي .. لا تقعدي .. لا تسيري   كل شيء ـ غير الضياء ـ تغير
اكسحي الليل كالنهار وطيري   انت اوفى من الزمان واوفر

لا تذلي .. ان العلا كلها اصـ — ـفر من اصبع المصلى واقصر

لا تضلي اذا اتى الفجر يوما — يبهر الليل كالحسام ويقهر

أي ليل انتم اذا لم تنيروا — فجركم مرة بـ « الله اكبر »

كان للفاتحين فى المسجد الجا — مع نـاد ومعهد ومعسكر

واذان يطل من هامة الفجر — وشهب فى قمة الدهر تبذر

وزمان وامة ونجوم — يولد المجد عندها ويعمر

ومساكين علموا الدهر ان اللـ — ـه اقوى من الطغاة واقدر

ان هذا الانسان اغلى من — المال جميعا وءالة لا تقدر

ان صنع الحياة والموت فن — يقتنى منهما النفيس ويمهر

ان هذا القرآن اقوم دستـ — ـور واهدى من الشعار المزور

من خفايا المذاهب السود والو — هم الذى يشترى لنا ويؤجر

ويرى الله وحده هو اولى — فى العبادات بالجبين المعفر

انما تنحني الجباه لمليها — وتمتاح ضوءه وتحرر

ان من سخر الحقائق للحق — وآتاه كبره لم يسخر

ان حرية الضمير خلاص — لشعوب تساق سوقا وتجزر

قل لمن هاب ان يموت كريما — وراى ان يرى وان يتقهقر

منطق الثائر الحقيقي ان يعتـ — ـز بالحق دائما ويؤزر

عمر بن الخطاب لم يك يرجو — فى قوى الدنيا كلها ان ينصر

لم يدر فى سمائه غير معنى — لم يجد غير الحق ما يتذكر

هكذا قالها : السنا على — الحق !؟ فما بالنا اذن لا نجهر

ومضى يشهر اليقين وما — امضاه سيفا وثورة لا تقهر

عاش من سار فى الضباب هلالا — وسقى الليل بالضياء ونور

الجزائر ـ محمد الوزير



تأليف الاستاذ عبد المجيد بنجلون
تقديم وتعليق الاستاذ
عبد القادر الصحراوي

ما اظن انني بعد كتاب « الايام » للدكتور طه حسين ، قد تمتعت بكتاب آخر من نوعه ، كما تمتعت في الايام الاخيرة بقراءة الجزء الثاني من كتاب « في الطفولة » للاستاذ عبد المجيد بن جلون .

لقد قيل عن هذا الكتاب عند صدور الجزء الاول منه ، انه من احسن ما الف في جميع اللغات .

وهي كلمة ربما بدت لاول وهلة ، من الكلمات التي قد تصدر عن أصحابها في غير تحفظ ولا احتياط، حيث يجب التحفظ والاحتياط .

ولكنها ليست في الواقع كذلك ، فان كتاب « في الطفولة » سواء في جزئه الاول او في الجزء الثاني ، هو من احسن الكتب التي اتيح لنا ان نقراها في بابه ، مؤلفه في اللغة العربية ، او مترجمة اليها من لغات اخرى .

ولا نظن ان كاتبا يستطيع ان يحتفظ بذكريات طفولته حية نابضة ، او ان يصوغ منها قطعة فنية جميلة نادرة ، اكثر او احسن ، مما فعل طه حسين في كتاب « الايام » وعبد المجيد بن جلون في كتاب « في الطفولة »

* * *

لقد اتيح للاستاذ عبد المجيد بن جلون ان يعيش في طفولته تجربة فريدة من نوعها ، وهي ان يتنقل وهو طفل صغير ، بين بيئتين مختلفتين عن بعضهما اختلافا كبيرا جدا ، سواء في اللغة ، او في العادات والتقاليد ، او في نوعية الحضارة ومستواها ، او في الفكر والمزاج ، او في النظرة الى الاشياء وتقديرها والتجاوب معها .

لقد اتيح له وهو طفل صغير ان يتنقل بين مدينة مانشستير في انجلترا حيث كان والده يزاول التجارة، وبين مدينة فاس في المغرب ، بعد ان عادت العائلة اليها .

ويكفي ان نذكر ذلك ، لندرك مقدار المفارقة التي تصدى لها هذا الطفل الصغير او تصدت له ، ومدى التجربة التي كتب له — ولا نقول كتبت عليه — ان يها ، وان تترك اثرها في حياته لمدة طويلة ، ومن يدري فلعل آثار هذه التجربة لا تزال قائمة الى الآن في فن الاستاذ عبد المجيد بن جلون ، وفي اسلوبه في الكتابة ، وفي سعة افقه ، وفي قدرته على فهم الاشياء والتجاوب معها ، بنوع ، او بمقدار ، قلما اتيح لغيره من الناس .

وقد زاد في عمق هذه التجربة — ولعل ذلك كان من آثارها ولوازمها — ان الطفل الصغير عبد المجيد بن جلون ، عندما انتقل من مانشيستير الى فاس ، كان عليه ان يمر بعدة تجارب اخرى ، قبل ان يرسو على ما ارسى عليه ، فعرف الكتاب القرآني بشكله التقليدي الذي كان عليه اذ ذاك ، وعرف المدرسة الفرنسية ، وحط اخيرا رحله الصغير بجامعة القرويين ، ليستريح بها مدة لعلها لم تكن طويلة بالقدر الكافي ، ولكنها كانت خصبة باكثر من القدر الكافي ، قبل ان يحمل « عصية » تسياره مرة اخرى ، ويترك المغرب الى الديار المصرية ، وفاسا الى القاهرة ، حيث يعيش تجربة اخرى بدا من الآن يسجلها لتكون موضوع كتاب آخر ، هو كتاب « في الشباب » الذي ياتي بعد كتاب « في الطفولة »

هذه التجربة الفريدة من نوعها ، زاد في قيمتها، وجعلها تكون اعمق واوسع واخصب ، ان الطفل

الصغير الذي مرت به ، كان من اول نشأته ، يتمتع بذكاء خارق وقاد ، وعينين مفتحيتين لكل شاذة وفاذة ، وروح مرحة طروب ، وعناد موروث ساعده كثيرا على ان يفرض ارادته ، ويحقق طموحه ، ويطفو فوق الصعوبات والمشاكل والعراقل .

واذا كان مظهر الاستاذ عبد المجيد بن جلون ، لا يشي الى الآن ، او لا يشي الآن ، بروحه المرحة الطروب ، فانما ذلك بالنسبة للذين لم يعرفوه عن قرب ، وان كان يمكن لهم ان يلمسوه من خلال كتاباته التي تشع ذكاء خارقا ، ممزوجا بالابتسامة الساخرة في كثير من الاحيان .

اما العناد ، فأشهد شخصيا ، وانا اعرف الاستاذ عبد المجيد بنجلون منذ سنة 1952 معرفة صداقة واخوة ، انني كنت طيلة هذه المدة ، المس فيه صفة معينة ، لم اكن اعرف كيف اسميها ، الى ان قرات الجزء الثاني من كتاب في الطفولة ، فعرفت ان هذه الصفة التي كنت المسها فيه ولا اعرف كيف اسميها ، هي صفة العناد .

واذا كنت قد عجزت لمدة ستة عشر سنة ، عن تسمية هذه الصفة بالاسم الذى سماها به صاحبها في هذا الجزء من كتابه ، فذلك لانها صفة ليس لها اي اثر خارجي ، وانما هي شيء كامن في اعماق صاحبه ، لا يعلن عن نفسه الا عندما تدعو الحاجة الى ذلك ، ثم هو لا يعلن عن نفسه في صخب ولا ضجيج ولا توتر ولا انفعال، وانما يعلن عن نفسه في الكلمة القاطعة الحاسمة ، تلقى القاء سهلا بسيطا ، يدل على مدى اقتناع صاحبها بها ، بعد اعمال الفكر ، وتقليب الراي على جميع الوجوه .

وهكذا اجتمعت لعبد المجيد بنجلون في طفولته تلك التجربة النادرة ، وما اعقبها من تجارب كانت مكملة لها وناتجة عنها ، مع ما تميز به من صفات حاولنا ان ندل على البعض منها ، لكان من ذلك هذا الاثر الفني الجميل ، وهذا العمل الادبي البديع ، الذى هو كتاب « في الطفولة » وقد قرانا جزءه الاول من مدة ليست باليسيرة ، وقرانا جزءه الثاني في هذه الايام .

* * *

لقد قارنا في بداية هذا الكلام ، ذكر كتاب « في الطفولة » لعبد المجيد بن جلون ، بذكر كتاب « الايام » لطه حسين .

ولعل من الخير ان نبادر فنقول : انه لا يجمع بين هذين الكتابين ، الا ان كل واحد منهما يتحدث عن طفولة صاحبه ، والا ان كل واحد من الكاتبين قد استطاع ان يحيل طفولته الى قطعة فنية نادرة ، يقدمها للناس ، ليمتعهم بها ، وليصور لهم في سهولة ويسر ، وعن قصد او عن غير قصد ، قطعة من الزمن، لا تستطيع ان تفي بوصفها على هذا النحو ، مجلدات متعددد في التاريخ او في وصف المجتمعات .

اما فيما عدا ذلك فانهما يختلفان عن بعضهما اختلافا كبيرا جدا ، لاختلاف التجربة من جهة ، والاصالة التي تتوفر في التعبير عن كل من التجربتين، عند كل من الكاتبين ، من جهة اخرى .

ولعلنا نستطيع ان نحدد وجها مهما من وجوه الفرق بين الكتابين ، في ان طه حسين في كتاب « الايام » كان يعبر عن طفولة لم يعشها في الغالب الا من خلال نفسه ، من خلال عالمهالباطني ، فجاء كتابه « الايام » عبارة عن عملية مركزة من عمليات استبطان الذات .

اما عبد المجيد بن جلون، فقد عاش طفولة من نوع آخر بطبيعة الحال ، طفولة مليئة بالحركة والنشاط ، و « العفرتة » الى جانب غناها بالتجارب والمفارقات ، فجاء كتابه « في الطفولة » تعبيرا عن الحياة بمعناها الكامل الواسع ، الحياة كما هي في دنيا الناس المشتركة ، والحياة كما تتراءى من خلال نفس ذكية ، وقلب طموح ، وخيال مجنح .

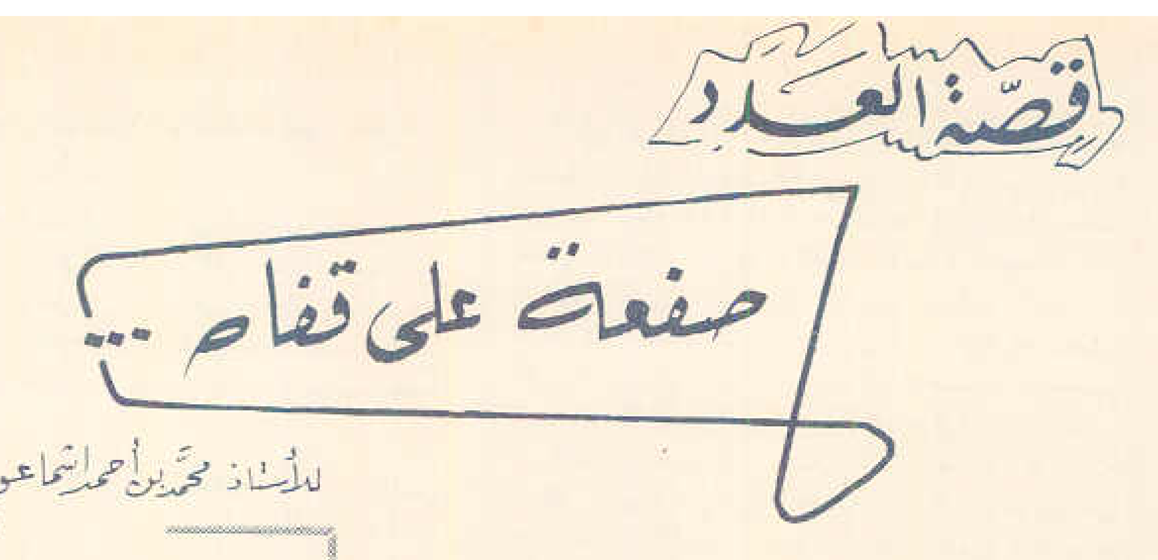
* * *

وبعد فهل قلنا شيئا عن كتاب « في الطفولة » ؟
ونجيب باننا لم نقل شيئا عن هذا الكتاب ، واننا لا ننوي ان نقول عنه شيئا ، وانما تحدثنا على هامشه، وذلك ما كنا نقصد اليه من البداية .

اما الحديث عن الكتاب فانما يتكفل به الكتاب نفسه، ولن يغني عن شم الزهرة ، ولا عن سماع القطعة الموسيقية ، وصفها او الحديث عنها .

فعلى من يريد ان يتمتع بهذه الزهرة ، او بهذه القطعة الموسيقية ان يعود اليها هي نفسها ، اي ان يعود الى كتاب « في الطفولة » يقراه بنفسه .

الرباط — عبد القادر الصحراوي



صفعة على قفاه ...

للأستاذ محمد بن أحمد اشماعو

« اقصوصة مستوحاة من تاريخ الاندلس الحافل بالمآثر والعبر . »

انعقد لسان (عيشون) وتجمدت اطرافه من الهول ، وعلته صفرة كصفرة الموتى ، حين بلغه خبر القاء القبض على ابيه الامير (سليمان بن يقظان) (1)، كما نزل الخبر على اخيه (مطروح) نزولا اشد تاثيرا وهولا ، الى درجة انه فقد وعيه وراح يذرع حجرة القصر كالمجنون مالئا جنباتها سبا وشتما . ولم يكن فى الوقت متسع للرد السريع على هذا الاعتداء الذى اوقعه الامبراطور الفرنسي بابيهما ، رغم ما بذل ابوهما من جهد وقهر نفس فى التودد اليه وارضاء رغباته .

ان المحالفات تأتي نتيجتها طيبة اذا كان هناك تكافؤ بين المتحالفين ، وشعور بالثقة والاحترام بين الطرفين ، اما (شرلمان) حفيد (شارل مارتيل) فهو يشعر بالتفوق على حليفه ، ويرى فيه وهو جالس بين يديه صورة من اولئك الاقوام الذين جاءوا فى دفعات قوية لمهاجمة فرنسا ومحاولة فتحها ، فكان ان صال عليهم الجد (شارل مارتيل) صولة تاريخية كبرى .. انه لو جاء (سليمان) وهو امير منطقة برشلونة دون منازع ، وله فيها جاه ودولة ، على اثر دعوة ملحة لعقد اتفاق بالتهادن وحسن المودة .. لكان من حقه الاحترام والتكريم ، ولكنه لم يجيء الا طالبا المساندة والمعاونة على قهر الامير الاموي الجديد (عبد الرحمن)، الفاتح الحازم الداهية .

ان (شرلمان) بدون شك يقدر البطولة ويعجب بالابطال ، ومن هؤلاء (عبد الرحمن) امير قرطبة ، لقد بلغه الكثير عنه ، وسيبقى مكنا له كل احترام فى اعماقه ، ما لم يتجاوز جبال (البرانس) للقدوم الى فرنسا ، انه ان فعل ، فسينازله ويصاوله ، ولا يترك له اية حيلة او وسيلة للانتصار عليه ، ما دام وراءه اشداء (الغال) والفرنج و (السكسون) ...

* * *

ترددت اصداء انتصارات (عبد الرحمن الاموي فى انحاء الاندلس ، وتسامع المتامرون والمتزعمون — وما اكثرهم فى ارض الاندلس ! — باخبار تلك الانتصارات فارتجفوا خوفا ، وامتلأت نفوسهم حقدا، واصبحوا مرارا وامسوا يتوقعون مسيرات (عبد الرحمن) اليهم ، ليدك قصورهم على رؤوسهم وليحصد الرقاب من حولهم كما تحصد المناجل السنابل ، وبذلك تروح ايام المجد والرئاسة والتعظيم التي ينعمون بها ، ولا تبقى منها سوى ذكريات يجترونها فى السجون والمنافي، وقد لا ينعمون باجترارها مطلقا، حتى تكون الارواح منهم قد ازهقت.

ولهذا فكر الامير (سليمان بن يقظان) صاحب برشلونة وهو يتداول فى الموضوع مع زميله الامير (الحسين بن يحي الانصاري) صاحب سرقسطة فكر فى ان يعززا دفاعهما عن مملكتيهما الصغيرتين من اطماع (عبد الرحمن الاموي) ، وذلك بعقد حلف مع الامبراطور الفرنسي الواسع الملك ، ولا عليهما من بعض التنازلات طلبها ، ولتكن جزية سنوية ، او حماية مباشرة ، او تبعية كاملة ، فذلك خير على كل حال من

---

(1) الاسماء الواقعة بين هلالين هي اسماء تاريخية .

تحكم عبد الرحمن وتسلطه ، واساليب قهره وغلبته ، وهو بغير ذلك لا يرضى بديلا .

بقي صاحب سرقسطة في امارته ، مفوضا لزميله (سليمان) في ان يعقد اي اتفاق باسمه مع (شرلمان) وعنده امل في الا يفعل هذا الامبراطور العظيم من بين الاباطرة الا شيئا عظيما ، خصوصا مع اميرين يعرضان عليه نفسيهما ، مقابل شروط يضعها هو بنفسه !

ومضى موكب الامير (سليمان) يقطع اراضي الشمال الوعرة ، الى ان اجتاز ممرا من الممرات التي توصل الاراضي الاسبانية بالاراضي الفرنسية ، وهناك نعم الجميع بجمال الربيع الفاتن ، وسريان الانهار الرائع ، وبقايا الثلج اللامع . وكان القوم هناك ــ رجالا ونساء فتيانا وفتيات ــ يذرعون المروج الخضر منشدين ، عازفين ، راقصين ، يتجلى في اثيابهم على الاخص حسن بديع اخاذ ، اذ القامات فارهة ، والقدود رشيقة ، والبشرات حليبية زاهرة ، والشعور الشقراء في اكثرها تنسدل من حول النحور لترقد في ارتخاء على الصدور ... وكلهن من شدة سرورهن وابتهاجهن بالحياة لا يكففن عن الابتسام ، ولا يتمنعن عن المداعبات ولا عن الاغراء ، مهما كان ذلكم المداعب وذلكم المغري ..

وطالت المسيرة بالموكب طولا باعثا على الملل الشديد ، انهم يجدون السير ما وسعهم الجد للحاق بـ (شرلمان) ، الذي كان متغيبا عن امبراطوريته للقيام بحملة عاتية على اراضي (السكسون) بالمانيا لاخضاع سكانها الجبابرة ، ثم ارغامهم على الدخول قهرا في الديانة المسيحية ، ابعادا لهم عن الوثنية الكافرة ، وعن حياة التوحش والجفاء البدوي .

وفي الارض المقهورة وجد الزائر الامير ومن معه الوفا من الفرسان ، يغشاهم اللباس الحديدي على هيئة شبكة رخوة من الفولاذ الذي لا تؤثر فيه الضربات القاطعة ، وذلك من اعلى الراس الى القدم ، باستثناء ما بين العيون وعند الرقاب التي تغطيها صفائح اقوى من الفولاذ زيادة في المحافظة على سلامة المحاربين البسلاء . انه من الممكن الا ينفع هذا ، ولا تنفع معه الدراقات الموسومة برسم الصليب ، ولا فنون المراوغة والمهاجمة اذا نزل القضاء الذي لا مفر منه .

ان كل من هو على ارض السكسون في حالة استنفار ، فالمهاجمون الافرنج اشفوا غليلهم ، ورووا سيوفهم دماء حارة قانية ، وامتعوا الابصار الجاحظة بمنظر الاشلاء الممزقة والامعاء المبعثرة والجماجم المنخورة التي لم تبق منها وحوش البراري المتسللة الا هياكل العظام ... والمغلوبون وان كانوا قد تحملوا الهزيمة بكل مرارتها فان متانة الاجساد عندهم وضخامة الاذرع والسواعد والاكف وقوة القبضات.. كل ذلك لم يضمحل ، ويمكن ان يستعمل في اية لحظة ولكن (شرلمان) الداهية سيعرف كيف يستغل هذه القوى الكامنة ، وسيعصرها عصرا لصالح الامبراطورية الفرنسية !

وفعلا خطر هذا بباله وهو يتدبر عروض الامير الاندلسي الذي جاء يحسن في نظره احتلال مناطق الشمال ، وحماية بعض الامارات الاسلامية ، مثل امارتي (برشلونة) و (سرقسطة) (1) دفعا لجحافل (عبد الرحمن) الذي قد يغري رجاله وفرسانه بتحقيق ما فشل فيه ابطال معركة (بواتيي) بلاط الشهداء ، التي لا تنسى على مرور الاعوام والقرون .

هاجت المخاوف ــ فعلا ــ في نفس شرلمان ، وايد زائره المتودد وهو ينصحه بما يقول به المثل العربي (الوقاية خير من العلاج) .. وانصت ايضا الى همس من يقول له : لا خوف عليك من هرون الرشيد خليفة الاسلام العظيم وحليفك الكبير ، فهو متشوق اكثر منك الى محق هذا الاموي الذي افلت من الهلاك، لتقوم قيامته ويعظم امره بالغرب ، وليبتدع لاول مرة في تاريخ الاسلام خلافة اخرى بجانب دولة الخلافة الكبرى بالشرق .. فهيا الى ارض الاندلس الشمالية للحد من اطماع ذلك الامير ، وليتحمل معك الاميران الحليفان حظهما في المقاومة ضد الامويين وهما من بني ملتهم !

واقتنع الامبراطور شرلمان ، وبذلك انقلب الى مدافع متحمس عن مشروع مهاجمة اسبانيا المسلمة ، مقنعا بذلك اوساط القصر الامبراطوري ، ومجالس النبلاء ورجال الكنيسة الكاثوليكية ، وعلية قادة الجيوش .. ومن يستطيع ان يرد على الامبراطور (شرلمان) وجهة نظره ؟ لقد بادر النبلاء والوجهاء والاساقفة فاجرى الجنود للمشاركة في الحملة .

---

(1) رجحنا الرواية التي اخذ بها البحاثة الكبير الاستاذ عبد الله عنان

ومضوا بالوقهم المؤلفة يجتازون الاراضي القفر منها والخصب ، واحواض الانهار القنية ، وظلال الغابات الوارفة ... فلما قدموا على ارض جبال (البيرنيي) وجدوا القمم الشامخة تبدو متحدية عاتية ، ومن خلال امتدادها الطويل تفتحت عدة ممرات ، من بينها (ممر باب الشزري) الذى وجدوه موحشا رهيبا ليس فى جنباته ما يمتع ابدا ، فالصخور تجردت من التربة والنبات والشجيرات والاشجار ، بفعل ثلوج الشتاء التى تجثم عليها شهورا من السنة ، ثم تسيح عند اشتداد الحرارة ، كاسحة كل شيء، وتتركها بعد ذلك اشبه ماتكون بداية عجفاء جرباء ، لا متعة فيها للعيون ولا انشراح للنفوس . ثم تلك المنعرجات الشديدة الانعراج التى تثير فى النفوس احاسيس الهول والفزع المرير ، ياما فيها من مفاجآت رهيبة ، ينتظرها المسافر عند كل خطوة ، الى ان يقطع تلك المسافة .

تصدى للمهاجمين اول من تصدى لهم بارض اسبانيا الشمالية اقوام (البشكنس الباقاريين) ، لقد وقفوا فى صمود وشجاعة امام الفرنسيين ، محافظة على منطقتهم التى طالما استماتوا فى الدفاع عنها امام جحافل الغزاة من مختلف الاجناس .. ولكن ماذا فى مستطاعهم ان يفعلوا ، ولو كانوا اشداء ، امام الجموع العظيمة والجيوش الجرارة والاسلحة الفتاكة الوافرة .

وانتصر المهاجمون ومضوا يذرعون الاراضي الاسبانية عتوا وتجبرا ، يقضون على من يقاومهم ، ويقسمون ظهر من يعارضهم ، ويذلون من يوقعه الاسر تحت ايديهم ، حتى وصلت جموعهم الى ابواب سرقسطة ، ولهم اليقين بان ابوابها ستفتح فى وجوههم مسالمة، ويخرج الامير (الحسين بن يحي الانصاري) لملاقاتهم مستأمنا ، بناء على ما اتفق عليه مع الامير الآخر قبل الخروج من ارض فرنسا ، ان عليه ان يتقدم الى الامبراطور العظيم مسلما مسالما ، ومن حق الامبراطور ان يعامله كحليف ، او ان يأخذه كاسير ، وله ان يبعده هو وعياله الى ناحية من الانحاء ... هكذا صور الوهم للامبراطور وحاشيته ، الا ان الامير (الحسين) قام فى نفسه عند قدوم الجيوش النصرانية ريب عميق فى حسن نية الغزاة ، وصعب عليه وهو الامير السيد ان يصبح تابعا مسودا مقهورا، امام حاكم متعنت من سلالة حكام متعنتين ، خصوصا منهم ذلك الجد الذى قاوم الجيوش الاسلامية ببلاط الشهداء مقاومة عاتية ، وحتى الذين استسلموا او وقعوا فى الاسر لم يشعر ازاءهم باي شعور انساني . على هذا عزم الامير صاحب سرقسطة على ان يغلق الابواب ويحصن القلاع ، وان يستميت فى الدفاع ، واخذ بذلك العهود على نفسه ، واتباعه ، وكافة سكان سرقسطة . فاوضه زميله (سليمان) حليف الامبراطور والمتعلق بركابه ، وذكره بوعوده ، وزين له فضائل المسالمة والركون الى المصالحة والمهادنة ، فلم يجده ذلك شيئا امام صلابة الامير الحسين . وعندئذ قرر الامبراطور فى غضبة ملتهبة كالجمار ان يضرب على سرقسطة حصارا تاما قويا لا غفلة فيه ولا تساهل ، حصارا لا ينتهي الا بانتهاء امر (الحسين)! وتحمل المحاصرون ـ اميرا واتباعا وجماهيرا ـ هذا الحصار بكل اهواله ، وظهروا امام جحافل المهاجمين جنودا ابطالا صامدين مستعدين للموت فى سبيل البلاد عن آخرهم ، وهكذا وقع الامبراطور فى مأزق خطير امام فرنسانه ، وامام المرتزقة الذين جاء بهم ليريهم اولا وقبل كل شيء كيف هو فى ميادين الالتحام والعراك ، او فى ميادين المحاصرة وشد الخناق ، وهاهو يكاد يظهر ـ فى هذا الظرف ـ فاشلا حائرا ..

وفى جو مصطنع ، عامر بالخشونة ، امر باحضار (الامير سليمان) الذى اغراه بالمجيء الى هذه الديار ، واعدا اياه بتذليل كل الصعوبات ، ومن جملتها مسألة استسلام (الحسين) وخضوع سرقسطة دون مقاومة .. دعاه واخذ ينبهه الى كذبه ووعوده المخلوفة ، وبالغ فبدا يقرعه ويوبخه ، ولما لمس منه تواضعا وتلمس اعتذارات ، واستعدادا لتقديم اسارى ذوي مكانة وخطورة كرهائن .. لما لمس منه كل هذا ، ازداد عتوا ، وتمادى فى اهانته ، وختم المشهد بان امر باخذ الامير اسيرا ...

... انعقد لسان (عيشون) وتجمدت اطرافه من الهول ، وعلته صفرة كصفرة الموتى حين بلغه خبر القاء القبض على ابيه الامير (سليمان بن يقظان) ، كما نزل الخبر على اخيه (مطروح) نزولا اشد هولا وتاثيرا ، الى درجة انه فقد وعيه ، وراح يذرع حجرة القصر كالمجنون مالئا جنباتها سبا وشتما ...

وسنحت الفرصة للانتقام عندما عول الامبراطور على الرجوع الى ارض فرنسا ، اذ لا جدوى من البقاء حول اسوار سرقسطة وابراجها ، الصامدة فى عبوس وكآبة ، وشموخ ، كانها على ثقة من قوتها ومناعتها امام ضربات الاعداء مهما كانت متينة وضارية .

انسل الفارسان الشابان ومعهما لفيف كبير

العدد من الجنود الاشداء، واشتروا مشاركة عدد من المرتزقة ، كما تبعتهما قوة من الناقمين على الامبراطور من عرب وبربر ، ومن الاسبانيين سكان الشمال ، وساروا يسبقون الامبراطور بمسافات مقدرين انه سيرجع من حيث اتى ، وقصدوا من فورهم الممر الخطير عند (باب الشزري) وقبعوا هناك متربصين ، تعمر صدورهم نقمة كبيرة على الامبراطور العاتي ..

مرت طلائع موكب (شرلمان) اولا تتقدمها البنود الخفاقة ، ويسودها هرج الخيول والعربات ، وهمهمات الفرسان وصخبهم ، وصلصلات المهماز واللجم والسلاسل الحديدية ... وعندما توسط الجمع الكثيف الممر الخطير ، برزت آلاف الرؤوس بخوذاتها، وبرزت معها السيوف القاطعة والرماح الحادة والنبال الخارقة ، واخذ الجنود المباغتون يتساقطون تساقط الذباب المسمم ، ونسيت الايدي مقابض السيوف – من شدة المفاجأة – وفقد الرماة مهارتهم فى رمي النبال ، وتعسرت الحركات بسبب ضيق المجال وتربصات المنتقمين ، وعمق الاودية السحيق المرعب ، المفتحة كأفواه وحوش عظيمة !

وفى غمرة العراك الرهيب بادر (غيشون) الى محتشد المتقلين الذين جرهم الامبراطور فى ركابه ، واطلق سراح ابيه من السجن الخبيث ، وانغمر هو واخوه معه فى عناق ابوي مؤثر ، وانقلبوا لفورهم للاشراف على اسر كل عدو نجا من الموت ، وكان من بينهم نبلاء ووجهاء ، ذلك لان مؤخرة جيش الامبراطور كانت تشتمل على المؤونة والعتاد والاسلاب الثمينة التى غنمت من ارض المعركة ، وكل ذلك يتطلب قوة جبارة تسهر خلال الرحلات على هذه الامتعة القيمة، فيجب ان يكون على حراستها ضباط سامون متيقظون .. وهاهم كلهم يقعون فى الاسر ، ان لم يقعوا تحت طائلة السيوف الباترة .

وبلغ مقدمة الجيش ما وقع بالمؤخرة ، فانكفأت الجموع الى الخلف لترى ما الخبر ، فاذا الارض الوعرة الضيقة مكدسة بجثث القتلى واشلائهم ، واذا الزاد الذى يتبع الجنود ، والذي هو قوامها ، قد اخذ كله ، واذا الغنائم والاسلاب والاسارى قد اختفوا ، واذا الناجون قليلون جدا، راكنون الى ظل الصخور السوداء ، زائغة ابصارهم واجفة افئدتهم منعقدة السنتهم ، لن تنسى ذواكرهم تفاصيل الضربات المروعة ، حين كان صناديد بني قومهم يتساقطون امامهم كانهم ليسوا الا هياكل من الخشب مجوفة ، لا حول لهم ولا طول ، ان ذوي المواهب الادبية منهم سيخلدون هذه المشاهد المريعة بشكل يخفف من هولها، اذ ارباب الاقلام قادرون على ان يصوروا الباطل حقا والحق باطلا (1) » !

واذا كانت الهزائم تصيب الامة بشعور عميق من الالم فان الرؤساء فى تلك الامة لهم شعور اعمق الآلام ، وان كل ذلك يخفى على الناس ولا يرونه ، لكنهم يرونه اليوم بامهات أعينهم ، يرون الامبراطور العظيم (شرلمان) باكي العين ، مفجوع الفؤاد ، ضائع العقل . فباي وجه سيلقى بني قومه ! اي نصر سيدخل عليهم ؟ اين اسلابه واسرابه ؟ بل اين خيوله وعدده وقد ارجعت لتسير تحت اسماع وابصار المستقبلين سليمة وافرة كما ذهبت ، ان لم تكن نمت وتزايدت ؟ اين فرسانه النبلاء الشامخو الانوف ليتقدموا وهم يلعلعون باصواتهم الجهيرة منشدين فى انتشاء ، كلما اقبلوا على مدينة او قرية ، من حيث تنثر فوق رؤوسهم الورود والزهور ، وتبسط تحت شفاههم الظامئة الخدود الصقيلة المتوردة ..

لاشيء من ذلك ، لا شيء ... ان (شرلمان) يشعر باهانة المصفوع على قفاه ! ويتمشى فى الممر الملعون تمشي الراقص فى الاغلال ، وكلما رفع بصره فى تابع من الاتباع راى امارات الذل والانكسار ، فيتخيل – عندئذ – مواقف النصر عند جده (شارل) بطل (بواتيي) ، بينما هو الحفيد – اليوم – يقلب الصفحة ويكتب عليها سطور الهزيمة المنكرة ، ليقال غدا : حقا لقد انتقم الاحفاد للاجداد من الاحفاد !

الرباط – محمد بن احمد اشماعو

---

(1) فى هذه الواقعة الكبرى الف الشاعر (رولان) انشودته المشهورة .

بأي شيء يتعلق الأمر ؟

للكاتب الأمريكي ستيفن دانتجر
ترجمة الاستاذ : محمد زفزاف

بعد دقائق معدودات ارتفع صوت المحرك . ثم اخذت اضغطه لازيده قوة وعنفوانا . وما ان سرت فيه الحرارة حتى انطلقت كالسهم مجتازا المدينة ، لاصل في اقرب وقت ممكن الى الطريق الرئيسية ، حيث سيكون بامكاني ان ادير المحرك كما اشاء .. الليل ينزل في هذه الاماسي الصيفية متاخرا . فالشمس لا تغرب الا بعد الساعة التاسعة والنصف ، وفي هذا الوقت بالذات يمكن مشاهدة حمرة السماء مشوبة بلون ليموني .

فتحت جميع نوافذ السيارة لانني كنت مغرما بدفء النسيم الليلي . وكنت اتساءل الى اي مكان سوف اتجه . وفي الواقع ، فان هذا الامر لم تكن له اهمية ؛ خصوصا وانني كنت اشعر بقوة المحرك تدفعني الى اية وجهة اشاء ، في هذا الليل البهيم . كان هذا من غير شك تجربة للقوة التي امتلكها في عالم جد عادي وروتيني . كنت اشتغل خمسة ايام في الاسبوع ، كأي انسان تافه مثلي . ثم عندما يحين وقت الغداء ، كنت اجوب الشوارع وعلى وجهي علامات السأم التي يحملها جميع البشر ، لكني اصبح سيد نفسي مساء كل يوم جمعة ـ فاقود طنين من الحديد على الطريق الرمادية الرئيسية بالسرعة التي ارغب فيها ، واجد متعة كبيرة في قيادة هذه السيارة الثقيلة . وفي هذه الاثناء بالضبط ، كنت اعرف ما الذي يشعر به ربابنة الطائرات الكبار في الحرب . لذلك فان ما يهمني في هذا العالم الآن هو ان اسير بسرعة مائة كيلومتر في الساعة . ادرت زر الراديو ، لكنني سرعان ما عزفت عنه ، اذ لم تكن لدي رغبة للاستماع الى اي شيء ... لم تكن لدي رغبة الا في السرعة والتأكد من انني سامضي بعيدا . ولكن الى اين اتوجه الآن ؟ لا اعرف بالضبط . ضغطت المحرك ورفعت سرعة السيارة الى مائة وخمسين في الساعة . وتسلقت طريقا مستقيمة كما لو انها غير موجودة . ثم نزلت بسرعة كما لو اني اهوى الى قبر مظلم عميق . وكانت الريح اذ ذاك تصفر برعب من خلال الابواب ذات الشبابيك المفتوحة . اجتزت سيارة «سبور» صغيرة كانت تقودها فتاة متفردة . ثم جعلت اتزحلق بسيارتي امامها . وتساءلت فيما اذا كان بامكاني ان امازحها قليلا .. لكن لا .. كانت هناك مشاريع اخرى في راسي . ثم انها يمكن ان تتذكرني او ان تسجل رقم سيارتي فتخبر بذلك رجال البوليس . انها مغامرة لم اكن استطيع القيام بها .

بعد مسافة قليلة ـ وكنت قد تجاوزت المائة والستين في الساعة ـ بلغت حيوانا على الطريق ، اعتقد انه اذنب، فدسته قبل ان يعي ماذا حصل له . حاولت جهد الامكان ان اخفف من السرعة . وكنت اتلهى بمشاهدة اضواء المدينة التي تلوح عن يميني . وعندمادرت حول اول ملتقى للطرق دخلت المدينة . كانت فلوريدا تعج بالسكان صيفا . اما الفتيات فكن يرتدين قمصانا وسراويل جميلة ؛ بينما تملأ الشوارع سيارات مكشوفة . حقا ، لقد كان مساء يوم الجمعة شيئا رائعا . وفجأة تذكرت ـ عندما مررت بالحديقة العمومية ـ انني صدمت ذات يوم ،

فى هذا المكان بالذات ، رجلا عجوزا . وكانت المدينة ذاك المساء تعج بالناس والحركة ، كانت تغلي كما تغلي الدماء فى الشرايين . اما انا ، فقد كنت سيد نفسي، وكنت اتسلى بالعالم الخارجي من خلال نافذتي الامامية التى التصقت بها اجسام بعض الحشرات الميتة ، تجولت قليلا على سيارتي ، ولم اكن اعرف لي وجهة . وللتو فكرت فى ان امضي الى الحي الاسود ، حيث يمكنني ان ادوس زنجيا بلا مخاوف واستمر فى طريقي . وحتى لو تاكدوا من ان القاتل ابيض فان ذلك سيثير معركة رائعة فى ليلة كهذه ، شديدة الحرارة . اعتقد انى ساحاول ذلك فى الطريق التى تمر قرب الشاطىء حيث المكان دائما آهل بالسكان حتى بعد ان ينزل الظلام ، وعندما كنت اسلط ضوء الفنار على الناس لم تكن عيناي تقعان الا على جماعات، ولم يكن هناك شخص يسير وحده . وبالنسبة لي فانني لم اكن ارى الا اشياء ، او على الاصح ، اكياسا من الرمال . لم اكن ارى رجالا ولا نساء ولا اطفالا . مجرد اكياس فقط . وفجأة مرت بي جماعة من الشبان كانوا يركبون شاحنة صغيرة ، فعزمت على ان اتبعهم . ثم بعد دقائق تخليت عن عنادي لاطارد سيارة اسعاف كان نفيرها يملأ جوانب الظلام . وفكرت : لا بد ان هناك حادثة وقعت بالقرب من هذا المكان . ولم يخب ظني ، فقد اصطدم سائقان عند ملتقى الطرق . ثم جعلت اتأمل بقايا السيارتين من خلف زجاج نافذتي الامامية ، كانت هناك فتاة تصرخ ألما ، وهم يجرونها من وسط حطام السيارتين . ولم اتوقف طويلا بل اخذت طريقي من جديد ، اذ كانت بي رغبة ملحة لممارسة السرعة . كان المطر قد بدا يتساقط مما جعلني اقفل نوافذ السيارة ، وبعد برهة وجيزة ازداد تساقط المطر على الطريق فسررت لذلك لانني احب السياقة تحت الامطار المتهاطلة . ذكرني ذلك بالسيارة الاولى التى لم امتلك مثلها بعد فى حياتي . كانت من صنع فرنسي ذات ثماني اسطوانات . وكان ابى قد اشتراها لى بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة . وكنا اذ ذاك نتمتع بثروة لا باس بها . وفى اليوم الاول الذى سقتها فيه كانت الامطار تتهاطل كما هو الشان الآن . غير ان السيارة انتزعت مني بعد الحادثة التى جرت لي على اثر وفاة والدي . ومع ذلك ، فلم انس الجولة الاولى التى قمت بها تحت وابل المطر . اما الآن فانني لا استعمل سوى سيارات من نوع امريكي .

ان هناك من يتذكر عددا من الحوادث التى جرت له فيقارن بينها . اما انا فقد كنت احتاط طيلة حياتي بما فيه الكفاية حتى لا يمكن ان اقع فى اية مخاطرة .

عندما هدا المطر قليلا رايت فجأة تحت ضوء الفنارات فتاتين بدتا كما لو وقع لهما عطب فى عجلة سيارتهما . كانتا ترتديان معطفين واقيين اسودين ، تجاوزتهما بسرعة . ولكن عند نهاية الطريق الرئيسية درت على اعقابي ، ولم يكن امامي الآن سوى بضع ثوان لابلغ الطريق التى مررت منها قبل لحظة . ثم انحرفت فى طريقى مرة اخرى ، وهكذا صعدت المنحدر واطفأت الفنارات . كان المطر اذ ذاك قد كف عن السقوط واخذت الفتاتان تستبدلان العجلتين . كنت اميز الفتاتين تحت ضوء فانوس صغير فى الوقت الذى لم يكن فيه باستطاعتهما ان ترياني ، كنت اسير بهدوء تام واقترب منهما بشكل لايجعلهما تنتبهان الي. ثم .. انطلقت بقوة كالسهم . عندها استطاعت احدى الفتاتين ان تنظر الي باندهاش ثم برعب وخوف . وما ان دهستهما حتى توقفت واضأت الفنارات . كان ذلك هو الموقف اللازم لجعل المحققين يعتقدون انه لم يكن فى الامكان احسن مما كان . ثم نزلت من السيارة ونظرت اليهما : كانت تلك هي المرة الاولى التى استطعت ان اصيب فيها شخصين دفعة واحدة . واخيرا وصل رجال البوليس . ولم تكن سيارة الاسعاف التى جاءت لتقلهما ضرورية آنذاك . قلت للشرطي بتأثر :

ـ يا الهي .. هذا شيء فظيع ! انني لم ارهما قط . لم تكونا تتوفران على ضوء . ثم انني لم استطع ان ارى شيئا لانهما كانتا تضعان معطفين واقيين اسودين . وعندما انتبهت للامر كان الوقت قد فات .

ـ كفى يا ابني .. فالخطأ ليس خطاك . ثم ان الامر يتعلق فوق كل شيء بالقدر وبشيء خارج عن طاقتك وعن طاقتي .

فادرت له ظهري ، واخفيت وجهي بيدي كي لا تبدو على ملامحي علامات الفرح والسرور اللذين استشعرتهما آنذاك . وبعد هذا النجاح المؤقت ، كان لزاما علي ان اظل هادئا للحظات . ثم .. ربما بعد شهور ، وفى ولاية ما ، تحت اسم آخر ، وعلى متن سيارة اخرى ، ساعاود الكرة ، حقا .. ان الحياة لا تستحق ان تعاش الا من اجل امور كهذه .

الدار البيضاء ــ محمد زفزاف

نشاط وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية خلال عام 1968

امتازت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية خلال سنة 1968 بنشاط موصول ، وعمل دائب في تحقيق المشاريع الهادفة التي رسمها لها سيد البلاد امير المومنين لتحقيق السعادة الراضية، والطمانينة والاستقرار لشعبه المخلص الوفي سواء في الميدان الروحي او المادي ...

وبالمقابلة والمقارنة بين ما انجزته الوزارة في السنوات الماضية ، وخصوصا سنة 1967، وهذه السنة ، فاننا سنلاحظ بان سنة 1968 كانت زاخرة بالاعمال المثمرة ، والنتائج الطيبة التي كانت محفوفة بالجد والدؤوب ، ومقرونة بالتوفيق والفلاح بفضل التوجيهات الرشيدة ، والراي السديد الثاقب الذي يوجه به صاحب الجلالة هذه الوزارة .

ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ما برحت تولي عنايتها للمجالات الحيوية التي خصصت لها ، والتي تنمو مع اطراد الحاجيات، واتساع المشاريع ، وتنوع مستلزمات النمو الذي تخلقه مستجدات الاحداث ، فهي ما فتئت تحافظ على قيام شعائر الاسلام في هذه البلاد ، وتمكين تعاليمه ومبادئه في نفوس المسلمين، وذلك بتوفير المؤسسات الاسلامية كالمساجد والمدارس والمعاهد التي تعتبر من الركائز الكبرى التي يقوم عليها المجتمع المغربي ، وتساعد على تعميم الفكرة الاسلامية وبلورتها ، ونشر مبادئها الصحيحة، واسولها العامة ، حفاظا على سلامة التربية ، وحماية العقيدة ، وبذر روح التقوى الخاشعة ، واليقين الصريح في نفوس المواطنين .

وتطبيقا للتعليمات السامية الرشيدة ، فالوزارة – كدابها – تزود مختلف المدن والقرى والمداشر بالمساجد وما تتطلبه من موظفين دينيين يقومون بأداء الشعائر الدينية ، والتوعية الخلقية والاجتماعية وتربية المواطنة الصالحة للفرد والجماعة سواء في المدن او القرى ...

ولما يوليه امير المومنين حفظه الله من عمل لتنمية الوعي الاسلامي ، والتوجيه الخلقي بمختلف انحاء المملكة ، وانارة الراي العام بما يحتاجه من توعية خلقية ودينية تمهد المجال للمواطن الصالح حياة هادئة مطمئنة ، يجد فيها ثلج اليقين، وحرارة الايمان ، فقد عقدت الوزارة عدة اجتماعات بمقرها لاعداد برنامج حافل بغية تنظيم حملة وعظ وارشاد سواء بمناسبة شهر رمضان المعظم ، او في الايام العادية الاخرى ، فقد ابلغ سيادة الوزير في هذه الاجتماعات مدى الاهتمام الاكيد الذي يوليه سيد البلاد للدروس الدينية التي تلقى في المساجد، والآمال التي يعلقها على توعية المواطنين ، وتعريفهم بمزايا دينهم الحنيف ، وبث الروح الاسلامية الحق ، ونشر الوعي الخلقي ،وبعث الضمير اليقظ في نفوس المواطنين ، واظهار مزايا الاسلام في نصاعة ووضوح .

وهناك وقت يكثر فيه رواد المساجد وهو شهر رمضان ، شهر التهجد والعبادة ، فتغتنم وزارة الاوقاف هذه المناسبة السعيدة لتقوم بتعبئة عامة ، بانتداب الجم الغفير من الفقهاء للقيام بمهمة الوعظ والارشاد والقاء المحاضرات في المساجد والمدارس والنوادي والاذاعة العامة ، حتى تعم الفائدة سائر الراغبين في المعرفة ، والمتعطشين للتعرف على مبادىء الاسلام وتوجيهاته .

وقد كانت هذه السنة حافلة بالنشاط فى هذا الموضوع ، وخصوصا فى شهر رمضان المعظم ، الذى خصه امير المومنين ، وحامي حمى الوطن والدين بمزيد من عنايته فى الدروس المولوية الكريمة .. وكان لجهاز الاعلام الاذاعي والتلفزيوني اثره العظيم فى تبليغ تفسير الآيات من كتاب الله واحاديث رسول الله الى كل الطبقات تنفيذا للرغبة المولوية الكريمة .

ونشير هنا الى احصاء تقريبي لهذه الدروس فى خصوص شهر رمضان ، حسبما وافانا به نظار الاوقاف ، وسجلوه فى لوائح هذه التعبئة حسب البيانات الآتية :

احصاء الدروس والمحاضرات التى القيت اثناء

شهر رمضان عام 1968

النظارة	عدد الدروس والمحاضرات :
الرباط	522
سلا	464
فاس	387
صفرو	130
تازه	1350
مكناس	783
زرهون	145
الدار البيضاء	1608
مراكش	1189
الصويرة	746
الجديدة	609
اسفي	850
وزان	569
طنجة	528
تطوان	638
الحسيمة	1305
الناضور	1036
وجدة	954
قصر السوق	1160
بني ملال	1093
زاكورة	464
ورزازات	1073
تارودانت	1247
مجموع الدروس	18.850

وهكذا ، فقد قامت الوزارة باعداد برنامج واسع ، خلال هذه السنة ، بحملة وعظ مكنت جميع المواطنين من التفقه فى شؤون دينهم والتعرف على فضائله وتعاليمه السامية سواء بواسطة الدروس التى القاها مرشدون مختارون بالمساجد او بواسطة المحاضرات التى انتدبت الوزارة لالقائها بالتلفزة او الراديو ثلة من كبار الاساتذة .

كما عقدت عدة اجتماعات مماثلة بمختلف العمالات لتنظيم الدروس والمحاضرات الدينية تنظيما محكما حتى تكون عامة وشاملة فى جميع انحاء البلاد .

وقد اهيب بكافة المواطنين ان يقبلوا على هذه الدروس اقبالا كاملا حتى تحصل الفائدة وتتحقق الآمال المعلقة عليها .

وبجانب هذا النشاط الذى قام به الاساتيذ والوعاظ فى رحاب المساجد تقوم الوزارة بحملة توجيهية خلقية واجتماعية تذاع على امواج الاذاعة وشاشة التلفزيون .

وقد قام قسم الوعظ والارشاد بتحرير خطب نموذجية تناولت موضوعات تهم المجتمع المغربي وزع منها عدد كبير على الخطباء والوعاظ .

والى جانب هذا فالوزارة تعمل فى الميدان الاجتماعي حيث تقوم بدور كبير بالغ فى امداد بعض الجمعيات الخيرية بالمغرب والخارج بمعونات نقدية هامة .

الكتاتيب القرآنية :

وفى نطاق الاعمال التوجيهية والتثقيف الديني فقد فتحت الوزارة هذه السنة عدة كتاتيب نموذجية فى مختلف انحاء المملكة حتى يبقى كتاب الله محفوظا فى ضمير الشعب المغربي الذى ارتضى الاسلام دينا ، فآمن به ، وكافح دونه .

وقد قام قسم الكتاتيب القرآنية الحرة هذه السنة بمهمة فرز وفحص الملفات الراغب اصحابها

فى فتح كتاتيب حرة فى مختلف مدن وقرى المملكة المغربيـــة .

وهكذا اذنت الوزارة بفتح كتاتيب قرآنيـــة بمختلف انحاء المغرب خلال سنة 1968 بلغ مجموعها84 كتابا قرآنيا .

ولقد كانت الوزارة من السباقين الى تلبيـــة النداء المولوي السامي الذى وجهه صاحب الجلالـة فى شأن فتح المدارس القرآنية العلمية حيث انشأت عدة مدارس ومعاهد فى سنة 1968 بمختلف اقاليـم المملكة خصصت لها اعانات نقدية هامة .

وقد شرعت هذه السنة فى انشاء عدة مدارس ومعاهد علمية فى مختلف انحاء المملكة تعميما للفكرة التى نادى بها مولانا الامام الحارس الامين علـى مقدسات الامة ، ومثلها العليا .

ـ منـح للطلبـة الافارقـة ـ

وفى سنة 1968 استقدمت الوزارة ، فى نطاق حملاتها التثقيفية الدينية ، طلابا مسلمين من قارتنا الافريقية وارصدت لهم مائـة منحـة من ميزانيتهـا تسهيلا لاقامتهم وتثقيفهم ، وربطا لاواصر المحبـــة والصداقة بين بلدانهم .

وان الوزارة لتتوخى من تعليم هؤلاء وتثقيفـهم وتوجيههم ان يكونوا تكوينا اسلاميا صحيـحا حتـى يستطيعوا القيام ببث الوعي الاسلامي ـ بعد تخريجهم من معاهدنا ـ فى بلدانهـم ؛ وبـذلك تكـون وزارة الاوقاف قد اسهمت ـ فى نطـاق اعمالهـا ـ ببث الروح الاسلامية الصرف خارج حدود البلاد .

اشـغـال الـحــج

وقد انعقدت جلسة عمل بمقر الوزارة مثلت فيها الوزارات الآتية : الشؤون الخارجية ، والداخليـة ، الشؤون الادارية ، والمالية ، والاشغـال العموميـة ، وشركـة الخطـوط الجـويـة الملكيـة ، تـحـدث فيهـا معـالي الوزيـر الى العنـايـة التى يخـص بها جلالـة مولانـا الامـام المنصـور باللـه شـؤون الحجاج المغاربة خاصة ، والمسلمين عامة، وذلك بالعمل على تسهيل الوسائل الكفيلة لراحتهم ، حتـى يـؤدوا فريضة الحج مطمئنين على احسن الوجوه من الناحية المادية والمعنوية حسب المرسوم الملكي الخاص بذلك .

وقد بلغ عدد الحجاج الذين سهرت عليهم الوزارة عام 1968 نحو عشرة آلاف حـاج كان حجهـم فى احسن الظروف بفضل العناية والرعاية والترتيبات التى تسهر على تنفيـذها وزارة الاوقـاف والشؤون الاسلامية طبقا للتعليمات الملكية الرشيدة .

المعتنقـون للاسـلام

وقد اعتنق الاسلام خلال سنة 1968 فى مختلف انحاء المملكة المغربية خمسة وخمسون شخصـا مـن مختلف الجنسيات ، اسلموا عـن طواعيـة ورضى ، واختيار واقبال .

وقد سجلوا ، واعدت ملفات كاملة خاصة بهم، بعد استسلام وثائق اعتناقهم للاسلام فى المحاكـم المختصة .

مراقبة الاهلة وطبـع حصـص رمضانيـة

بذلت الوزارة جهودا فى مراقبة الاهلة باستمرار طوال السنة، وذلك بواسطة الميقاتيين وسهر النظارات التابعة للوزارات ، ومـؤازرة المحـاكم الشرعيـة فى مختلف انحاء المملكة .

وقد استخدمت المراصد الجوية لمراقبة الاهلـة فى شهري رمضان وشوال حتى تستنفـد الـوزارة اقصى الجهود فى هذا الميدان . وقد طبعت الـوزارة هذه السنة عدة حصص خاصـة بتوقيت الامســاك والافطار فى شهر رمضان واوقات الصلاة فى الداخل لابناء الوطن وللجالية المغربية المقيمة فى الخارج .
فوجهت حصصا لاوقات الصلاة ، والامســاك

والافطار لشهر رمضان الى كل العمال المغاربة المسلمين المقيمين ببروكسيل ، وامستردام وبرلين ومرسيليـا وباريس ولندن ومدريد وبردو .

وهكذا يمتد اهتمام الـوزارة ونشاطهـا لا الى المواطنين فى الداخل فحسب ؛ بل ان عنايتها تشمـل حتى المواطنين العاملين فى الاقطار الخارجية طبقـا التعاليم الملكية السامية التى يشمل بها صاحب الجلالة الملك المعظم رعاياه الاوفياء فى الخارج ايضا ، حرصا منه حفظه الله على ابقاء الروح الاسلامية فى نفـوس

المواطنين النازحين عن اوطانهم والذين يعملـون فى الخارج انتجاعا للرزق ، وطلبا للمعيشة .

فى ميدان النشر والتاليـف

اما فى الميدان العلمي ، والنشر والتاليف ، فقد اصدرت الوزارة كتاب « الدروس الحسنية » وهـو عبارة عن نص المحاضرات الدينية التى القيت فى شهر رمضان من السنة الماضية (1968) ، وقـد وزعـت الوزارة هذا الكتاب على نطاق واسع تخليدا للعهـد الحسني الذى يتسم عهده حفظه الله وايده بتعميم الثقافة ، وشمول المعرفة وتشجيع الحركة الفكريـة والعلمية . .

وقد تم كذلك نشر وانجاز الجزء الثالث مـن كتاب ترتيب المدارك للقاضـي ابي الفضـل عيـاض ، وسينشر الجزء الرابع عما قريب باذن الله .

ولم تبق الا اللمسات الاخيرة لانجاز الجـزء الثاني من كتاب «التمهيد» لابن عبد البر .

وفى سنة 1968 اصدرت الوزارة عدديـن خاصين ممتازين من مجلة «دعوة الحق» الاول بمناسبة ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم الذى امر مولانا امير المومنيـن باحيائهـا ، والثـاني بمناسبة الذكرى الثامنة لجلوس صاحب الجلالة على اريكة اسلافه الامجاد المنعمين وقد كان لهذين العددين صدى بعيد فى سائر الاوساط الثقافية ، والمحافـل العلمية فى الداخل والخارج .

وبجانب مجلة «دعـوة الحـق» قامـت مجلـة «الارشاد» التى تهتم بالتثقيـف الشعبـي بمجهـود توجيهي خلقي فى الداخل والخـارج حيث اسهمـت بفضل محرريها باعمال تثقيفية وتربية وطنية كان لها صدى بعيد فى نفوس المواطنين الذين يتطلعـــون لقراءتها فى شوق ولهف فى الداخل والخارج .

ـ فى ميدان البناء ، والتعمير ، والاستثمـار الفـــلاحي ـ

ويوجد جانب آخر، ذو اهمية بالغة، تعمـل له الوزارة، يرمي الى مستوى دخلها لمواجهة المصاريـف الدينية التى تتزايد باطراد متواصل، وتساهم بالتالي فى تنمية الدخل القومي ، وتطوير الاقتصـاد الوطني ، وذلك هو قيام الوزارة باعمال اجتماعية واقتصاديـة وفلاحيـــة :

أ) اعمال اجتماعيـة

ففى الميدان الاجتماعي تمنح الاوقـاف مكافـآت مالية لاتزيد من عشرين الف موظف ديني ، وبذلـك تسهم بحظ لا بأس به فى ازالة مظاهر البؤس والفاقة عن عدد كبير من العائلات فى مختلف انحاء المملكة ، كما انها تسـدد من ميزانية الاحباس اجـور الموظفيـن الاداريين الذين يعملون بمصالحها الخارجية (النظارات) ويربو عددهم عن 300 موظف .

وبالاضافة الى ذلك فان الوزارة تفتح اوراشـا فى جميع انحاء البلاد لبناء المساجـد والبنايـات على اختلاف انواعها ، وتشغل فى هذه الاوراش الصنـاع من جميع المهن والحرف .

وبهذا تقوم الاحباس بدور اجتماعي على جانب كبير من الاهمية وتساهم مساهمة فعالة فى تنميـة وازدهار الاقتصاد الوطني .

ب : اعمـال عمرانيـة :

اما فى ميدان البناء والتعمير فان الاحبـاس تبني باستمرار المساجد فى المدن والقرى والمداشـر والبادية حسبما لديها من الامكانيات الماليـة ، وقـد ظهرت منذ بزوغ فجر الاستقلال رغبة ملحة من طرف المواطنين فى جميع ربوع المملكة لتزويدهم بالمسـاجد ، خصوصا فى الاحياء التى كان يقطنها الاوربيون بالمدن والتى كانت محرومة من اماكن العبادة ، وكذلك فى القرى التى كانت مـزودة بالكنيســة ولم يكـن بهـا مسجد ، فقامت الوزارة بأمر من صاحب الجلالة الملك المعظم فشيدت عشرات المساجد الجديدة الفسيحة بمختلف المدن كما بنت عدة مساجد صغيرة بالقـرى والمداشر والبوادي ورممت مآت المساجد المبثوثة فى مختلف القبائل .

بالاضافة الى ذلك فان الوزارة تشيد باستمرار العمارات والحمامـات والـدور والافـران وتقـوم باستصلاح الرباع الحبسية القديمة للحفاظ عليها من التلاشي والخراب، وتمول هذه المشاريع مما تحصله من اموال المعاوضات سعيا فى تجديد ممتلكاتها ؛ ومن وراء ذلك كله الى توفير وسائل العبادة فى المساجد وتيسير الحياة الروحية للمومنين . ولا شك ان فى

مثل هذه الاعمال مساهمة فعالة في رفع الدخل القومي مساهمة فعالة فى رفع الدخل القومي وتحسين حالة الاقتصاد الوطني وتوفير الشغل للطبقة الكادحة .

والمساجد التى تم انجازها خلال سنة 1968 هي كما يلي موزعة على اقاليم المملكة :

المنجزات خلال سنة 1968

الاقاليم	العدد	المدن
1) اقليم اكادير	2	طنطان وتلبورجت
2) اقليم آسفي	1	بمدينة آسفي
3) اقليم مراكش	23	منها واحد بالمدينة
4) اقليم ورزازات	3	تلوين ، ترارين ، تنغير
5) اقليم تافيلالت	3	قصر السوق ، ارفود، بوذنيب
6) اقليم فاس	3	موزار مرموشة وصفرو، واعادة مسجد البيضاء بفاس الجديد
7) اقليم القنيطرة	1	المسجد الاعظم بوزان
8) اقليم تطوان	1	بمدينة تطوان – الحي الجديد
9) عمالة الرباط وسلا	3	سيدي الغندور ، ومسجد السنة ، ومسجد حجي بسلا
10) عمالة الدار البيضاء	1	سيد يالبرنواص
الجملة	**41**	

اما الاصلاحات التى قامت بها الوزارة بمختلف الاقاليم ، فهي كما يلي :

1) نظارة القرويين	5
2) احواس فاس	2
3) مكناس الكبرى ونواحيها	8
4) مكناس الصغرى	5
5) سلا	5
6) الرباط	13
7) الدار البيضاء ونواحيها	6
8) مراكش	15
9) الجديدة	5
10) آسفي	2
11) الصويرة	3
12) بني ملال	14
13 تطوان وقبائلها	10
14 طنجة	6
15) القصر الكبير وقبائلها	46
16) صفرو وقبائلها	6
17) رودانة	1
18) وجدة	8
19) الناضور	4
20) الحسيمة	2
21) تازا	7
22) شفشاون	6
	179

اما المشاريع المزمع اشادتها سنة 1969

1) اقليم فاس – بالقبائل مساجد عدد	17	منها 1 بمولاي يعقوب
2) اقليم تازا	10	بالقبائل
3) اقليم تطوان	5	بالقبائل
4) اقليم مكناس	2	بالمدينة
5) **اقليم مراكش**	2	**اصلاح مساجد باب** دكالة، وهيلانة، وبن صالح
6) اقليم اكادير	1	مسجد اتزا

ولاستثمار اموال الاحباس وتوظيفها ، والعمل على تخفيف حدة البطالة ، والسعي فى ايجاد حل لازمة السكنى الناتجة عن تضخم السكان فى المغرب فقد تقرر – فى نطاق مشاريع الوزارة – تاسيس قرى وعمارات حبسية تتوفر على جميع المرافق الضرورية ، وستكون هذه القرى متوفرة على الوسائل اللازمة لراحة السكان وامنهم وسعادتهم ، وباثمان مناسبة ، وسيشرع فى بناء هذه القرى فى هذه السنة (1969) ويتم ذلك فى كل من المدن الآتية : الدار البيضاء – تافيلالت – سلا .

ج ـ اعمال فلاحية :

ومن ناحية اخرى فان الميدان الفلاحي يسترعي اهتمام الوزارة منذ بزوغ فجر الاستقلال .

وقد عكفت على استصلاح بعض هذه الاراضي بالحرث بالآلات الحديثة والتسميد والسقي وتقليم الاشجار وعلى الاخص الغرس والتشجير .

وهكذا انشئت مزارع نموذجية في جميع النواحي تتوفر على اراض حبسية ذات مساجد كبيرة، وقابلة للتشجير فشيدت زيادة على ذلك فوقها بنايات وجهزت بأجود الآلات الفلاحية الضرورية فى هذا المضمار .

ان وزارة الاوقاف من اكثر مؤسسات الدولة اشعاعا وتغلغلا فى جميع الاوساط بالحاضرة والبادية وان عملها الروحي والديني الذى هو اساس تطبيق عقيدتنا الاسلامية السمحة يقترن دوما بأعمال التنمية والاقتصاد والفلاحة والاجتماع ، وانها ترمي دائما من وراء هذه الاعمال الى رفع مستوى دخلها لتواجه نفقاتها التى تتزايد باطراد ، لتكاثر المساجد تبعا لتكاثر السكان وللرغبة الملحة فى تحسين الاحوال المادية للقائمين بشؤون الاحباس .

واننا لنرجو ان نوفق فى القاء بعض الاضواء عما انجزته بعض الاوقاف والشؤون الاسلامية خلال سنة 1967 ـ 1968 وعما تنجزه فى بحر السنة الجارية والتى تليها من مشاريع ومنجزات فى العرض الذى فى هذا التقرير تنفيذا للتوجيهات الملكية الرشيدة التى تنير لنا سبيل العمل وتحفزنا لمضاعفة النشاط والانتاج .

وقد تم غرس 132.315 شجرة من الانواع الآتية فى غضون سنة 1968 :

الزيتون	66.949
اللوز	19.639
البرتقال	800
الدالية	5.500
التفاح	300
التمر	500
الخروب	3.671
الكليتوس	28.161
الصنوبر	5.795
المشمش	1.000
الجملة :	**132.315**

وقد شمل هذا الغرس مساحة من الارض تقدر ب 889,88 استعملت الطرق الآتية لاستثمارها :

بصفة مباشرة	69.445 شجرة
بواسطة الفلاحين	29.418
بواسطة ادارة المياه والغابات	28.661
بواسطة مكتب الاستثمار الفلاحي	4.791
	132.315 شجرة

واذا قارنا هذه النتيجة بالتى اسفر عنها مشروع التشجير الذى انجز فى السنة الماضية نجد زيادة محسوسة توضح مدى اجتهاد النظارات فيما يخص الحصول على اكبر عدد من الاشجار فى سنة تميزت بنزول امطار غزيرة وبكيفية منتظمة ومردود ذي اثر حميد فى نفوس المواطنين .

وهكذا بلغ عدد الاشجار فى السنة الماضية 120.196 شجرة بينما ارتفع هذا العدد الى 132.315 فى هذه السنة اي بزيادة 12.119 شجرة.

ومن جهة اخرى فان عدد النقلات التى هيئت فى المطارح يقدر ب 83.500 ستستعمل لتموين النظارات التى تسهر على انشاء مغارسات جديدة .

وفيما يرجع للتجهيز الميكانيكي قد تم شراء عدد كبير من الجرارات والمحركات قد وزعت على جهات متعددة تابعة لوزارة الاوقاف .

كما توبعت عملية حفر الآبار ، ومد القنوات ، وبناء خزانات الماء فى الاراضي القاحلة ، وفى هذه السنة ايضا شرعت الوزارة فى بيع غلال اشجار الزيتون التى تم غرسها فى سنتي 1957 و 1958 وغلال البرتقال والمشمش التى غرست فى سنوات 1959 ـ 61 ـ 62 . وكانت النتائج لا باس بها .

اما اليد العاملة فقد عرفت تضخما هذه السنة بسبب الزيادة التي طرأت على عملية التشجير ، فكلما اشتدت ممارسة الا وبقع تعيين مشرف عليها وعمال جدد الاشتغال فيها ، فينشأ عن ذلك ارتفاع في الصوائر المخصصة لهذه الغاية ، وفي هذه السنة ايضا وقع تعديل في مرتبات كثير من الخبراء الفلاحيين المشرفين على المزروعات الحبسية بناء على النشاط الذي تميزوا به في هذا المضمار .

وفيما يخص الممارسات مع الفلاحين فان نتائجها بدات تلوح بوادرها بعد ما قام هؤلاء بانجاز جميع الاشغال الفلاحية المنوطة بهم كالتجفيف والتسميد والتقليم والحرث .. فعلى ضوء البيانات التي ادلى بها المفتشون الحبسيون الذين وقفوا على عين المكان خفض لهم من الكراء الذي كانوا يؤدونه للاحباس منذ ان ابرموا عقودا في هذا المضمار وذلك بنسبة تتراوح ما بين ثلاثين في المائة وخمسين وثمانين كلما تجاوزت نتيجة سمسرة بيع الغلة الناتجة عن هذا الغرس مضعف واجب الكراء ، فمن كان مثلا يؤدي 100 درهم في السنة ويبعت غلة الاشجار التي غرسها بمعدل 200 درهم في اربع سنوات يخفض له 50 درهما من واجب الكراء ، وتعتبر هذه الطريقة تشجيعا لمن ساهم من الفلاحين الجادين المتعاونين مع الاحباس في تنمية مداخله الشخصية ، والمساهمة في ازدهار البلاد ، ويقدر عدد الاشخاص الذين حصلوا هذه السنة على رخص تشجير الاراضي الحبسية بمائة شخص .

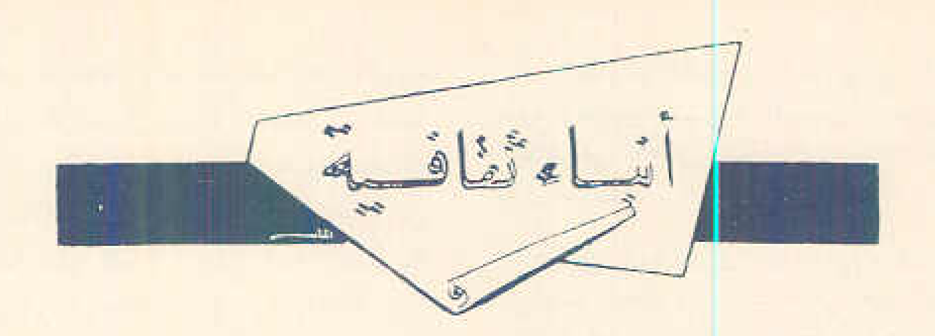
وفي سنة 1968 توبعت عملية تحفيظ الاراضي الحبسية في عدة نواحي ، وقد بلغ عدد القطع التي شملها هذا المشروع 208 قطعة .

كما وقع الشروع بالتعاون مع وزارة الفلاحة في تقليم وتجفين وتسميد اشجار الزيتون بكيفية واسعة النطاق في الاماكن المحتاجة الى هذه العملية كناحية وزان مثلا .

ومن جهة اخرى فان مشروع ضم الاراضي بعضها الى بعض دخل هذه السنة في حيز التنفيذ بالشمال، وقد اسفر عن نتائج مرضية بسبب التفاهم والموافقة والاستعداد الذي اظهره الفلاحون المجاورون للاراضي المحبسة المجزوءة ، وهكذا تم الحصول على اراض شاسعة سهلت ، بكثير ، عملية التشجير .

تلك هي حصيلة سنة كاملة قدمناها في هذا العرض المختصر ، مؤملين ان نكون قد وفقنا في تقديم وعرض ما انجزته هذه المؤسسة الحيوية من مشاريع واعمال خلال سنة 1968 .

ومما يضاعف نشاطنا، ويقوي عزائمنا، ان امير المومنين ، وحامي حمى الوطن والدين جلالة الحسن الثاني نصره الله وايده ، ما برح يولي عنايته الفائقة ، ورعايته الابوية لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية التي اصبحت ــ وخصوصا في هذا العصر ــ تؤدي رسالتها السامية ، في معترك الحياة الجديدة المعقدة ، وخضم التيارات الجارفة للمفاهيم الفكرية والعقلانية الحديثة التي تفد الينا مع المستوردات الغربية الملحدة الآثمة ، وهذا مما يطلب منا ــ بفضل التوجيهات الرشيدة لمولانا الامام ــ مضاعفة الجهد ، ومواصلة النضال في سبيل العقيدة الاسلامية وترسم خطى سلفنا الصالح الذي سار على النهج القويم ، والمحجة البيضاء ، فحالفه التوفيق المبين ، والنصر المؤزر ، فهدوا الى الطيب من القول ، وهدوا الى صراط مستقيم ..



المغـــرب :

* تفضل الشاعر الكبير الاستاذ مولاي عبد المالك البلغيثي ، فجرد من مخطوط ديوان والـده المرحوم العلامة الكبير مولاي احمد بن المامون البلغيثي نسخة فى مجلد كبير وقدمها للخزانة العامة بالرباط لتاخذ مكانها بين المخطوطـات الثمينة هناك . وليستفيد منها الراغبون فى الاطلاع على شعر العلامة البلغيثي الشهيـر . وينوي ولده ان يردف هذا الديـوان ببقيـة مخطوطات والده. وهي بادرة حميدة نتمنى ان يقتدي بها اولئك الذيـن يستاثـرون بنفـائس واعلاق المخطوطات ، ضنا بها على القراء ، وجودا على الارضة المبيدة ، والعث الاكال .

* جـرت حفلـة بمقـر وزارة الاوقـاف والشؤون الاسلامية ، وشح خلالها وزير الاوقاف صدور بعض الموظفين العاملين بهذه الوزارة بالاوسمة التى انعم بها عليهم صاحب الجلالة .

* اقيم بمدينة الرباط تأبين لوفاة المرحوم الدكتور محمد ابن الجناوي .

* اصدرت اللجنة الوطنية للجغرافية المغربية التى تصدر سلسلة « اطلس المغرب » لوحتيـن جديدتين تتناولان القطـاع الاقتصـادي همـا : « خريطة محصولات الحبوب » و « خريطـة زراعة الاشجار » .

* القى الاستاذ مولاي مصطفى العلوي محاضـرة بعنوان : « فلسفة اركـان الاسلام » بمدينـة اصيـــلا .

* صدر عن وزارة الشبيبة والرياضة كتيب يضم المحاضرة التى كان القاها الاستاذ عبد الهـادي التـــازي .

* نظمت مجلة « انفاس » بكليـة الآداب بالربـاط امسية القيت فيها القصص والقصائد التى نشرت بالعربية فى العدد الاخير من المجلة .

* اصدر الدكتور محمد عزيز الحبابي كتابا جديدا بالفرنسية بعنوان « ابن خلدون » ، وذلك عـن دار سيقرس بباريس .

* القى الاستاذ محمد مفتاح بشفشاون محاضـرة عن « ابي حيان ــ شيخ المؤرخين بالاندلس » .

* نظمت جمعية البعث الثقافي بمكناس مناظـرة حول « تطور القصة المغربية »

* القت السيدة كيس ريم خبيرة التكوين التربوي ببروكسيل محاضرتين بالربـاط . الاولى فى موضوع « التربية والتكوين فى عصر تقني » . والثانية : «اهمية التربية وتكوين المراة» .

* قدم الى المغرب وفد ثقـافي تونسـي فى اطـار اللجنة المختلطة الدائمة للتعاون الثقافي والفني بين تونس والمغرب . وهي اللجنة التى نـص عليها الاتفاق الثقافي الذى وقع عليه الطرفان بتونس فى 4 دجنبر 1964 .

* القى الاستاذ عبد الله العروي محاضرة بكليـة الآداب بالربـاط فـى موضـوع « العـــرب والتـاريـخ » .

* زار المغرب اخيرا الاستاذ لون تينكل استاذ اللغة الانجليزية والادب المقارن بالجامعة المنهجيــة

لجنوب تيكساس . والقى سلسلة من المحاضرات حول الحضارة الامريكية فى كبريات المدن المغربية، تحت اشراف وزارة الشؤون الخارجية .

* عقد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي فى مقر وزارته ندوة صحفية خصصها للحديث عن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق . وهي اول جائزة تعدها الوزارة من هذا النوع .

* نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي سلسلة من المحاضرات تلقى مساء كل يوم اثنين فى مختلف الميادين الثقافية. وقد افتتح هذه السلسلة من المحاضرات السيد وزير الثقافة بمحاضرة عن « العبدري » ثم تلاه الاساتذة : قاسم الزهيري ، وزير التعليم الثانوي ، واحمد الاخضر مدير ديوان وزير الثقافة ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، وعبد الكريم غلاب ، وعبد المالك جسوس ، ومحمد المنوني ، وعبد الوهاب بنمنصور .

* ستنظم المفتشية الاقليمية للشبيبة والرياضة بقصر السوق خلال عطلة فصل الربيع اسفارا ورحلات دراسية للتعرف على تلك المناطق .

* القى الدكتور عبد اللطيف السعدالي محاضرة بالغرفة التجارية بفاس فى موضوع « تجربة الشعر الحديث بأيران » . وذلك بدعوة من فرع اتحاد كتاب المغرب بفاس .

تونس :

* بمناسبة مهرجان ذكرى محمد العربي ، نظمت دار الثقافة ابن رشيق بتونس معرضا يحتوي على فصول ادبية واشعار كتبها الشاعر الراحل محمد العربي ، مع ابرز ما كتب عنه

الجمهورية العربية المتحدة :

* اجتمعت فى القاهرة اللجنة التحضيرية لمؤتمر ادباء العرب الذى سيعقد ببغداد خلال شهر ابريل القادم . وكان المؤتمر الخامس الذى انعقد فى السنة الماضية بالقاهرة قد اقترح موضوعا للمؤتمر السادس ، وهو : « الكاتب العربي والمشاكل المعاصرة » .

* اصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة جزءا عاشرا من مجموعة : « المصطلحات العلمية والفنية التى اقرها المجمع » ومن ضمن فصول هذا الجزء مصطلحات فى الجيولوجيا ، والبترول ، والتاريخ ، والفلسفة، والطب، والحضارة، وغير ذلك .

* اصدر الدكتور عبد الحي دياب كتابا عن «التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد » تناول فيه بالدرس المحاولات النقدية المبكرة التى كثيرا ما اهملها دارسو الادب مع ان اقطابها كتاب بارزون مثل: المرصفي، والمويلحي ، والرافعي ، واحمد ضيف، وخليل مطران ، وطه حسين .

* ترجمت الدكتورة نازلي اسماعيل حسين ، كتاب الفيلسوف الالماني ايمانويل كانت ، الموسوم « مقدمة لكل ميتافزيقية مقبلة يمكن ان تصير علما » راجع الترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .

* من الكتب التى تتناول الموضوعات الاسلامية التى صدرت فى القاهرة هي :

« مكة والمدينة على عهد الجاهلية وعهد الرسول » للدكتور احمد ابراهيم الشريف ، و « شخصية محمد » للاستاذ محمد شلبي ، و « الدين والحياة » للاستاذ محمد البرشومي .

* اصدر الدكتور محمود سلام كتابا بعنوان « تاريخ النظم القانونية » .

* صدر للاستاذ احمد الجاسر تحقيق لكتاب « بلاد العرب » لمؤلفه الحسن بن عبد الله الاصفهاني .

* من الكتب النفيسة التى صدرت فى هذه الايام كتاب « دعوة التقريب من خلال رسالة الاسلام » يضم طائفة كبيرة من الدراسات الدينية واللغوية

كتبها اعلام المفكرين في ربوع العالم الاسلامي ، مثل الاساتذة محمد فريد وجدي ، عبد المجيد سليم ، محمد تقي القمي ، محمد جداد مغنية ، محيي الدين القلبي ، احمد امين ، محمود شلتوت ، عباس حسن ، علي الجندي ، محمد عبد الله دراز .

* كتاب « الفن الاسلامي » لجورج مارسيه ظهرت ترجمة عربية له بقلم الدكتور عفيف بهنسي .

* نعت القاهرة الناقد الفني المعروف جليل البنداري .

* الدكتور مصطفى محمود ، احرز على جائزة الدولة التشجيعية عن روايته « العنكبوت » و «رجل تحت الصفر»

* رشح المجمع اللغوي بالقاهرة الدكتور ابراهيم بيومي مدكور لنيل جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية ، والدكتور مهدي علام ، ومحمد خلف الله احمد بجائزة الدولة التقديرية في الآداب .

* بدات لجنة الفاظ الحضارة بالمجمع اللغوي تعريب مصطلحات علم « الانسجة » .

لبنان :

* يكاد ينتهي الاساتذة : خليل حاوي ، وايليا حاوي ، ومطاع صفدي ، بعد جهد استمر ثلاث سنوات على الانتهاء من موسوعة « الشعر العربي » الذى تقع فى عشرين مجلدا . كل مجلد في 500 صفحة ، وتتناول هذه الموسوعة بالدرس ، الشعراء العرب من الجاهلية الى ايامنا هذه . وقد بوبت الموسوعة على التشكل الآتي :
مقدمة لكل عصر ، ثم مقدمة لكل شاعر ولكل قصيدة، وفى الذيل شروح ضافية للقصائد بيتا بيتا . وقد احال المؤلفون كل عصر على اهل اختصاصه فى البلاد العربية من اجل مراجعته.

* اصدر الدكتور فيليب حتى كتابا باللغة الانجليزية عنوانه : « صانعو التاريخ » ترجم فيه للرسول الكريم ، ثم تناول عمر بن الخطاب، ومعاوية ، وعبد الرحمان الداخل ، والمامون ، وعبيد الله المهدي ، وصلاح الدين الايوبي ، والغزالي ، والامام الشافعي ، والكندي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن خلدون .

* تصدر فى بيروت طبعة جديدة من المعجم الكبير الذى صنفه الامير الراحل مصطفى الشهابي بعنوان : « معجم الالفاظ الزراعية » .

* « الوحدة » ، وهو القسم الثاني من مذكرات الحرب للجنرال دي غول قام بترجمته عبد اللطيف شرارة ، وراجعه احمد عويدات . صدر مؤخرا فى بيروت .

* صدر فى لبنان كتاب « القرن التاسع عشر » ، وهو الجزء السادس من موسوعة الحضارات العالمية لروبير سنيربا ، ترجمه يوسف اسعد داغر .

* الشاعرة اللبنانية فينوس خوري ، فاز ديوانها الشعري بالفرنسية « الارض الراكدة » بجائزة جمعية ادباء فرنسا لعام 1969 . وقد صدر الديوان عن «دار سيفر» بفرنسا .

* صدر فى منشورات عويدات ببيروت كتاب « الفلسفة الفرنسية لجان قال . قام بترجمته الى العربية مارون خوري ، كما صدر عن نفس الدار كتاب « الامومة والبيولوجيا » لجان روستان ، ترجمه الى العربية الدكتور عدنان التكريتي ، الاستاذ المساعد بكلية الطب بجامعة دمشق، وسيصدر عن نفس الدار الكتب الآتية :
— « الثقافة الشعبية فى فرنسا » ، لجاك ساربترو، ورنيه كابيس ترجمة بهيج شعبان ، وكتاب «صحراء الحب» رواية لفرانسوا مورياك ترجمة نادبا شعبان ، وكتاب « الله ، والحب اليابس » وهو ديوان شعر للسيدة انصاف الاعور معضاء .

* قريبا يصدر فى بيروت للمؤرخ العلامة محمد جميل بيهم كتاب جديد بعنوان : « عروبة لبنان: تطورها فى القديم والحديث » .

* اقيم في بيروت مهرجان كبير احياء لذكرى الشاعر بشاره عبد الله الخوري (الاخطل الصغير).

* صدرت في بيروت الكتب الآتية :

« الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر » لمحمد البهي . « مشكلات الشرق الاوسط ـ الوطن العربي » لابراهيم علوان « محمد في مكة » لمونتكوميري وات . ترجمة شعبان بركات . « اصول الدين الاسلامي » للشيخ محمد علي ناصر .

* اصدر جورج طرابيلسي المترجم المعروف كتابا ضخما بعنوان : « النزاع السوفييتي الصيني »، والكتاب اول دراسة عربية شاملة عن نزاع موسكو ـ بيكين .

* اصدر الكتاب اللبنانيون بيانا يندددون فيه بالهجوم الصهيوني على مطار بيروت ، ويأخذون على حكومتهم موقفها المتخاذل ، كما يلاحظون ان لبنان جزء من الوطن العربي .

* سيصدر قريبا في بيروت ديوان شعر جديد لجورج غانم بعنوان : « بحر الحب وقصائد الفرع » .

سوريـــا :

* صدر في دمشق ، عن منشورات دار مجلة « الثقافة » كتاب بعنوان : « بدوي الجبل » ، مشتملا على دراسة عن الشاعر ومنتخبات من قصائده .

* نعت سوريا السياسي السوري السابق رزق الله انطاكي .

* « السيل » مسرحية شعرية للشاعر السوري علي كنعان . سبق للشاعر ان اصدر دواوين اخرى .

العـــراق :

* اصدرت وزارة الثقافة في بغداد ضمن سلسلة الكتب المترجمة كتابها الثالث وعنوانه : « الحياة في العراق منذ قرن » وهو من تاليف السفير بيير دي موصيل ترجمة الدكتور اكرم فاضل .

* « الأمل الظمآن » مجموعة شعرية صدرت للشاعر العراقي محمد حسين آل ياسين . وقد سبق للشاعر ان اصدر مجموعته الشعرية الاولى بعنوان : « نبضات قلب ».

* صدر في بغداد بتحقيق الشيخ محمد آل ياسين « كتاب الاشتقاق » لعبد الملك بن قريب ابن عبد الملك الملقب بالاصمعي المتوفى سنة 217 هـ . وهو من المجلد 16 من مجلة المجمع العلمي العراقي .

* « ضباب الظهيرة » قصة طويلة لبرهان الخطيب، صدرت في بغداد، وللمؤلف مجموعة قصصية بعنوان « خطوات الى الافق البعيد » .

* « انشودة المجد » ديوان صدر للفقيدة ام نازك الملائكة . قامت ابنتها بجمعها وتنسيقها والاشراف على طبعها .

* عن مكتب الرصافي صدرت مجموعة قصصية جديدة لعبد المجيد لطفي بعنوان : « بعض الذكريات » .

المملكة العربية السعودية :

* تبرع عاهل السعودية بمبلغ 70.000 جنيه استرليني لاربعة مراكز اسلامية في السودان ، تقوم بالدعوة للدين الاسلامي .

* صدر عن مطابع الرياض بالسعودية كتاب : « ابن مقرب : حياته وشعره » للاستاذ عمران محمد العمران .

* كتاب صدر عن حياة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود بعنوان : « تاريخ مملكة في اسرة زعيم » .

* كما صدر في الرياض كتاب : « ابطال من الصحراء » للاستاذ محمد بن احمد السديري، وهو الجزء الاول من سلسلة كتب يعتزم المؤلف اصدارها بهذا العنوان . وقد خصص مدخل الكتاب للفدائيين الفلسطينيين .

* صدر عن دار النشر السعودية كتاب « القانون الاسلامي وقضايا معاصرة » .

الاردن :

* تم في عمان التوقيع على اتفاقية مع اليونيسكو على اجراء مسح فوتوغرافي لاثار البتراء .
* صدرت في عمان مجموعة شعرية لمحمد حسن علاء الدين بعنوان : « ارادة وقدر » ، يضم قصائد وطنية وغزلية .
* « التنمية الاقتصادية في الاردن » كتاب صدر في عمان للدكتور وديع شرايحة .

الاتحاد السوفياتي :

* صدر اخيرا في موسكو قاموس للهجة الشعبية في مصر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للشاعر العربي الشهير يوسف العربي المتوفى عام 1611 .

ويعد القاموس الجديد بمثابة دائرة معارف تصف التحليلات المختلفة للغة العربية . كما انه يشتمل على ثروة من المواد التاريخية والعادات والادب الشعبي في مصر ، ويحتوي الى جانب القطع الادبية على احاديث البدو وسكان القاهرة وغيرهم في ذلك الزمان ، وهو يساعد على ايضاح الكثير من جوانب شخصية يوسف العربي نفسه الذي لعب دورا كبيرا في تطوير الثقافة المصرية .

وكان مخطوط القاموس قد ورد الى روسيا في عام 1840 وظلت النسخة الوحيدة منه موجودة في مكتبة جامعة لينينغراد . وكان المحقق الاول للمخطوط هو المستشرق كراتشكوفسكي .

* افتتحت محاكمة جديدة لمثقفين في الاتحاد السوفياتي بتهمة الاساءة الى الدولة عن طريق نشر معلومات مزيفة . وقد يتعرض هؤلاء لثلاث سنوات من السجن حسب الفصل 191 من القانون السوفييتي . ومن بين المتهمين ايرينا بيلوغورود سكايا البالغة 31 سنة من العمر ، وهي من اقارب لارسيا دانييل، كما انها من اصدقاء الكاتب فارتشينكو الذى يقال انه في المنفى ، والبابور ميستروفيتش (31 سنة) ، وهو فيزيائي ، وكان يعمل قبل اعتقاله خلال الصيف الماضي بمعهد العلوم البيداغوجية بموسكو .

اسبانيا :

* قامت السلطات الاسبانية بمنع مسرحية : « الجلادان » لمؤلفها فراندو ارابال، الذى كان من المقرر عرضها في مدريد للمرة الاولى .
* طلب المدعي العام لدى محكمة الامن بمدريد بالسجن لمدة سنتين وثلاثة اشهر في حق الكاتب الاسباني نمونسالو ارياس وبالسجن لمدة سنتين لطالب من « تلامذته » . وقد اتهم ارياس بتوزيع نسخ من كتابه المحظور : « الرجل صاحب اللافتة » .
* منذ سنوات والاستاذان السيد محمد عبده حتامله ، والسنيور امادور دياث غرسيا يشتغلان في تاليف قاموس اسباني – عربي . وقد علمنا اخيرا ان القاموس جاهز للطبع ؛ وان كلية الفلسفة والآداب التابعة لجامعة غرناطة قد ساعدت على نفقات طبعه .

لا شك ان القاموس الجديد سيسد ثغرة في المكتبة العربية ، وسيلبي رغبة ملحة لدى آلاف الطلاب والباحثين من عرب واسبان على السواء .

شكر ... ومعذرة

في العدد الخاص بعيد العرش نشرنا على اعمدة مجلتنا بحثا قيما لفضيلة الاستاذ سيدي عبد الله كنون حول بحث حديثي أثير في مجلس السلطان مولاي سليمان العلوي ، وقد وقع غلط في تركيب العنوان، فبدلا ان يكون العنوان على الشكل التالي : بحث حديثي اثير ... كان بعنوان : بحث ديني .. والصواب ، مراعاة للسياق والموضوع ، هو ان يكون العنوان هكذا : بحث حديثي اثير في مجلس السلطان مولاي سليمان العلوي كما وضعه سيادة الاستاذ .

ونعتذر لسيادته على هذا الخطأ المطبعي وشكرا .

فهرس العدد الخامس

صفحة